



شرح

غاية المراد

في نظم الاعتقاد

للإمام نور الدين السالمي

سمّاحة الشيخ

أحمد بن حمد بن سليمان الخليلي

المفتي العام لسلطنة عُمان

مكتبة الجيل الواعد



شرح

غاية المراد

في نظم الاعتقاد

للإمام نور الدين السالمي

مركز بحوث العلوم الإسلامية

سماحة الشيخ

أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام لسلطنة عمان

مكتبة الجيل الواحد

غَايَةُ الْمُرَادِ فِي نَظْمِ الْاِعْتِقَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدَمَةٌ

١. الْحَمْدُ لِلَّهِ مُنْشِي الْكَائِنَاتِ عَلَى
٢. ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا
٣. وَالْآلِ وَالصَّحْبِ مَا كَانَ الْهُدَى عِلْمًا
٤. وَبَعْدُ فَالَّذِينَ لَا عُذْرَ لِحَاجِلِهِ
- مَا شَاءَهَا وَبَلَا مِثْلٍ هُنَاكَ خَلَا
- وَمَنْ إِلَى قَابِ قَوْسَيْنِ دَنَا فَعَلَا
- يَهْدِي بِهِ اللَّهُ لِلْخَيْرَاتِ مَنْ عَقَلَا
- إِنْ كَانَ مِنْ بَعْدِ تَكْلِيفٍ بِهِ جَهَلَا

ذِكْرُ الْجَمَلِ الثَّلَاثِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ

٥. وَأَوَّلُ الْفَرَضِ مِنْ تَأْصِيلِهِ جُمْلُ
٦. وَإِنْ أَتَيْتَ بِهَا نُطْقًا حَفِظْتَ بِهَا
٧. تَدِينُ أَنْ إِلَهَ الْعَرْشِ لَيْسَ لَهُ
٨. وَأَنَّهُ لَيْسَ جِسْمًا لَا وَلَا عَرَضًا
٩. وَوَاحِدٌ فِي الصِّفَاتِ وَالْعِبَادَةِ وَالْ
١٠. أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُ الذَّاتِ لَيْسَ بِغَيْثِ
- ثَلَاثَةٌ ، فُزْتُ إِنْ تَسْتَخْضِرِ الْجَمْلَا
- لِلنَّفْسِ وَالْمَالِ ، وَالسَّيِّئُ بِهَا حُظْلَا
- شِبْهُهُ وَلَيْسَ لَهُ نِدٌّ وَلَا مَثَلَا
- لَكِنَّهُ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ كَمُلَا
- أَفْعَالٍ طُرًّا ، فَلَا تَتَّبِعُوا بِهِ بَدَلَا
- سِرِّ الذَّاتِ بَلْ عَيْنُهَا فَافْهَمْ وَلَا تُحْلَا

١١. وَلَا يُحِيطُ بِهِ - سُبْحَانَهُ - بَصَرٌ
 ١٢. وَلَا يُكَيِّفُهُ وَهَمٌّ وَلَا فِكْرٌ
 ١٣. وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ وَالْأَشْيَا اسْتَوَى وَإِذَا
 ١٤. وَإِنَّمَا الْاسْتِوَاؤُا مُلْكٌ وَمَقْدِرَةٌ
 ١٥. كَمَا يُقَالُ اسْتَوَى سُلْطَانُهُمْ فَعَلَا
 ١٦. وَأَنْ أَحْمَدَ مِنْ رُسُلِ الْإِلَهِ ، وَقَدْ
 ١٧. وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا أَنَا بِهِ
 ١٨. وَقَدْ أَتَتْ حُجُجُ الْبُرْهَانِ نَاطِقَةٌ
 ١٩. وَمَا هُنَالِكَ مِيزَانٌ يُقَامُ كَمَا
 ٢٠. وَإِنَّمَا الْوِزْنُ حَقٌّ مِنْهُ - عَزَّ - أَلَمْ
 ٢١. وَلَا الصِّرَاطُ بِجِسْرِ مِثْلَ مَا زَعَمُوا
 ٢٢. وَأَنَّهُ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ يُدْخِلْهُ
 ٢٣. وَمَنْ عَصَاهُ فَفِي النَّيْرَانِ مَسْكَنُهُ
 ٢٤. وَمَا الشِّفَاعَةُ إِلَّا لِلتَّقِيَّ كَمَا
 ٢٥. وَالْمُؤْمِنُونَ عَنِ النَّيْرَانِ قَدْ بَعْدُوا
 ٢٦. وَأَنْ لِلَّهِ أَمْلَآكًا وَقَدْ غَصِمُوا
 ٢٧. فَلَا تُصِفُهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِكَ مُطْ
 ٢٨. وَالْأَلْبِيَا بِهِمُ الْإِيمَانُ يَلْزُمُنَا
 ٢٩. وَبِالْقُرْآنِ خُصُوصًا بَعْدَ جُمْلَتِهَا

دُنْيَا وَأُخْرَى ، فَدَعُ أَقْوَالَ مَنْ تَصَلَا
 وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَقْطَارُ مُدْخَلَا
 عَدَلَتْ فَهُوَ اسْتِوَاءٌ غَيْرُ مَا عُقِلَا
 لَهُ عَلَى كُلِّهَا اسْتَوَى وَقَدْ عَدَلَا
 عَلَى الْبِلَادِ فَحَازَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَا
 يُخَصُّ مِنْ بَيْنِهِمْ فَضْلًا وَمُفْتَضَلَا
 مُبْلَغُ الثَّقَلَيْنِ مَا بِهِ رُسُلَا
 بِالْمَوْتِ وَالْبَعْثِ وَالْحُسْبَانِ فَاُمْتَثَلَا
 قَالُوا عَمُودٌ وَكَفَاتَ لِمَا عُمِلَا
 تَسْمَعُ إِلَى آيَةِ الْأَعْرَافِ مُحْتَفَلَا
 وَمَا الْحِسَابُ بَعْدَ مِثْلٍ مَنْ ذَهَلَا
 حَسَنَاتِهِ أَبَدًا لَا يَسْتَعْيِي نُقْلَا
 وَلَمْ يَجِدْ مَفْزَعًا عَنْهَا فَيَنْتَقِلَا
 قَدْ قَالَ رَبُّ الْعَالَا فِيهَا وَقَدْ فَصَلَا
 وَمَا الْوُرُودُ لَهُمْ بَلْ لِلَّذِي اتَّخَذَلَا
 وَأَنْ جَنَسَهُمْ عَنْ جَنَسِنَا فَصَلَا
 لَقَا سِوَى أَنَّهُمْ خَلَقَ قَدْ اُمْتَثَلَا
 وَمَا عَلَى كُلِّهِمْ مِنْ كُتْبِهِ نَزَلَا
 وَلَيْسَ مِنْهَا قَدِيمٌ يَحْتَوِي الْأَرْلَا

فِيمَا يَشَاءُ ، فَلَا تُصْغُوا لِمَنْ عَدَلَا
وَأَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِنَا حُلَا
وَعِلْمُهُ سَابِقُ فِي كُلِّ مَا جَعَلَا
فَالْخَلْقُ لِلَّهِ وَالْكَسْبُ لِمَنْ فَعَلَا

٣٠. بَلْ كُلُّهَا خَلَقَ الْبَارِي وَكَوْنَهُ
٣١. وَبِالْقَضَا وَبِمَا الرَّحْمَنُ قَدْرَهُ
٣٢. لَكِنَّهُ لَا يَجْبُرُ كَانَ مِنْهُ لَنَا
٣٣. وَإِنَّمَا الْفِعْلُ مَخْلُوقٌ وَمُكْتَسَبٌ

ذِكْرُ الْإِيمَانِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ

فَالْقَوْلُ مَرَّةً فَصَدَّقَهُ وَكُنْ عَمَلَا
وَالنَّفْلُ إِنْ تَسْتَطِيعَ فافْعَلْهُ مُبْتَهَلَا
وَنِيَّةً وَرَغَةً عَنْ كُلِّ مَا حُظِلَا
تَحُوزُ أَرْكَانَهُ اللَّاتِي بِهَا كَمَلَا
سَكْتَمَانِ طُرُقَ لَهُ ، أَكْرَمَ بِهَا سُبُلَا
فَبِقِي وَصَاحِبِ شِرْكَ جَا حِدِ عَدَلَا
رَا مِنْ مُصِرٍّ وَقَفَّ عَنْ كُلِّ مَنْ جُهَلَا
دَ مِنْ عَصَى جُمْلَةً لِلَّهِ مُمْتَثِلَا
فَرَضُ كَعْدَوَانٍ مِنْ إِيَّاهُ قَدْ خَذَلَا
حَوْتَهُ طَاعَتُهُ إِلَّا الَّذِي انْخَزَلَا
وَمَنْ لَهُ فِي سَبِيلِ الْمُكْفِرَاتِ تَلَا
إِذْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ مُؤْمِنٌ دَخَلَا
رَى طَاعَةً فَرَضَتْ إِنْ شَرَطُهَا حَصَلَا
بِهِ الْوَلَايَةُ أَنْ تُلْفِيهِ مُمْتَثِلَا

٣٤. إِيْمَانُنَا الْقَوْلُ وَالتَّصْدِيقُ مَعَ عَمَلٍ
٣٥. بِمَا عَلَيْكَ مِنَ الْإِيْمَانِ مُفْتَرَضٌ
٣٦. قَوَاعِدُ الدِّينِ عِلْمٌ بَعْدَهُ عَمَلٌ
٣٧. أَرْضٌ وَقَوْضٌ وَسَلَمٌ وَأَتَكِلُ فَبَذَا
٣٨. ثُمَّ الظُّهُورُ وَدَفْعُ وَالشَّرَاءُ مَعَ الْإِيمَانِ
٣٩. وَفَرَزُهُ فِي ثَلَاثٍ : مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَا
٤٠. وَحِرْزُهُ أَنْ تُؤَالِيَ مَنْ أَطَاعَ وَتَبَّ
٤١. وَوَالٍ فِي جُمْلَةٍ مَنْ قَدْ أَطَاعَ وَعَا
٤٢. وَكُلُّ مَنْ عَصَمَ الْمَوْلَى وَلَايَتَهُ
٤٣. وَكُنْ مُوَالٍ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ
٤٤. وَعَادَ فِي الدِّينِ جَبَّارًا وَعَامِلَهُ
٤٥. لَا كُلُّ مَنْ قَدْ حَوَى سُلْطَانُ عِزَّتِهِ
٤٦. ثُمَّ الْوَلَايَةُ تَوْحِيدًا تَكُونُ وَأَحَدٌ
٤٧. كَذَا الْبَرَاءَةُ ، وَالشَّرْطُ الَّذِي وَجَبَتْ

٤٨. وَرَبُّنَا لَمْ يَنْزِلْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِيًّا * يَا هَكَذَا وَعَدُوا لِلَّذِي نَصَلَا
٤٩. وَهَكَذَا أَبَدًا لَيْسَ الزَّمَانُ وَلَا الْكَلَامُ * أَفَعَالُ تَقْدَحُ فِيهِ ، خُذْهُ مُنْتَحَلًا
٥٠. لَكِنَّا قَدْ تَعَبَّدْنَا بِطَاعَتِهِ * فَكُلُّنَا عَامِلٌ بِمَا لَهُ جُعِلَا
٥١. مَعْنَى مُوَالٍ مُعَادٍ عَالِمٍ بِهِمْ * وَبِالَّذِي فَعَلُوهُ الْجِدُّ وَالْهَزَلَا

ذِكْرُ الْكُفْرِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ

٥٢. وَالشِّرْكَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَعْرِفَنَّهُ لِكَيْ * تَكُونَ فِي مَقْعَدٍ عَنْ غَيْبِهِ اغْتَرَلَا
٥٣. وَهُوَ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ اللَّهِ - جَلَّ - وَبَيْنِ * مِنَ الْخَلْقِ أَوْ جَحْدُهُ سُبْحَانَهُ وَعَلَا
٥٤. وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُفْرَانِ يَلْزُمُنَا * أَيْ عِلْمُهُ إِنْ عَلِمْنَا حُكْمَهُ الْقَصَلَا
٥٥. مَا لَمْ نَكُنْ رَاكِبِيهِ أَوْ نُصَوِّبُ مِنْ * بِأَتِيهِ عَمْدًا وَجَهْلًا ، هَكَذَا نُقِلَا
٥٦. جَهْلٌ ، حَمِيَّةٌ ، كِبَرٌ ، بَعْدَهُ حَسَدٌ * قَوَاعِدُ الْكُفْرِ ، فَاحْذَرُوا دَاءَهَا الْعُضَلَا
٥٧. وَرَغْبَةً رَهْبَةً أَرْمَكَاةً ، وَيَلِي * هِيَ شَهْوَةٌ غَضَبٌ فِي كُلِّ مَا حُظَلَا

ذِكْرُ الْمِلَلِ السَّاتِّ وَأَحْكَامِهَا

٥٨. وَهَذِهِ مِلَلُ الْأَدْيَانِ قَدْ نُصِبَتْ * لَا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ الْمِلَلَا
٥٩. فَالْمُسْلِمُونَ؛ وَهُمْ مُؤَفٍّ وَمُخْتَرَحٌ * وَالْمُخْرِمُونَ بِنَهْكَ مِنْهُمْ انْفَصَلَا
٦٠. أَوْ مُسْتَحِلٌّ ، وَأَحْكَامُ الْأَلَى انْتَهَكُوا * أَنْ يَرْجِعُوا كُلَّ مَا صَابُوا وَإِنْ جَزَلَا
٦١. وَقَدْ يَحُوزُ لِكُلِّ مَا يَحُوزُ لَنَا * إِلَّا الْوَلَايَةَ خُصَّتْ بِالَّذِي عَدَلَا
٦٢. ثُمَّ الْيَهُودُ النَّصَارَى وَالْمَجُوسُ مَعَا * وَالصَّابِثُونَ لَهُمْ حُكْمٌ وَقَدْ عَقَلَا

٦٣. يُسَالِمُونَ إِذَا انْقَادُوا عَلَى صِغَرٍ
 ٦٤. وَالْمُشْرِكُونَ ذُوو الْأَوْتَانِ لَيْسَ لَهُمْ
 ٦٥. وَالْحُكْمُ إِنْ حَارَبُوا فِي الْكُلِّ مُتَّحِدٌ
 ٦٦. حَاشَا قُرَيْشًا فَإِنَّ السَّيِّئَ مُمْتَنِعٌ
 ٦٧. وَالذَّبْحُ إِنْ سَالَمُوا أَهْلَ الْكِتَابِ مَعَ النَّبِيِّ
 بِجَزِيَّةٍ ، أَوْ أَبَوْا فَالْكُلُّ قَدْ قُتِلَا
 سَلَامَةٌ غَيْرَ إِنْ دَانُوا بِمَا نَزَلَا
 نَهَبٌ وَسَيِّئٌ وَقَتْلٌ فِيهِمْ فَعِلَا
 فِيهِمْ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ الْفُضْلَا
 سِكَاحٌ مِنْهُمْ أَجِزٌ إِلَّا الْإِمَاءُ فَلَا

خَاتِمَةٌ

٦٨. إِنْ الْإِمَامَةَ فَرَضَ حِينَمَا وَجَبَتْ
 ٦٩. وَبَاطِلٌ سِيرَةٌ فِيهَا الْإِمَامَةُ فِي انْتِ
 ٧٠. وَبَعْدَ مَا فَتَحَتْ أُمُّ الْقُرَى نُسخَا
 ٧١. إِنَّا نَدِينُ بِتَضَوُّبِ الْأَلَى مَنْعُوا
 ٧٢. وَالرَّاسِيَّ أَوَالِي بَعْدَ جُمْلَتِهِمْ
 ٧٣. عَنَيْتُ نَحْلَ إِبَاضٍ فَهُوَ حُجَّتُنَا
 ٧٤. وَمَنْ قَفَا إِثْرَهُمْ مِنْ كُلِّ مُجْتَهِدٍ
 شُرُوطُهَا ، لَا تُكُنْ عَنْ شَرْطِهَا غَفِلَا
 سَنِينَ لَوْ بَلَّغَا فِي الْمَجْدِ مَا كَمُلَا
 مَا كَانَ مِنْ هِجْرَةٍ مَقْرُوضُهَا اتَّصَلَا
 حُكُومَةَ الْحَكَمَيْنِ حِينَمَا جَهَلَا
 وَمَنْ بِهِ نَسَبُ الْإِسْلَامِ قَدْ وُصِّلَا
 أَمَا تَرَى فَخْرَهُ لِلْمُسْلِمِينَ حُلَا
 شَاكِي السَّلَاحِ لِقَمْعِ الْخَصْمِ حِينَ غَلَا



٧٥. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى
 ٧٦. ثُمَّ الصَّلَاةُ وَتُسْلِيمٌ يُقَارِنُهَا
 ٧٧. وَالْآلِ وَالصَّحْبِ مَا لَاحَتْ فَضَائِلُهُمْ
 إِتْمَامِ مَا رُمْتُ إِذْ مِنْ فَضْلِهِ كَمُلَا
 عَلَى الَّذِي خَتَمَ الْمَوْلَى بِهِ الرُّسُلَا
 وَمَنْ لَهُمْ فِي سَبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ تَلَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُهَيْدٌ

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، سبحانه تجلى في كل موجود وجوده ، وأشرق في كل مشهود شهوده ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، عرفته الأبواب بآياته الظاهرة ، ولهت النفوس بتجلياته الباهرة .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، جل عن الأنداد والأضداد ، وتقدس عن الصاحبة والأولاد ، وتعالى عن الأشباه والأمثال ، وهو الكبير المتعال ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى/ ١١] ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام/ ١٠٣] ، أنزل كتبه تنلى ، وأرسل رسله تترى ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، اختتم به رسالاته ، وقرن دعوته بأعظم آياته ، وشرفه بما اختصه به على جميع مخلوقاته ، أرسله رحمة للعالمين ، وسراجاً للمهتدين ، وإماماً للمؤمنين ، فوضحت برسالته السبل ، وتجلت بدعوته الحجة ، واستنارت بسنته المحجة ، فهدى الله به قلوباً غلفاً ، وبصر به غيونا غمياً ، وأسمع به أذاناً صمماً ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وعلى جميع أتباعه في منهاج الحق والحقيقة ، الذين استقاموا على سواء الطريقة ، إلى يوم الدين .

أما بعدُ : فإنَّ دَرءَ ضلالِ التَّصوُّرِ بَيَّانِ عَيْنِ الْحَقِيقَةِ وإِبْرَازِ مَعَالِمِهَا وَأَعْلَامِهَا وإِضْاحِ حُجَجِهَا وَبِرَاهِينِهَا أَصْلُ الْهُدَايَةِ ، وَضَمَانُ لَوْصُولِ السَّالِكِينَ وَبَلُوغِ الرَّاغِبِينَ ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا قَامَتِ دَعَوَاتُ الْمُرْسَلِينَ عَلَى تَبْيَاحِ أَهَمِّ حَقِيقَةٍ قَدْ تَلْتَبَسُ عَلَى الْأَفْهَامِ بِضَلَالِ التَّصَوُّرِ ، وَهِيَ مَنْشَأُ الْوُجُودِ وَغَايَتُهُ ، لِيَعْرِفَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَيْنَ جَاءَ وَإِلَى أَيْنَ يَنْتَهِي ، وَلِيَعْرِفَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي رَحْلَتِهِ بَيْنَ مُبْتَدَأِهِ وَغَايَتِهِ ، وَبِذَلِكَ عَرَفَ الْإِنْسَانُ أَعْظَمَ حَقٍّ يَجِبُ عَلَيْهِ وَهُوَ حَقُّ مُبَدِّئِهِ وَمُعِيدِهِ ، وَحَقُّهُ أَنْ يُفَرَّدَ بِالْعِبَادَةِ وَلَا يُشْرَكَ مَعَهُ غَيْرُهُ ، مَعَ تَنْزِيهِهِ عَنِ جَمِيعِ النِّقَاصِ ، لِأَنَّهُ لَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ ، وَبِهَذِهِ الدَّعْوَةُ حَصَلَتِ الصَّلَةُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ وَخَالِقِهِ الْقَوِي الْقَاهِرِ ، كَمَا حَصَلَ الرِّبْطُ بَيْنَ الْمَسِيرِ وَالْمَصِيرِ ، وَالْعَمَلِ وَالْجَزَاءِ ، وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، وَالْفَنَاءِ وَالْخُلُودِ ، وَذَلِكَ هُوَ مَنْشَأُ الْإِسْتِقَامَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَالْوَقَايَةِ مِنْ ضَدِّهِ .

وَلَيْنَ كَانَتْ فَنُونُ الْعِلْمِ تَسْتَمِدُّ شَرْقَهَا مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا ، فَإِنَّ أَشْرَفَ الْعُلُومِ قَدْرًا وَأَعْظَمَهَا شَأْنًا وَأَثْقَلَهَا وَزَنًّا هُوَ هَذَا الْعِلْمُ الَّذِي يَذَرُّ شَبَهَاتِ الْبَاطِلِ عَنْ أَقْدَسِ حَقِيقَةٍ ، وَيُجَلِّي بَرَاهِينَ الْحَقِّ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا ، وَنَاهِيكَ بِعِلْمِ مَوْضُوعِهِ إِثْبَاتُ وَجُودِ وَاجِبِ الْوُجُودِ لِدَلَاتِهِ ، وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَمَلَانِكْتُهُ وَكُتُبُهُ وَرُسُلُهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ وَقَضَاؤُهُ وَقَدْرُهُ ، لِذَلِكَ تَبَارَتْ هِمَمُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ ، فَكَانَ مِنْهُمْ الْمُصَلِّي وَمِنْهُمْ الْمُحَلِّي .

وَقَدْ كَانَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الْعَلَامَةِ الْمُحَقِّقِ الْإِمَامُ نُورُ الدِّينِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُمَيْدٍ السَّالِمِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ - ، فَإِنَّ مَوْلَانِيهِ فِي عِلْمِ الْإِعْتِقَادِ مَشْهُورٌ هَبَا وَمَنْظُومٌ يَنَابِيعُ لِلْفَوَائِدِ الْمُتَدَفِّقَةِ ، وَمَطَالِعُ لِشَمْسِ الْحَقَائِقِ السَّاطِعَةِ ، بِمَا فِيهَا مِنْ تَبْيَاحٍ لِلْحَقِّ وَإِبْرَازٍ لِأَدْلَتِهِ ، مَعَ دَرءِ شُبُهَةِ الْبَاطِلِ عَنْهُ ، وَإِنْ مِنْ بَيْنِ مَا جَادَتْ بِهِ قَرِيحَتُهُ فِي هَذَا الْمَحَالِ قَصِيدَتُهُ الْعَصْمَاءُ الَّتِي سَمَّاها « غَايَةُ الْمُرَادِ فِي نَظْمِ الْإِعْتِقَادِ » ،

فإنَّها مع اختصارها وسهولة حفظها جَمَّةُ الفوائد عَظِيمَةُ العوائد بِمَا انطوت عليه من خزان العلم ، وهي مُيسِّرَةٌ لطلبة العلم المبتدئين .

وقبل سنين مَضَتْ أَرَادَ مِنِّي بعضُ طلاب العلم أنْ أُمْلِيَ عليهم تعليقاتٍ لطيفةً على أبياتِها ، يَحْفَظُونَهَا بِأَلَةٍ التَّسْجِيلِ لِيَتِمَّ كُنُوزُهَا بِمَعْنَى تَكَرُّرِ سَمَاعِهَا مِنْ تَقْيِيدِ شَوَارِدِ الفوائد ، وما كُنْتُ أَحْسَبُ أنْ ذَلِكَ سَيَتَعَدَّى أولئك الفَتِيَّةَ الطَّالِبِينَ إلى غيرهم ، فَخَصَصْتُهُمْ بِمَا أُمْلِيَتْهُ مِنْ بعضِ العبارات ، التي لَا تَبْرَأُ مِنَ الكَثِيرِ مِنَ الِهْثَاتِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ مُرْتَحِلَةً سَرِيعَةً ، وَإِذَا بِذَلِكَ الشَّرِيطِ يُتَدَاوَلُ وَيَقُومُ بعضُ الطُّلَابِ بِتَفْرِيعِهِ فِي أَوْرَاقٍ ، ظَلَّتْ تَتَدَاوَلُهَا الْأَيْدِي ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ الطُّلَابِ ، لَا سِوَا طُلَابِ المراكزِ الصِّفِيَّةِ ، فَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ مَقْرَرَةً عَلَيْهِمْ أَوْ عَلَى أَكْثَرِهِمْ عَلَى عِلَاتِهَا الكَثِيرَةِ ، كَيْفَ وَهِيَ فِي الْأَصْلِ دُرُوسٌ ارْتِجَالِيَّةٌ ؛ وَالْارْتِجَالُ غُرُضَةٌ لِلخَطَا ؟ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنْ مَنْ قَامَ بِتَفْرِيعِهَا لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُضِيفَ إِلَيْهَا أخطاءَ أُخْرَى ، بِسَبَبِ التَّبَاسُ بَعْضِ الكَلِمَاتِ لِعَدَمِ وَضُوحِ الصَّوْتِ .

لِهَذَا رَأَيْتُ لِرَإْمَا أَنْ أَقُومَ بِتَصْحِيحِ هَذِهِ الْأَخْطَاءِ ، وَتَعْدِيلِ تِلْكَ العباراتِ الرَّكِيكَةِ ، لِيَتَلَاءَمَ هَذَا التَّعْلِيقُ مَعَ الْغَرَضِ الَّذِي يَنْشُدُهُ الطُّلَابُ الَّذِينَ رَوَّجُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَكَثِيرًا مَا اسْتَنْتَرْتُ الْهِمَّةَ الْحَامِلَةَ وَالْعَزِيمَةَ النَّائِمَةَ لِأَجْلِ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ الْخَمُولُ الَّذِي جُبِلْتُ عَلَيْهِ مَعَ كَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الْمُتَبَطِّطَةِ كَانَ السَّبَبُ فِي تَأْخِيرِ هَذَا الْإِنْجَازِ ، حَتَّى جَاءَتْ سَاعَةُ الْفَتْحِ الَّتِي أَرَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةِ وَتَيْسِيرِ هَذَا الْمَأْمُولِ ، فَهَذَا أَشْرَعُ بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ فِي تَحْرِيرِ تِلْكَ العباراتِ وَتَخْلِصِهَا مِنَ الشَّوَابِ الَّتِي كَثُرَتْ صَفَاءَ هَذَا التَّعْلِيقِ ، وَاللَّهُ أَسْأَلُهُ الْعَوْنَ وَالتَّوْفِيقَ وَالتَّسْدِيدَ ، وَأَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ مَعَ سَائِرِ أَعْمَالِي خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، إِنَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .





المُقَدِّمَةُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١. الْحَمْدُ لِلَّهِ مُنْشِئِ الْكَائِنَاتِ عَلَى مَا شَاءَهَا وَبِلا مِثْلِ هُنَاكَ خَلَا
٢. ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا وَمَنْ إِلَى قَابِ قَوْسَيْنِ دَنَا فَعَلَا
٣. وَالْآلِ وَالصَّحْبِ مَا كَانَ الْهُدَى عِلْمًا يَهْدِي بِهِ اللَّهُ لِلْخَيْرَاتِ مَنْ عَقَلَا
٤. وَبَعْدُ فَالَّذِينَ لَا عُذْرَ لِحَاثِلِهِ إِنْ كَانَ مِنْ بَعْدِ تَكْلِيفٍ بِهِ جَهَلَا





❁ المقدمة :

قال المصنف - رحمه الله تعالى - :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١. الْحَمْدُ لِلَّهِ مُنْشِئِ الْكَائِنَاتِ عَلَى مَا شَاءَهَا وَبِلاَ مِثْلِ هُنَاكَ خِلا

لَمْ أَعْرِضْ لِشَرْحِ التَّسْمِيَةِ لِغَدَمِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، وَلَأَنِّي بَسَطْتُ الْقَوْلَ فِيهَا حَسَبَ وَسْعِي فِي التَّفْسِيرِ ، فَكَتَفَيْتُ بِذَلِكَ عَنْ إِعَادَتِهِ أَوْ إِعَادَةِ شَيْءٍ مِنْهُ .
أَمَّا «الْحَمْدُ» فَهُوَ لُغَةً : الثَّنَاءُ بِاللِّسَانِ عَلَى الْجَمِيلِ الْإِخْتِيَارِيِّ ، سَوَاءٌ تَعَلَّقَ بِالْفَضَائِلِ أَوْ بِالْفَوَاضِلِ . هَذَا هُوَ التَّعْرِيفُ الْمَشْهُورُ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْفَضَائِلِ وَالْفَوَاضِلِ : أَنَّ الْفَضَائِلَ هِيَ جَمْعُ فَضِيلَةٍ ، وَهِيَ صِفَةٌ لِلْمَحْمُودِ تَكُونُ سَبَبًا لِلْحَمْدِ ، وَالْفَوَاضِلُ جَمْعُ فَاضِلَةٍ ، وَهِيَ فِعْلٌ يَنْتَقِلُ أَثَرُهُ إِلَى الْحَامِدِ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ ، وَالْفَضَائِلُ هِيَ مَنَاشِئُ لِلْفَوَاضِلِ ، فَالشَّجَاعَةُ مَنَشَأٌ لِلْإِقْدَامِ ، وَالكَرَمُ مَنَشَأٌ لِلْبَذْلِ ، وَهَكَذَا .

وَلَكِنِ التَّقْيِيدَ بِالْإِخْتِيَارِيِّ قَدْ يُفْهَمُ مِنْهُ مَتَّعُ الْحَمْدِ إِلَّا عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ صِفَةً ثَابِتَةً لِلْمَحْمُودِ ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ عَدَمُ جَوَازِ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صِفَاتِهِ ، لِأَنَّهَا لَا تُوصَفُ بِأَنَّهَا إِخْتِيَارِيَّةٌ ، لِأَنَّهَا يُوْهِمُ ذَلِكَ جَوَازَ أَضْدَادِهَا ، وَقَدْ تَخَلَّصَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ هَذَا الْإِلْزَامِ بِأَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ لَا تُوصَفُ أَنَّهَا إِخْتِيَارِيَّةٌ لِتَحْسَبِ هَذَا الْإِلْزَامُ ؛ إِلَّا أَنَّهَا لَا تُوصَفُ أَيْضًا بِأَنَّهَا اضْطِرَّارِيَّةٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنَزَّاهٌ عَنِ الْاضْطِرَّارِ إِلَى أَمْرٍ ، وَقَيْدُ الْإِخْتِيَارِيِّ إِلَمًا أُرِيدَ بِهِ إِخْرَاجُ الْاضْطِرَّارِيِّ دُونَ سِوَاهُ .

وَرَأَى بَعْضُهُمْ أَنَّ كَوْنَ تِلْكَ الصِّفَاتِ مَنَاشِئَ لِلْإِخْتِيَارِيَّاتِ كَافٍ فِي إِدْخَالِهَا ضِمْنَ مَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ أَفْعَالَهُ تَعَالَى كُلُّهَا مَحَامِدٌ ، وَهِيَ نَاشِئَةٌ عَنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ جَمِيعًا ، فَسَاغَ دُخُولُهَا فِيمَا يُحْمَدُ عَلَيْهِ .

وأما الشُّكْرُ لُغَةً فهو : فِعْلٌ يُنْبِئُ عن تعظيم الشاكر للمشكور بسبب النِّعْمَةِ ،
 سواءً كان قولاً يَنْطَلِقُ به أو عملاً يَأْتِيهِ أو اعتقاداً يَتَصَوَّرُهُ ، كما يُنْبِئُ به قولُ الشاعر :
 أَفَاذْتُكُمْ التَّغْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضُّمِيرُ الْمُحَجَّبَا
 و«الْحَمْدُ» اصطلاحاً هو نفسُ الشكر لُغَةً ، وإِنَّمَا يُبْدَلُ لفظُ الشاكر بالْحَامِدِ ،
 والشُّكْرُ اصطلاحاً هو : تَسْخِيرُ الشاكر كُلِّ ما أُنْعِمَ به المشكورُ فيما خُلِقَ لأجلِهِ من
 الطاعة ، وهو يعني أن يستخدِمَ العبدُ نِعَمَ الله تعالى جميعاً فيما خُلِقَتْ لَهُ من الطاعة ، وهو
 معنى تفسِيرِ بعضِ السَّلَفِ لِلشُّكْرِ بقوله : « أَلَا نَعُصِي اللهَ بِمَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْكَ » ، ويدلُّ
 عليه أَنَّهُ قُوبِلَ بالكفر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان/ ٣] ، وقوله حكايةً عن عبده سليمان : ﴿ لِيُتْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل/ ٤٠] .
 والحمدُ من العبدِ لِرَبِّهِ يَنْقَسِمُ إلى قسمين : مُطْلَقٌ ومُقَيَّدٌ .

فالمُطْلَقُ : هو ما لَمْ يَكُنْ في مقابلِ نِعْمَةٍ ، والمُقَيَّدُ : ما كان على نِعْمَةٍ من نِعَمِهِ ،
 وهو أَفْضَلُ من المُطْلَقِ لَأَنَّهُ وَاجِبٌ والأوَّلُ نَقْلٌ ، ولا تُخْفَى مَنْزِلَةُ الواجبِ فوقِ النافلةِ ،
 لأجلِ ذلك قَيَّدَ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - حَمْدَهُ لِرَبِّهِ ﷻ هنا بِكُفْرَى نِعَمِهِ تَعَالَى
 وهي إِنْشَاؤُهُ الكائناتِ على غيرِ سَبْقٍ مِثَالٍ ، فَإِنَّ جَمِيعَ نِعَمِهِ تَرْتَبَتْ على هذه النعمةِ
 العظيمةِ .

وفي الإتيانِ بذلك بَرَّاعَةٌ استهلالٍ ، وهي أن يَأْتِيَ الْمُتَكَلِّمُ في فَاتِحَةِ كلامِهِ ما
 يُؤْذِنُ بِمَقْصُودِهِ ، وقد ناسبَ وصفُهُ سبحانه بِإِنْشَاءِ الكائناتِ مقصودَ الْمُصَنِّفِ ، وهو
 إثباتُ وجودِهِ ﷻ وَوَحْدَانِيَّتِهِ واتصافِهِ بِجَمِيعِ المَحَامِدِ ، فَإِنَّ كُلَّ ذَرَّةٍ من ذَرَاتِ
 الكائناتِ شَاهِدٌ حَقٌّ على وُجُودِهِ تَعَالَى ، لإِعْلَانِهَا بِلسَانِ حَالِهَا أَنَّهَا مُفْتَقِرَةٌ إِلَى وَاجِبِ
 الوجودِ لِذَاتِهِ لإِخْرَاجِهَا من العَدَمِ إِلَى الوجودِ ، ولأنَّ الكائناتِ بِأَسْرَها تُشَكِّلُ في
 مَجْمُوعِها وَحْدَةً متكاملةً ، وهي بذلك تدلُّ على وَحْدَانِيَّةِ مُكوِّنِهَا ، كما أَنَّ عَجِيبَ
 تَناسُقِها وبديعِ نظامِها مِنْ أَكْبَرِ الدَّلالاتِ على صِفَاتِهِ سبحانه من الحياةِ والقدرةِ والعلمِ
 والسمعِ والبصرِ والغنى .

على أن هذا الإنشاء ليس مسبوقاً بمثل من إنشاء كان من قبل غيره تعالى حتى يكون ثم اشتباه بأنه سبحانه أنشأها على مثال ذلك الإنشاء الذي سبقه به غيره ، وذلك معنى قول المصنف « وبلا مثل هناك خلا » .

وما كان إنشاؤها إلا وفق المشيئة الربانية كما قال : « عَلَى مَا شَاءَهَا » . على أن غرائب طبائعها المختلفة مع انتظامها في سلك ونامها من آيين الأدلة وأصدع البراهين على أنها جميعاً ما خرجت في وجودها ولا في نظامها عن إرادته ﷻ .

٢. ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا وَمَنْ إِلَى قَابِ قَوْسَيْنِ دَنَا فَعَلَا

«الصَّلَاةُ» هي من الله رَحْمَتُهُ بعباده ، ومن ذلك قوله : ﴿ يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ [الأحزاب/ ٤٣] ، أي يُنْزِلُ عليكم رحماته ، وهي من الملائكة استغفاراً ، ومن البشر دعاءً ، فنحن عندما نصلي على نبينا ﷺ إنما ندعو الله له بأن يعمره برحماته العظيمة ، وفيها معنى التعظيم ، ولذلك صارت شعاراً للنبيين ، ويجوز أن تكون لغيرهم من الصالحين ، كما في حديث : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » .

و «المُخْتَارُ» هنا اسم مفعول من اختارَ يَخْتَارُ ، وهو الذي اختيرَ لما أُريدَ اختصاصه به ، والمراد به هنا رسولُ الله ﷺ ، فإن الله اختاره لحملِ أعباءِ هذه الرسالة ولتَبَوُّءِ مَنْصِبِ الْفَضْلِ على جميع المخلوقات ، حتى كان رحمةً للعالمين .

و«السَّيِّدُ» من السِّيَادَةِ ، وهي التَّفُوقُ على الغير بالسُّمُو في مدارج الفضائل ، ولا ريب أنه ﷺ سيدنا جميعاً معاشراً المخلوقين .

وقوله « وَمَنْ إِلَى قَابِ قَوْسَيْنِ دَنَا فَعَلَا » عطفٌ لِنَعْتِ على آخر ، وهو معهود في الكلام العربي ، وله شواهد كثيرة في القرآن ، منها قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ [الأعلى/ ١-٤] .

و«القَابُ» القَدْرُ ، و«القَوْسُ» معروفٌ وهو آلة رمي السَّهَامِ ، والمُرَادُ : أن الله تعالى أَدْنَاهُ بِنَحْوِ قَدْرِ قَوْسَيْنِ ، وذلك كناية عن تكريمه ، كما يُؤْذَنُ بِهِ قَوْلُهُ «فَعَلَا» ، وفي ذلك إشارة إلى قَوْلِهِ تعالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم / ٩] .

٣. وَالْآلِ وَالصَّحْبِ مَا كَانَ الْهُدَى عِلْمًا يَهْدِي بِهِ اللَّهُ لِلْخَيْرَاتِ مَنْ عَقَلَا

التعريفُ في «الْآلِ» لِلْعَهْدِ ، والمراد بِهِمْ آلُ نَبِيِّنا ﷺ ، وهم في مقام الدُّعَاءِ جميعُ أَتْبَاعِهِ ﷺ ، سواءَ كانوا من قَرَابَتِهِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، كما قالَ صاحبُ شَمْسِ الْعُلُومِ :
 آلُ النَّبِيِّ هُمُ أَتْبَاعُ مِلَّتِهِ مِنْ الْأَعَاجِمِ وَالسُّودَانِ وَالْعَرَبِ
 لَوْ لَمْ يَكُنْ آلُهُ إِلَّا قَرَابَتُهُ صَلَّى الْمُصَلَّى عَلَى الْغَاوِي أَبِي لَهَبٍ
 وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ دُخُولَ أَتْبَاعِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ فِي هَذَا دُخُولٌ أَوَّلِيٌّ .

و«الصَّحْبِ» اسمُ جَمْعٍ وَاحِدُهُ صَاحِبٌ ، وَهُمْ هُنَا الَّذِينَ تَشَرَّفُوا بِلِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِرِسَالَتِهِ .

وقوله «مَا كَانَ الْهُدَى عِلْمًا» مُرَادُهُ بِهِ أَنَّ الصَّلَاةَ تَتَكَرَّرُ عَلَى نَبِيِّنا ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مُدَّةَ انْتِصَابِ الْهُدَى عِلْمًا ؛ أَيُ : عَلَامَةً يَهْتَدَى بِهَا ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ بِهِ الْجَبَلُ الشَّامِخُ وَالرَّائِيَةُ ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا عَلَامَةٌ بَارِزَةٌ يَهْتَدَى بِهَا السَّائِرُونَ وَيُلْتَفَتْ حَوْلَهَا الْمُرِيدُونَ ، وَالْمُرَادُ بِـ «الْهُدَى» هُنَا الدِّينُ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْقُرْآنِ كَثِيرًا لِأَنَّهُ مَصْدَرُ عُلُومِهِ .

وقوله «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ لِلْخَيْرَاتِ مَنْ عَقَلَا» تَفْسِيرٌ لِكَوْنِ الْهُدَى عِلْمًا ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تعالى يَهْدِي بِهِ أَوْلِييَ الْأَلْبَابِ مِنْ عِبَادِهِ لِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
 وفي هذا أيضًا بَرَاغَةُ اسْتِهْلَالٍ ، لِأَنَّ الْمُصَنِّفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أُنْشَأَ قَصِيدَتَهُ هَذِهِ لِيَكُونَ مَوْضُوعُهَا أَصُولُ الدِّينِ ، وَهِيَ عِلْمُ الْإِعْتِقَادِ .

٤. وَبَعْدُ فَالَّذِينَ لَا عُذْرَ لِحَاجِهِ إِنْ كَانَ مِنْ بَعْدِ تَكْلِيفٍ بِهِ جَهْلًا

أَيُّ : بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَمْدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ جَاءَ الْمُصَنِّفُ بِهَذَا الْبَيَانِ .

وَأَصْلُ «وَبَعْدُ» أَمَّا بَعْدُ ، فَالْوَاوُ هُنَا نَائِبَةٌ مَتَابَ أَمَّا ، وَ«أَمَّا» هِيَ هُنَا بِمَعْنَى مَهْمَا ، أَيُّ : مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فَهُوَ أَنَّ الدِّينَ لَا عُذْرَ لِحَاجِهِ .
و«الدِّينُ» مِنْ ذَانِ يَدَيْنِ بِمَعْنَى خَضَعَ وَانْقَادَ ، وَيُطْلَقُ عُرْفًا عَلَى : كُلِّ مَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِ الْإِنْسَانِ فِي حَقِّ مَعْبُودِهِ تَقَرُّبًا بِهِ إِلَيْهِ مِنْ اعْتِقَادٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ .

وهو في العُرفِ الشرعيّ : مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِمَّا يُقَرَّبُهُمْ إِلَيْهِ مِمَّا أُنْزِلَهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ جَاءَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مِنْ اعْتِقَادٍ أَوْ عِبَادَةٍ أَوْ شَرْعَةٍ . وهو بهذا المعنى ليسَ لَهُ مُصَدِّرٌ إِلَّا وَحْيُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَلَا يَخْضَعُ لِلتَّخَرُّبِ وَلَا لِغَيْرِهَا ، وَلِذَلِكَ كَانَ الدِّينُ عِنْدَ اللَّهِ وَاحِدًا ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ كُتُبُهُ وَبَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران/١٩] وَقَالَ : ﴿وَمَنْ يَشْتَعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران/٨٥] رِسْمًا كَامِلًا بِمَوَاقِفِهِ
وَقَدْ أَفَادَ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هُنَا أَنَّ الدِّينَ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهْلِهِ إِنْ جَهِلَهُ بَعْدَ تَكْلِيفِهِ بِهِ .

و «التَّكْلِيفُ» لُغَةً : إِلْزَامُ مَا فِيهِ مَشَقَّةٌ . وَاصْطِلَاحًا : تَوْجِيهُ الْأُمُورِ وَالتَّوَاهِي إِلَى الْمُخْلُوقِ مِنْ قِبَلِ خَالِقِهِ تَعَالَى ، فَيَتَرَتَّبُ عَلَى امْتِنَالِهِ نَيْلُ الثَّوَابِ وَعَلَى تَرْكِهِ اسْتِحْقَاقُ الْعِقَابِ . وَهُوَ مَشْرُوطٌ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ هِيَ :

(أ) الْعَقْلُ

(ب) الْبُلُوغُ

(ج) قِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُكَلَّفِ

والْحُجَّةُ هِيَ الدَّلِيلُ ، وَهُوَ مَا ثَبَتَ بِهِ الْمَعْنَى فِي الذَّهْنِ سَوَاءً كَانَ عَقْلِيًّا أَوْ شَرْعِيًّا ، فَالْعَقْلُ حُجَّةٌ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاتِّصَافِهِ بِالْكَمَالَاتِ وَاسْتِحَالَةِ الثَّقَائِصِ عَلَيْهِ ، وَالشَّرْعُ حُجَّةٌ فِي ذَلِكَ وَفِيمَا عَدَاهُ . وَقِيَامُ الْحُجَّةِ هُوَ ظُهُورُهَا ، لِأَنَّ لِلْقَائِمِ مِيزَةً عَلَى غَيْرِهِ فِي الظُّهُورِ .

وَيُضَمُّ إِلَى الشَّرُوطِ الْمَذْكُورَةِ : غَدَمُ الْمَنَاعِ ، أَيُّ : إِمْتِكَانُ الْإِتْيَانِ بِمَا كُتِّفَ بِهِ ، فَإِنَّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُمْ بِمَا لَا يُطِيقُونَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة/ ٢٨٦] وَقَالَ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق/ ٧] . وَعَلَيْهِ فَيُسْقُطُ التَّكْلِيفُ بِمَا لَمْ يَقْدِرِ الْمُكَلَّفُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهِ ، وَذَلِكَ لَا يَعْنِي أَنَّ عَجْزَهُ عَنْ بَعْضِ مَا كُتِّفَ بِهِ يُسْقِطُ عَنْهُ سَائِرَ التَّكَالِيفِ ، وَإِنَّمَا يُسْقِطُ عَنْهُ مَا عَجَزَ عَنْهُ ، وَيَتَعَلَّقُ بِذِمَّتِهِ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ ، لِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » .





ذِكْرُ الْجُمَلِ الثَّلَاثِ

وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ



● نفي الأنداد والأشباه عن الله تعالى

● نفي الرؤية

● الاستواء

● الإيمان بالموت والبعث والحساب

● الصراط والحساب

● الشفاعة

● الإيمان بالملائكة

● الإيمان بالقرآن والقول في خلقه

● الجملة وتفسيرها

● أسماء الله وصفاته الذاتية

● نفي التكيف

● الإيمان بمحمد ﷺ

● الميزان

● الجنة والنار

● الورود

● الإيمان بالأنبياء والكذب

● الإيمان بالقضاء والقدر





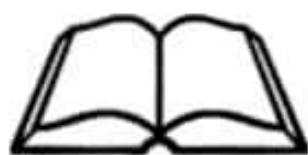


٩ - ٥ ٩

الجملة

٩ - ٥ - ٩

وتفسيرها



٥. وَأَوَّلُ الْفَرَضِ مِنْ تَأْصِيلِهِ جُمْلٌ ثَلَاثَةٌ ، فُزَتْ إِنْ تَسْتَحْضِرِ الْجُمْلَةَ
٦. وَإِنْ أَتَيْتَ بِهَا نُطْقًا حَفِظْتَ بِهَا لِلنَّفْسِ وَالْمَالِ ، وَالسَّيِّئُ بِهَا حُظْلًا



❁ الجملة وتفسيرها :

٥. وأَوَّلُ الْفَرَضِ مِنْ تَأْصِيلِهِ جُمْلٌ ثَلَاثَةٌ ، فُرِزَتْ إِنْ تَسْتَخْضِرُ الْجُمْلَةَ

يَعْنِي أَنْ أَوَّلَ مَا افْتَرَضَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ ثَلَاثُ جُمَلٍ ، وَقَدْ يُعْبَرُ عَنْهَا جَمِيعًا بِـ «الْجُمْلَةِ» ، وَهِيَ غَيْرُ الْجُمْلَةِ الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهَا عِنْدَ التَّحْوِيلِ عَلَى هَذَا التَّعْبِيرِ ، وَإِنَّمَا هُوَ اصطلاحٌ خَاصٌّ نَظَرًا إِلَى اشْتِمَالِهَا فِي إِحْمَالِهَا عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَتَضَحُّ بِتَفْسِيرِهَا ، وَهِيَ تُرْجِعُ كُلُّهَا إِلَى مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ عِنْدَ قِيَامِ حُجَّتِهِ .

وَتَقْسِمُهَا إِلَى ثَلَاثٍ لِاشْتِمَالِهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ ؛ وَحَقْلٍ كُلُّ رُكْنٍ مِنْهَا جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مَعَ مُرَاعَاةِ الاصْطِلَاحِ التَّحْوِيلِيِّ فِي الْجُمْلَةِ . وَالْأَرْكَانُ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ، وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنْ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، فَالْأَوَّلُ تَنْضَمُّهُ جُمْلَةٌ «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، وَالثَّانِي جُمْلَةٌ «وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» ، وَالثَّالِثُ جُمْلَةٌ «وَأَشْهَدُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» .

فَاعْتَبَارُهَا ثَلَاثُ جُمَلٍ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ اسْتِقْلَالِ مَفْهُومِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَضْعًا ، وَاعْتَبَارُهَا جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ لِأَنَّهَا جَمِيعًا تُؤَدِّي إِلَى غَايَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَهِيَ الْخُرُوجُ مِنْ عَهْدَةِ الْكُفْرِ وَالِدُّخُولُ فِي عَهْدَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِمَنْ أَتَى بِهَا جَمِيعًا . وَهَذَا الاصْطِلَاحُ إِنَّمَا هُوَ خَاصٌّ بِأَصْحَابِنَا - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - وَخَدَهُمُ ، إِذْ لَا يَكَادُ يُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ .

وَالْأَصْلُ فِي تَكَالُيفِ الْاعْتِقَادِ أَنْ يُطَالَبَ الْإِنْسَانُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ، فَإِنْ جَاءَ بِهَا كَانَ صَحِيحَ الْاعْتِقَادِ إِنْ لَمْ يَنْقُضْهُ بِشَيْءٍ مِمَّا يُنَافِي مَفْهُومَهَا ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْمُعْتَقَدَاتِ الْحَقَّةِ تَنْدَرِجُ تَحْتَ مَذَلُّوَلَاتِهَا ضِمْنًا .

❖ فَالشَّهَادَةُ بِأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَعْنِي إِفْرَادَهُ سُبْحَانَهُ وَخَدَهُ بِالْأُلُوْهِيَّةِ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ ﷻ تَخْتَلِفُ صِفَاتُهُ عَنْ صِفَاتِ خَلْقِهِ ، فَهُوَ لَا يُشَبِّهُهُمْ وَهُمْ لَا يُشَبِّهُونَهُ ، لِأَنَّ صِفَاتِهِ تَلِيْقُ بِكَمَالَاتِ الْأُلُوْهِيَّةِ .

♦ والشهادة بأن مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ تَقْتَضِي التَّصَدِيقَ الْمُطْلَقَ بِأَنْ كُلُّ مَا بَلَغَهُ
 عَنْ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ حَقٌّ ، وَهُوَ مَذْلُولُ الْجُمْلَةِ الثَّالِثَةِ الَّتِي جَاءَتْ مُؤَكِّدَةً هَذَا الْمَعْنَى .
 ♦ وَيَنْدَرِجُ ضِمْنَ ذَلِكَ التَّصَدِيقِ بِحَمِيعِ الْحَقَائِقِ الْغَيْبِيَّةِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
 وَالسَّلَامُ ، سَوَاءً مَا كَانَ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ فِي الْوَحْيِ الظَّاهِرِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ،
 أَوْ كَانَ مِمَّا تَضَمَّنَهُ الْوَحْيُ الْبَاطِنُ فَصَاغَهُ فِي حَدِيثِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، وَيَدْخُلُ
 فِي ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِصِفَاتِ اللَّهِ ﷻ وَأَفْعَالِهِ ، وَالْإِيمَانُ بِحَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ وَبِكُلِّ مَا أُوحِيَ
 إِلَيْهِمْ مِنْ كُتُبٍ وَغَيْرِهَا ، وَبِالْمَلَائِكَةِ وَأَحْوَالِهِمْ ، وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَحَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، وَبِقَضَاءِ
 اللَّهِ وَقَدَرِهِ .

على أن كثيرا من علمائنا اكتفوا في هذا بالشهادتين ، لاندراج مفهوم الجملة
 الثالثة في الإيمان برسالة محمد - عليه الصلاة والسلام - ، لأن هذا الإيمان يعني التصديق
 بأن ما جاء به هو الحق المبين من عند الله ، ويؤيد ذلك حديث « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ
 حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا
 بِحَقِّهَا » . وفي حديث ابن عمر عندهما الشَّيْخَيْنِ : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
 إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ » .

وَمِنْ تَسْيِيرِ اللَّهِ تَعَالَى دِينَهُ لِعِبَادِهِ أَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُمْ اسْتِحْضَارَ الْمُعْتَقَدَاتِ الْحَقَّةِ
 بِأَسْرِهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً ، وَإِنَّمَا جَعَلَ تَكْلِيفَهُمْ بِهَا تَدْرُجًا ، فَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ أَوَّلًا هَذِهِ الْجُمْلَةَ ،
 وَكَانَتْ كَافِيَةً فِي عَدِّ مَنْ جَاءَ بِهَا مُؤْمِنًا صَحِيحَ الْإِسْمَانِ ، وَإِنَّمَا تَجِبُ الْمُعْتَقَدَاتُ الْحَقَّةُ
 تَفْصِيلًا عَلَى مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُهَا وَوَضَحَ لَهُ مَعْنَاهَا ، وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْتَصِرُ فِي
 دَعْوَةِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ بِغَرَضِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَلَيْهِمْ مُتَعَمِّلَةً فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ
 بِالشَّهَادَتَيْنِ .

هذا ؛ ولهذه الجملة عند أصحابنا تفسيران :

(أ) اعتقادي : وهو ما أشرنا إليه من الإيمان تفصيلاً بصفات الله وأفعاله والتبيين والملائكة والكتب واليوم الآخر وبقضائه وقدره ، ولا يجب شيء من ذلك إلا على من قامت عليه حجته - كما ذكرنا - .

(ب) عملي : وهو الوفاء بالتكاليف الشرعية التطبيقية فعلاً وتركاً في حين وجوبها . والدليل على كون ذلك تفسيراً للجملة : أن الإتيان بهذه الجملة إنما هو عهد وميثاق بين العبد وربّه بالالتزام التام بفعل أوامره وترك نواهيه ، فإن العبد إذا شهد أن لا إله إلا الله كانت شهادته ميثاقاً بينه وبين ربّه سبحانه لأن يلتزم طاعته ، لأن معنى ذلك أنه لا معبود بحق إلا الله ، والعبادة هي منتهى الطاعة وغاية الخضوع والانقياد ، فإن أصرّ بعد ذلك على معصيته وتحرّأ على انتهاك حرّماته كان ذلك نقضاً لهذا الميثاق .

والدليل على هذا التفسير : ما جاء في حديث ابن عمر من قوله - عليه أفضل الصلاة والسلام - : « فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام » ، وقوله في الرواية الأخرى : « إلا بحققها » ، حيث أشار إلى أن لهذه الإسلام الذي يسلمه العبد بهذه الجملة حقاً لا بُدّ له من الوفاء به .

٦. وَإِنْ أَتَيْتَ بِهَا نَطْقًا حَفِظْتَ بِهَا لِلنَّفْسِ وَالْمَالِ ، وَالسَّيِّئِ بِهَا حُظْلًا

النطق بهذه الجملة يصون النفس البشرية من الحكم عليها بأحكام المشركين ، ويترتب على ذلك صون من نطق بها عن سفك دمه أو غنم ماله أو سبي ذريته ، لأنها حجة فيما بين من نطق بها وبين المسلمين ، إذ الناس متعبدون فيما بينهم بما يتدو من بعضهم لبعض من ظواهر الأقوال والأفعال دون ما يخفى عنهم من طوایس التوایس والأحوال ، ولذلك صيغت دماء المنافقين الذين أتوا بهذه الجملة بالسنتهم مع ما علم الله من دجلالهم التي تُنافيها ، وإنما الله وحده يحاسبهم ويُجاريهم على هذه الدخائل .

وقد اختلف العلماء في الإيمان بهذه الجملة ؛ هل يكفي فيه التصديق في
السريّة ؟ أو أنّه لا بُدّ من إظهار ذلك لُطْفًا باللسان ؟

فالجُمهورُ على أنّه لا بُدّ منهما معًا ، وهو الذي عليه أكثرُ أصحابنا - رَحِمَهُمُ
اللهُ - ، وَذَهَبَ قَلَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا إِلَى أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي الْإِيمَانِ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّصَدِيقِ وَخَذَهُ ، وَلَا
يَجِبُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ إِلَّا فِي مَقَامِ دَفْعِ الرَّيْبِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ مُطَالِبِينَ بِأَنْ
يَنْطِقُوا بِهَا بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ ، لِأَنَّهُمْ نَاشِئُونَ عَلَى الشَّرْكِ ، وَلَا يُخَلِّصُهُمْ مِنْهُ - فِي حُكْمِ
الظَّاهِرِ - إِلَّا مَا يَهْدُ أَرْكَانَهُ وَيَحْتُ صُرُوحَهُ وَهُوَ التَّنَطُّقُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ، أَمَا مَنْ كَانَ نَاشِئًا
عَلَى الْإِسْلَامِ مُؤَدِّيًا لِفُرُوضِهِ قَائِمًا بِشَعَائِرِهِ فَهُوَ فِي عِدَادِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَوْ لَمْ يَنْطِقْ بِهَا .

وَحُجَّةُ هَؤُلَاءِ : إِسْتِنَادُ الْإِيمَانِ إِلَى الْقُلُوبِ فِي كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ ، كَمَا فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة / ٤١] وَقَوْلِهِ ﷻ : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل / ١٠] .

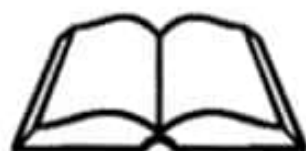
وَلَا عِلَافَ فِي أَنْ التَّصَرُّيخَ بِهَا لُطْفًا أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ .

و «حُظِلَ» فِي الْيَتِّ بِمَعْنَى : مَنَعَ .



نَفِي الْأَنْدَادِ وَالْأَشْبَاهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى

مركز بحوث ودراسات إسلامية



٧. نَدِينُ أَنْ إِلَهَ الْعَرْشِ لَيْسَ لَهُ شِبْهُ وَلَيْسَ لَهُ نَدٌّ وَلَا مَثَلًا
٨. وَأَنْهُ لَيْسَ جِسْمًا لَا وَلَا عَرَضًا لَكِنَّهُ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ كَمُلًا
٩. وَوَاحِدٌ فِي الصِّفَاتِ وَالْعِبَادَةِ وَالْأَفْعَالِ طَرًّا ، فَلَا تَبْغُوا بِهِ بَدَلًا *



❁ نَفْيُ الْأَنْدَادِ وَالْأَشْبَاهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى :

٧. لَدِينُ أَنْ إِلَهَ الْعَرْشِ لَيْسَ لَهُ شِبْهٌ وَلَيْسَ لَهُ نِدٌّ وَلَا مَثَلًا

هَذَا شُرُوعٌ مِنَ الْمُصَنَّفِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي تَبْيِينَ تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ
الْاِئْتِقَادِيَّةِ ، وَقَدْ بَدَأَ بِأَهَمِّ مَا فِيهِ ؛ وَهُوَ مَا لَهُ صِلَةٌ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ
هُوَ أَصْلُ الْإِيمَانِ بِكُلِّ مَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ .
وَمَعْنَى «لَدِينُ» : نَعْتَقِدُ ذَلِكَ حَرْمًا .

و«إِلَهَ الْعَرْشِ» هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، وَالْأَصْلُ فِي الْإِلَهِ أَنَّهُ بِمَعْنَى : مَالُوهُ ؛ أَيْ :
مَعْبُودٌ ، فَهُوَ فِعَالٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ ، كـ : كِتَابٌ بِمَعْنَى مَكْتُوبٌ ، وَإِنَّمَا خُصَّ
بِالْمَعْبُودِ بِحَقِّ فِي الْأَصْطِلَاحِ الشَّرْعِيِّ لِعَدَمِ الْاِئْتِقَادِ بِالْعِبَادَةِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تُكُونُ مِمَّنْ
أَتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ .

و «الْعَرْشُ» هُوَ أَعْظَمُ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ .
وَكَوْنُهُ ﷻ إِلَهًا لِلْعَرْشِ يُلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا لِمَا دُونَهُ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ،
فَلِذَلِكَ غَبَرَ بِذَلِكَ وَلَمْ يَقُلْ : إِلَهَ الْخَلْقِ مَثَلًا . وَالْعَرْشُ وَغَيْرُهُ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ سُبْحَانَهُ
يَشْرَفُ كُلُّ مِنْهَا بِعِبَادَتِهِ ﷻ ، فَإِنَّهَا جَمِيعًا تُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَتُخَضِّعُ لِحِلَالِ كِبَرِيَّاتِهِ ،
قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الْإِسْرَاءُ/ ٤٤] ، وَقَالَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ
مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الْحَجَّ/ ١٨] .

وَمَعْنَى الْبَيِّنَاتِ : أَلَّنَا نَعْتَقِدُ اِئْتِقَادًا جَازِمًا أَنَّ إِلَهَ الْعَرْشِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
لَيْسَ لَهُ شِبْهٌ وَلَا نِدٌّ وَلَا مَثَلٌ .
وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ :

❖ أَنَّ الشَّبْهَ - بِكَسْرِ فَسُكُونِ ، وَيُقَالُ : شِبْهٌ بِالتَّحْرِيكِ وَشَبِيهٌ كَعَظِيمٍ - : هُوَ
الْمُسَاوِي فِي أَغْلَبِ الصِّفَاتِ .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ : هُوَ الْمُسَاوِي الْمُضَادَّ .

﴿ وَأَنَّ الْمَثَلَ - بِالتَّحْرِيكِ ، يُقَالُ : مِثْلُ بَكْمَرٍ فَسُكُونٌ وَمِثْلُ - : هُوَ

الْمُسَاوِي فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ .

وَمُخْلَصَةٌ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يُشَبَّهُ شَيْئًا وَلَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ ، فَهُوَ مُبَايِنٌ لِمَخْلُوقَاتِهِ فِي كُلِّ أَوْصَافِهِ ، فَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ خَلْقِهِ قَطُّ ، لِأَنَّهُ خَالِقُ الْخَلْقِ ، وَيَسْتَحِيلُ عَقْلًا وَشَرْعًا أَنْ تُشَبَّهَ الصَّنِيعَةُ صَانِعِهَا .

وَكَيْفَ يَكُونُ مِثْلُهَا وَهُوَ الْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ وَجُودُهُ عَدَمٌ وَلَا يُعْقِبُهُ فَنَاءٌ ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ وَجُودُهُ عَلَى وَجُودٍ غَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا وَجُودُ كُلِّ مَا عَدَاهُ مَا كَانَ إِلَّا بِوُجُودِهِ ، فَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ مَا عَدَاهُ نَاقِصٌ ، وَلَهُ وَحْدَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ ، وَمَا بَعِيرُهُ مِنْ مَظَاهِيرِ الْكَمَالِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِهِ نِعْمَةٌ أَسْبَغَهَا عَلَيْهِ وَحِلَّةٌ زَيَّنَتْهُ بِهَا ، وَقَدْ عَرَفْنَا سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ عِنْدَمَا قَالَ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [النور/ ١١] ، وَقَالَ : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد/ ٣] .

هَذَا وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ مَا نُحَدِّدُهُ فِي بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ مِنَ الْإِتِّصَافِ بِبَعْضِ الصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ مَظَاهِيرُ لِكَمَالَاتِهِ ، كَالْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ ؛ لِتُبَاهِنِ الْعَظِيمَ بَيْنَ صِفَاتِ الْحَقِّ وَصِفَاتِ الْخَلْقِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ إِتِّصَافَ الْمَخْلُوقِ بِأَيِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا قَبْضًا رَبَّانِيًّا وَفَضْلًا لَدُنِّيًّا اخْتَصَّ بِهِ تَعَالَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ، بَيْنَمَا إِتِّصَافُ الْحَقِّ بِذَلِكَ ذَاتِيٌّ لَمْ يَأْتِ مِنْ قَبْلِ غَيْرِهِ ﷻ .

وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ إِتِّصَافَ الْمَخْلُوقِ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ نِسْبَةً مَحْدُودَةً تَكَادُ تَتَلَاشَى فِي حِضْمٍ مَا يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ أَضْدَادِ هَذِهِ الْكَمَالَاتِ ، فَهُوَ وَإِنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ مَا كَانَ بِهِ آيَةٌ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ لَيْسَ لَهُ مِنْ حَقَائِقِ هَذِهِ الصِّفَاتِ إِلَّا التَّزَرُّ الَّذِي لَا يَكَادُ يُذَكَّرُ إِذَا مَا قِيسَ بِمَا يَزْخَرُ بِهِ مِنْ أَضْدَادِهَا ، فَإِنَّ مَا يَعْلَمُهُ لَا يُسَاوِي شَيْئًا بِجَانِبِ مَا يَجْهَلُهُ ، وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا يُعَدُّ شَيْئًا بِجَانِبِ مَا يَعْجَزُ عَنْهُ ، وَمَا يَسْمَعُهُ مِنَ الْأَصْوَاتِ لَا

يَكَادُ يُذَكِّرُ بِجَانِبٍ مَا لَا يَسْمَعُهُ ، وَهَكَذَا مَا يُبْصِرُهُ مَا هُوَ إِلَّا نَقْطَةٌ فِي بَحْرِ مَا لَا يُبْصِرُهُ مِنَ الْكَائِنَاتِ .

على أنه لا يُدْرِكُ إِلَّا ظَوَاهِرَ الْأَشْيَاءِ دُونَ خَفَائِيَّاتِهَا ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ إِذْرَاكًا وَقُدْرَةً ، فَهُوَ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، وَلَا تُخْفِي عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَهَكَذَا فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ .

٨. وَأَنَّهُ لَيْسَ جِسْمًا لَا وَلَا عَرَضًا لَكِنَّهُ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ كَمَلًا
٩. وَوَاحِدٌ فِي الصِّفَاتِ وَالْعِبَادَةِ وَالْـ * أَفْعَالٍ طُرًّا ، فَلَا تَبْغُوا بِهِ بَدَلًا

أَيُّ : وَتَدِينُ كَذَلِكَ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ جِسْمًا وَلَا عَرَضًا ، لِأَنَّ الْأَجْسَامَ وَالْأَعْرَاضَ لَا تَكُونُ إِلَّا حَادِثَةً مَخْلُوقَةً ، وَكُلٌّ مِنْهَا مُفْتَقِرٌ إِلَى غَيْرِهِ ، فَالْجِسْمُ لَا يَخْلُو مِنَ الْأَعْرَاضِ ، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ أَوْ سُكُونٍ ، وَهُمَا عَرَضَانِ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ لَوْنٍ يَظْهَرُ بِهِ ، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ الْأَعْرَاضِ ، وَالْعَرَضُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ جِسْمٍ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ .

وَالْجِسْمُ هُوَ أَيْضًا بِحَاجَةٍ إِلَى مَكَانٍ يَحِلُّ بِهِ وَزَمَانٍ يَحْرِي عَلَيْهِ ، وَالزَّمَانُ وَالْمَكَانُ حَادِثَانِ ، وَمَا افْتَقَرَ إِلَى الْحَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ قَبِلَ بَعْدَمَ حُدُوثِ الْمَكَانِ لَزِمَ مِنْهُ تَعَدُّدُ الْقُدَمَاءِ ، وَهُوَ مُسَوِّغٌ لَتَعَدُّدِ الْأَلْهَةِ ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ مُفْتَقِرًا إِلَى مَكَانٍ لَكَانَ الْمَكَانُ أَوَّلَى مِنْهُ بِالْأُلُوْهِيَةِ لِكَوْنِهِ مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّهُ لَوْ كَانَ جِسْمًا لَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَحْدُودًا مِنْ جِهَاتِهِ السَّتِّ ، وَالْمَحْدُودُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى الْإِمْتِدَادِ أَوْ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَيْهِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا بَاطِلٌ ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ يَحْتَدُّ وَيَزِيدُ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ كَوْنُهُ مُتَغَيِّرًا غَيْرَ ثَابِتٍ ، وَالتَّغْيِيرُ مِنْ سِمَاتِ الْحَوَادِثِ ، ثُمَّ إِنَّ الْفَضَاءَ الَّذِي يَزِيدُ فِيهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَيْنَهُ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ ، وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ عَيْنَهُ ، لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَزِيدُ فِي عَيْنِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَهُ لَزِمَ افْتِقَارُهُ إِلَيْهِ .

وَيُظَلَنَ ذَلِكَ كُلُّهُ يَتَعَيَّنُ بَطْلَانُ كَوْنِهِ جَسَمًا ، وَإِذَا ظَهَرَ بَطْلَانُ كَوْنِهِ جَسَمًا فَبَطْلَانُ كَوْنِهِ عَرَضًا أَظْهَرُ ، لِأَنَّ الْعَرَضَ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْجَسَمِ ، إِذْ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ ، كَثُورِ الشَّمْسِ وَلَوْنِ الْوَرْدِ وَحَرَكَةِ الْمُتَحَرِّكِ وَسُكُونِ السَّاكِنِ .

وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ لَيْسَ جَسَمًا وَلَا عَرَضًا فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ ، يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ التَّعَدُّدُ وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ مِثَابَهَةُ شَيْءٍ مِنَ الذَّوَاتِ الْأُخْرَى ، كَمَا أَنَّهُ وَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا سِتْحَالَةَ أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ كَصِفَاتِ الْخَلْقِ ، وَوَاحِدٌ فِي أَعْمَالِهِ فَلَا تُشَبِّهُ أَعْمَالُهُ أَعْمَالَ الْخَلْقِ ، لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمُحَاوَلَةٍ وَمُزَاوَلَةٍ ، وَأَعْمَالُ اللَّهِ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، وَلَا يَسْتَعِينُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بِأَعْوَانٍ ، فَلَا يُشَارِكُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِ ، إِذْ لَا أَثَرَ لغيرِهِ تَعَالَى فِي إِتْحَادِ الْخَلْقِ وَلَا فِي إِفْنَائِهِمْ وَلَا فِي بَسْطِ رِزْقِهِ وَلَا فِي قَبْضِهِ ، وَلَا فِي رَفْعِهِ وَلَا فِي خَفْضِهِ ، وَلَا فِي إِثَابِهِ وَلَا فِي مُعَاقَبَتِهِ ، وَلَا فِي أَيِّ شَيْءٍ مِمَّا يُخْدِتُ فِي خَلْقِهِ .

لَأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ وَاحِدًا فِي عِبَادَتِهِ فَلَا يُشْرِكُ فِيهَا غَيْرُهُ ، وَذَلِكَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِنَّ مَعْنَاهَا : لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ سِوَاهُ ، فَكُلُّ مَا يُعْبَدُ دُونَهُ عِبَادَتُهُ بَاطِلَةٌ ، لِأَنَّهُ نَفْسَهُ مَخْلُوقٌ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ تَعَالَى .

لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يُنْغِي بِهِ تَعَالَى بَدَلًا يُعْبَدُهُ مِنْ دُونِهِ أَوْ مَعَهُ أَوْ يَسْتَعِينُ بِهِ فِي أُمُورِهِ وَيَدْعُوهُ فِي كَشْفِ كَرْبِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَكْشِفُ الْكُرُوبَ وَيَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ ، وَلِذَلِكَ وَحَبَّ أَنْ يُفْرَدَ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِعَانَةِ كَمَا يُفْرَدُ بِالْعِبَادَةِ ، وَهُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة/هـ] . أَيُّ لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا إِيَّاكَ .

وَذَلِكَ لَا يُنَافِي تَعَاوُنَ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِيمَا كَانَ التَّعَاوُنُ فِيهِ مِنْ سُنَنِ الْحَيَاةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا نِظَامُهَا ، فَإِنَّ هَذِهِ الِاسْتِعَانَةَ إِنَّمَا هِيَ بِاللَّهِ فِي حَقِيقَتِهَا وَإِنْ كَانَتْ بِمَخْلُوقِهِ فِي ظَاهِرِهَا ، إِذِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي أَقْدَرَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ عَلَى الرَّعَايَةِ وَمَكَّنَهُ مِنْهَا وَسَاقَهُ إِلَيْهَا .

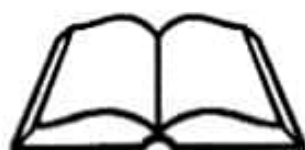
على أن هذه الاستعانة لا تتعدى حدود ما أقدر الله سبحانه عباده عليه إلى ما لم يُقدرهم على فعله ، كَهَبَةِ الأولاد ، وَمَنَحِ الحظوظِ والسَّعادةِ والجاهِ ، ورفعِ البَلَاوى من الأسقامِ والأوجاعِ ، ورفعِ المصائبِ ، فإنه مَهْمَا يَكُنْ للإنسانِ مِنْ فعلٍ في ذلك فهو لا يتجاوزُ حدودَ الطبيعةِ المُشترَكةِ بين الخلقِ ، وما سواه فَمَرَدُّهُ إِلَى خالقِ الخلقِ وبَاسِطِ الرزقِ الذي يُؤتي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، كما يُولِّجُ الليلَ في النهارِ وَيُولِّجُ النهارَ في الليلِ ، وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .





أَسْمَاءُ اللَّهِ

وَصِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةُ



١٠. أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُ الذَّاتِ لَيْسَ بِغَيْثٍ * — الذَّاتُ بَلْ عَيْنُهَا فَافْهَمْ وَلَا تُحِلَّا



❁ أَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ الذَّاتِيَّةُ :

١٠. أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُ الذَّاتِ لَيْسَ بِغَيْرِ * — الذَّاتِ بَلْ عَيْنُهَا فَافْهَمْ وَلَا تُحْلَلْ

يَعْنِي أَنَّ أَسْمَاءَهُ تَعَالَى هِيَ عَيْنُ ذَاتِهِ لَا غَيْرُهَا .

وَمُرَادُهُ بِذَلِكَ مَذْلُولُ الْأَسْمَاءِ لَا أَلْفَاظُهَا ، كَمَا يَبَيِّنُهُ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مَشَارِقِ الْأَنْوَارِ ، وَخَرَّرَهُ قُطْبُ الْأَيْمَةِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي هَمَيَانِ الزَّادِ ، فَإِنَّ الْأَلْفَاظَ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الذَّاتُ الْعَلِيَّةُ ، فَإِنَّهَا حُرُوفٌ مُرَكَّبَةٌ ، وَيَسْتَحِيلُ كَوْنُ الذَّاتِ تِلْكَ الْحُرُوفَ ، وَإِنَّمَا لِتِلْكَ الْحُرُوفِ مَذْلُولٌ تَذُلُّ عَلَيْهِ ، وَبِمَا أَتَتْهَا بِتَرَكَيبِهَا كَانَتْ مِنْهَا أَسْمَاءُ لِلَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تُرَكَّبُ تِلْكَ التَّرَاكِبِ الْخَاصَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى الْأَسْمَاءِ يَكُونُ مَذْلُولُهَا الْحَقِيقِيُّ هُوَ عَيْنُ ذَاتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، لِأَنَّهَا وَضِعَتْ إِزَاءَ الذَّاتِ لِتَذُلَّ عَلَيْهَا ، وَكَذَلِكَ صِفَاتُهُ الذَّاتِيَّةُ مَا هِيَ إِلَّا عَيْنُ ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ ، وَإِنْ كَانَتْ دَالَّةً عَلَى مَعَانٍ اعْتِبَارِيَّةٍ يُرَادُ بِهَا نَفْيُ اضْطِدَادِهَا عَنِ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ .

وَلَا بُدَّ أَوَّلًا مِنْ بَيَانِ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَالْفَرْقِ بَيْنَهَا وَبَيْنِ الصِّفَاتِ الْفَعْلِيَّةِ .

فَالصِّفَاتُ الذَّاتِيَّةُ : هِيَ صِفَاتٌ وَاجِبَةٌ لِدَاثِهِ تَعَالَى أَرْلًا وَأَبْدًا لِأَنَّهَا كَمَالَاتٌ ، وَلَوْ انْتَفَتْ لَكَانَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفًا بِاضْطِدَادِهَا ، وَهِيَ مُسْتَحِيلَةٌ ؛ لِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى نَقْصٍ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَتَّصِفَ بِهِ مُبْدِئُ الْوُجُودِ . مِنْ أَجْلِ هَذَا عَبَّرُوا عَنِ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ بِأَنَّهَا صِفَاتٌ وَاجِبَةٌ فِي حَقِّهِ ﷻ ، وَعَنِ اضْطِدَادِهَا بِأَنَّهَا صِفَاتٌ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهِ .

وَقَدْ فَرَّقُوا بَيْنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَالصِّفَاتِ الْفَعْلِيَّةِ بِـ :

❖ أَنَّ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ هِيَ مَا اتَّصَفَ بِهِ تَعَالَى فِي الْأَرْلِ وَفِيمَا لَا يَزَالُ ، كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَجَمِيعِ الْكَمَالَاتِ الذَّاتِيَّةِ ، فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا لَزِمَ

اتَّصَفَهُ بِأُضْدَادِهَا مِنَ الْمَوْتِ وَالْعَجْزِ وَالْجَهْلِ وَالصَّمِّ وَالْعَمَى وَغَيْرِهَا مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ ، وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ عَلَيْهِ تَعَالَى .

﴿ أَمَّا صِفَاتُ أَفْعَالِهِ فَقَدْ اتَّصَفَ بِهَا فِيمَا لَا يَزَالُ لَا فِي الْأَزَلِ ، كَخَلْقِ الْخَلْقِ وَإِحْيَائِهِمْ وَإِمَاتَتِهِمْ وَبَعْثِهِمْ وَحِسَابِهِمْ ، وَجَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ مِنْهُمْ بِالْحُسْنَى وَالْمُسِيءِ مِنْهُمْ بِمَا عَمِلَ ، وَبَعْثِ الرُّسُلِ وَإِنزَالِ الْكُتُبِ ، وَتَضَرُّفِ الْأَمْرِ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ مِنَ الْبَسْطِ وَالْقَبْضِ وَالرَّفْعِ وَالْخَفْضِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَالْإِيْحَادِ وَالْإِقْنَاءِ ، فَإِنْ جَمِيعُ تِلْكَ الصِّفَاتِ إِنَّمَا يُوصَفُ بِهَا تَعَالَى فِيمَا لَا يَزَالُ لَا فِي الْأَزَلِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَزَلِ خَلْقٌ وَلَا إِحْيَاءٌ وَلَا إِمَاتَةٌ وَلَا عَطَاءٌ وَلَا مَنْعٌ وَلَا رَفْعٌ وَلَا خَفْضٌ وَلَا بَسْطٌ وَلَا قَبْضٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ثُمَّ وَجُودٌ إِلَّا وَجُودُ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

وَمِنْهُمْ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ صِفَاتِ الذَّاتِ وَصِفَاتِ الْأَفْعَالِ بِـ :

﴿ أَنْ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ تُجَامِعُ أُضْدَادَهَا فِي الْوُجُودِ عِنْدَ اخْتِلَافِ الْمَحَلِّ ، كَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْإِظْهَارِ وَالْإِحْفَاءِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَالْإِعْزَازِ وَالْإِذْلَالَ وَالتَّضَرُّفِ وَالْخِذْلَانِ ، فَيُقَالُ : أَحْيَى اللَّهُ فُلَانًا وَأَمَاتَ فُلَانًا ، وَأَعْطَى فُلَانًا وَمَنْعَ فُلَانًا ، وَرَفَعَ فُلَانًا وَخَفَضَ فُلَانًا ، وَأَعَزَّ فُلَانًا وَأَذَلَّ فُلَانًا ، وَتَضَرَّفَ فُلَانًا وَخِذَلَ فُلَانًا ، وَبَسَطَ كَذَا وَمَنْعَ كَذَا ، وَأَوْحَدَ كَذَا وَأَفْنَى كَذَا ، مَعَ أَنْ كُلًّا مِنْهَا مُقَابِلٌ بَصِيدُهُ .

﴿ وَأَمَّا صِفَاتُ الذَّاتِ فَلَا تُجَامِعُ أُضْدَادَهَا فِي الْوُجُودِ وَلَوْ مَعَ اخْتِلَافِ الْمَحَلِّ ، فَلَا يَحْجُوزُ أَنْ يُقَالَ : عَلَّمَ اللَّهُ كَذَا وَجَهَلَ كَذَا ، أَوْ قَدَّرَ عَلَى كَذَا وَعَجَزَ عَنْ كَذَا ، أَوْ أَبْصَرَ كَذَا وَعَمِيَ عَنْ كَذَا ، أَوْ سَمِعَ كَذَا وَصَمَّ عَنْ كَذَا .

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ هِيَ الصِّفَاتُ الْجَائِزَةُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهَا لَا تُؤَدِّي إِلَى نَقْصٍ بِسَبَبِ اتِّصَافِهِ بِهَا وَلَا بِأُضْدَادِهَا ، كَمَا أَنَّ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةَ هِيَ الصِّفَاتُ الْوَاجِبَةُ فِي حَقِّهِ ، وَأَنَّ أُضْدَادَهَا هِيَ الصِّفَاتُ الْمُسْتَحِيلَةُ عَلَيْهِ .

وَكُونُ صِفَاتِ الذَّاتِ هِيَ عَيْنُ الذَّاتِ هُوَ مَا عَلَيْهِ أَصْحَابُنَا وَالْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ نَحَا
لُحُوهُمْ ، وَذَلِكَ إِمْعَانٌ فِي تَوْحِيدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ غَيْرِهِ وَالِافْتِقَارِ إِلَى
مَا سِوَاهُ ، فَهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِجَمِيعِ تِلْكَ الْكَمَالَاتِ ، وَلَكِنْ
مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى مَا سِوَاهُ .

♦ فَهُوَ تَعَالَى حَيٌّ حَيَاةً حَقِيقَةً ، وَلَكِنْ بِذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى صِفَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى
ذَاتِهِ قَائِمَةٍ بِهَا تُسَمَّى حَيَاةً .

♦ وَهُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا حَقِيقًا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْتَقِرَ إِلَى صِفَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى ذَاتِهِ
تَتَحَلَّى بِهَا الْمَعْلُومَاتُ لِذَاتِهِ تُسَمَّى عِلْمًا ، وَإِنَّمَا عِلْمُهُ بِذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ وَجُودٍ وَاسِطَةٍ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ مَعْلُومَاتِهِ .

♦ وَهُوَ قَدِيرٌ بِذَاتِهِ قُدْرَةً حَقِيقَةً ، بِحَيْثُ تُسْمَعُ لِذَاتِهِ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ انْفِعَالًا تَامًا
حَسَبَ الْإِرَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، مِنْ غَيْرِ احتِجَاجٍ إِلَى وَاسِطَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى الذَّاتِ تَكُونُ سَبَبًا فِي هَذَا
الْانْفِعَالِ وَتُسَمَّى قُدْرَةً .

♦ وَتُنَكَشِفُ لِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ الْكُشَافًا تَامًا بِأَخْصَامِهَا وَصُورِهَا وَالْوَانِهَا
وَجَمِيعِ أَحْوَالِهَا ، مِنْ غَيْرِ احتِجَاجٍ إِلَى وَاسِطَةٍ بَيْنَ الذَّاتِ وَبَيْنَهَا تُسَمَّى بَصَرًا .

♦ وَتَتَحَلَّى لَهُ جَمِيعُ الْأَصْوَاتِ تَحَلِّيًّا تَامًا كَمَا هِيَ ، مِنْ غَيْرِ احتِجَاجٍ إِلَى وَاسِطَةٍ
بَيْنَ ذَاتِهِ وَبَيْنَهَا تُسَمَّى سَمْعًا ، فَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِهِ وَقَدِيرٌ بِذَاتِهِ وَسَمِيعٌ بِذَاتِهِ وَبَصِيرٌ بِذَاتِهِ ،
وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ .

وَحُجَّتُهُمْ فِي هَذَا أَنَّهُ لَوْ قِيلَ بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَانٍ حَقِيقَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ
الْعَلِيَّةِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ افْتِقَارُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهَا ، ثُمَّ لَا تَخْلُو :

- إِمَّا أَنْ تَكُونَ سَابِقَةً فِي الْوُجُودِ عَلَى ذَاتِهِ ، فَتَكُونُ أَوَّلَى بِالْأُلُوهِيَّةِ مِنْهُ ، لِأَنَّ السَّابِقَ
أَوَّلَى مِنَ الْمَسْبُوقِ .

- وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ مُقَارِنَةً لَهَا ، فَتَكُونَ مُشَارِكَةً لَهُ فِي الْقِدَمِ ، وَتَجِبُ عَلَى هَذَا مُشَارَكَتُهَا لَهُ فِي الْأُلُوْهِيَّةِ أَيْضًا ، لِأَنَّ كُلًّا مِنَ الصِّغَةِ وَالْمَوْصُوفِ قَدِيمٌ .

- وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ حَادِثَةً ، وَهُوَ عَيْنُ الْمُسْتَجِيلِ ، لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ يَفْتَقِرُ إِلَى مُحَدِّثٍ أَحَدَثُهُ ، فَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ وَالْحَيَاةَ وَالسَّمْعَ وَالْبَصَرَ فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ غَيْرَ مُتَّصِفٍ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ هَذَا الْخَلْقِ ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا وَلَا قَادِرًا وَلَا حَيًّا وَلَا سَمِيعًا وَلَا بَصِيرًا أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا قَطُّ ، فَضْلًا عَنْ خَلْقِهِ لِهَذِهِ الصِّغَاتِ ، فَإِنْ مُطْلَقَ الْخَلْقِ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا ، وَأَنَّى لِمَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا أَنْ يَخْلُقَ الْعِلْمَ ؟ وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا أَنْ يَخْلُقَ الْقُدْرَةَ ؟ وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا أَنْ يَخْلُقَ الْحَيَاةَ ؟ وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ سَمِيعًا أَنْ يَخْلُقَ السَّمْعَ ؟ وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ بَصِيرًا أَنْ يَخْلُقَ الْبَصَرَ ؟

عَلَى أَنْ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ الْقَوْلِ بِزَيَادَتِهَا : أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى ذَاتِهِ وَكَانَ بِهَا خَلْقُهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ وَإِعْدَامُهَا ، وَكُلُّ مَا يَكُونُ مِنْ أَفْعَالِهِ مِنْ بَسْطٍ وَقَبْضٍ وَعَطَاءٍ وَمَنْعٍ وَرَفْعٍ وَخَفْضٍ ؛ لَمَّا كَانَ وَجْهَ لاسْتِحْقَاقِهِ الْعِبَادَةَ ذُوْنَهَا ، وَلَوْ قِيلَ بِإِشْرَاقِهَا مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ كَانَ ذَلِكَ عَيْنَ تَعَدُّدِ الْإِلَهِةِ ، مَعَ أَنَّ الْإِلَهَ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ .

وَذَهَبَ الْأَشْعَرِيَّةُ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الصِّغَاتِ مَعَانٍ حَقِيقِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ ، فَهِيَ - عِنْدَهُمْ - عَلِيمٌ يَعْلَمُ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ ، وَقَدِيرٌ بِقُدْرَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى ذَاتِهِ ، وَحَيٌّ بِحَيَاةٍ زَائِدَةٍ عَلَى ذَاتِهِ ، وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الصِّغَاتِ .

وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِقِيَاسِ الْغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَذْئُولَ الْوَصْفِ فِي الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ سَوَاءٌ ، وَبِمَا أَنَّ هَذِهِ الصِّغَاتِ فِي الشَّاهِدِ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَعَانِي حَقِيقِيَّةٌ تَقُومُ بِالذَّوَاتِ الْمُتَّصِفَةِ بِهَا - فَلَا يُسَمَّى عَالِمًا إِلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ الْعِلْمِ ، وَلَا قَادِرًا إِلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ الْقُدْرَةِ ، وَلَا سَمِيعًا إِلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ السَّمْعِ ،

وَلَا بَصِيرًا إِلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ الْبَصَرِ - فَهِيَ فِي الْغَائِبِ كَذَلِكَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ زَائِدَةً عَلَى ذَاتِهِ .

كَمَا اسْتَدْلُوا بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَوْ كَانَتْ عَيْنَ ذَاتِهِ تَعَالَى لَكَانَتْ وَاحِدَةً ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ عَيْنُ الْقُدْرَةِ وَالْقُدْرَةُ هِيَ عَيْنُ السَّمْعِ وَالسَّمْعُ هُوَ عَيْنُ الْبَصَرِ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ لِأَنَّ لِكُلِّ صِفَةٍ مِنْهَا مَذْلُولًا غَيْرَ مَذْلُولِ الصِّفَةِ الْأُخْرَى .

وَالْجَوَابُ عَنِ الاسْتِدْلَالِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ قِيَاسَ الْغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ غَيْرُ مُسَلِّمٌ ، لِمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنْ تَشْبِيهِ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ ، وَهُوَ مَا قَطَعَ ذَاهِرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [النورى/ ١١] .

عَلَى أَنْ فَتَحَ بَابَ هَذَا الْقِيَاسِ يُفْضِي إِلَى مَا لَمْ يَقُلْهُ هَؤُلَاءِ الْقَائِسُونَ وَلَا غَيْرُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَإِنَّا نَحُدُّ أَنَّ الشَّاهِدَ يَكُونُ مَوْجُودًا بِمَا عَلِمَ قَطُّ وَلَا قُدْرَةَ قَطُّ ، كَمَا نَصَّ عَلَى الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل/ ٧٨] ، وَتَدُلُّ الْمُشَاهَدَةُ عَلَى الثَّانِي ، ثُمَّ تَحْدُثُ لَهُ مَلَكَهَ الْعِلْمِ وَيَأْخُذُ فِي التَّنْزِجِ فِي احْتِسَابِ الْمَعْلُومَاتِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَعِنْدَمَا يَدُبُّ إِلَيْهِ الضَّعْفُ تَضَعُفُ هَذِهِ الْمَلَكَهَ فِيمَا يَضَعُفُ ، وَقَدْ يَجْهَلُ كَثِيرًا مِمَّا كَانَ يَعْلَمُ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَصِلُ إِلَى الْمَرَحَلَةِ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا الْقُرْآنُ بِأَرْذَلِ الْعُمُرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [النحل/ ٧٠] . وَمِثْلُ ذَلِكَ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ ، فَإِنَّ جَمِيعَ حَوَاسِّهِ وَطَاقَاتِهِ تَبْدَأُ ضَعِيفَةً ، وَتَأْخُذُ فِي النُّمُوِّ إِلَى أَنْ تَتَوَافَى إِلَى حَدٍّ مُعَيَّنٍ ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِي الْإِنْكَاسِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ [يس/ ٦٨] .

وَلَوْ قِيسَتْ صِفَاتُ الْحَقِّ عَلَى صِفَاتِ الْخَلْقِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ فِي صِفَاتِهِ كَشَأْنِ خَلْقِهِ ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالتَّعْلُمِ ، وَأَنْ يَكُونَ قَادِرًا بِالتَّنْزِجِ فِي مَرَاحِلِ الْقُدْرَةِ ، وَأَنْ تَكُونَ قُدْرَتُهُ تَنْمُو بِمُمَارَسَةِ مُتَعَلِّقَاتِهَا ، وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَا بَيْنَ صِفَاتِ الْحَقِّ وَصِفَاتِ الْخَلْقِ مِنَ التَّضَادِّ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ مَظَاهِيرِ صِفَاتِ الْكَمَالَاتِ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ نَسْبِيًّا مَخْدُودًا لَا يُوَازِي شَيْئًا بِجَانِبٍ مَا

يُتَصِفُ بِهِ مِنَ التَّقَانُصِ الْمُضَادَّةِ لَهَا ، وَلَوْ فَتَحْنَا بَابَ الْقِيَاسِ لَأَفْضَى ذَلِكَ إِلَى مَلَبِ
جَمِيعِ الْكَمَالَاتِ عَنِ الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ ، وَوَصَفِهَا بِكُلِّ صِفَاتِ التَّقْصِيرِ الَّتِي يُتَصِفُ بِهَا
الْمَخْلُوقُونَ ، وَهَذَا عَيْنُ الْمُحَالِ وَرَأْسُ الضَّلَالِ .

وَالْجَوَابُ عَنِ الثَّانِي أَنْ تَعُدُّ تِلْكَ الصِّفَاتِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهَا وَاخْتِلَافِ مَفَاهِيمِهَا
رَاجِعٌ إِلَى تَعُدُّ أَنْوَاعِ التَّحْلِيَّاتِ وَاخْتِلَافِهَا ، فَتَحْلِي الْكَائِنَاتِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا
وَتَبَايُنِ أَوْصَافِهَا الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ يُسَمَّى عِلْمًا ، وَتَحْلِي صُورِهَا وَأَلْوَانِهَا وَهَيْئَاتِهَا
يُسَمَّى بَصَرًا ، وَتَحْلِي أَصْوَاتِهَا يُسَمَّى سَمْعًا ، وَالتَّحْلِي لَهُ وَاحِدٌ وَهُوَ الذَّاتُ الْعَلِيَّةُ ،
وَهَكَذَا انْفِعَالُ الْأَشْيَاءِ حَسَبَ مُرَادِ ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ تَشْنِيعَ الْمُشْنَعِينَ عَلَى الْقَائِلِينَ بِأَنَّ صِفَاتِ الذَّاتِ هِيَ عَيْنُ الذَّاتِ
بِأَنَّهُمْ مُنْكَرُونَ لِصِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّهُمْ نَافُونَ عَنِ الذَّاتِ كَمَالَاتِهَا لَيْسَ بِشَيْءٍ ،
وَإِنَّمَا هُمْ مُنْزَهُونَ لِلذَّاتِ الْعَلِيَّةِ عَنِ الْاِفْتِقَارِ إِلَى الْغَيْرِ وَأَنْ يَكُونَ كَمَالُهَا مُنَوِّطًا بِالزِّيَادَةِ
عَلَيْهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ ذَاتَ الْمَخْلُوقِ لِنَقْصَالِهَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَا يَجْبُرُ نَقْصَهَا مِنْ صِفَاتٍ
زَائِدَةٍ عَلَيْهَا تُضَافُ إِلَيْهَا ، وَذَاتُ الْخَالِقِ لِكَمَالِهَا مَوْصُوفَةٌ بِكُلِّ الْكَمَالَاتِ مِنْ غَيْرِ اخْتِجَاجٍ
إِلَى زِيَادَةٍ مِمَّا عَدَاهَا .

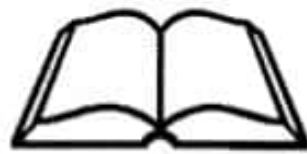


٩ ٥ /

نفي الرؤية

٣ ٥ /

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



۱۱. وَلَا يُحِيطُ بِهِ - سُبْحَانَهُ - بَصَرٌ دُنْيَا وَأُخْرَى ، فَدَعِ أَقْوَالَ مَنْ تَصَلَا



❁ نفي الرؤية :

١١. وَلَا يُحِيطُ بِهِ - سُبْحَانَهُ - بَصَرٌ ذُلِّيًّا وَأُخْرَى ، فَدَعِ أَقْوَالَ مَنْ نَصَلَ

مُرَادُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّةٌ عَنْ رُؤْيَا الْأَبْصَارِ لَهُ ، لِأَنَّهُ لَا يُشَبِّهُ شَيْئًا وَلَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ ، فَوُجُودُهُ لَيْسَ كَوُجُودِ مَا سِوَاهُ ، فَهُوَ مُنَزَّةٌ عَنِ التَّحْيِيزِ فِي مَكَانٍ ، وَعَنِ وَصْفِهِ بِالْأَلْوَانِ ، وَالرُّؤْيَا لَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى مُتَحَيِّزٍ ذِي جَرَمٍ كَثِيفٍ ، مُتَّصِفٍ بِأَحَدِ الْأَلْوَانِ ، مُشَبَّهٍ بِنَفْسِهِ أَوْ وَاقِعٍ عَلَيْهِ شُعَاعٌ غَيْرُهُ ، غَيْرٌ دَقِيقٌ جَدًّا ، وَلَا مُتَّصِلٌ بِالْبَاصِرَةِ وَلَا بَعِيدٌ جَدًّا . فَإِنْ قِيلَ بَأَنَّ هَذِهِ الشُّرُوطُ إِلَّا مَا هِيَ فِي تَحَقُّقِ رُؤْيَا الشَّاهِدِ دُونَ الْغَائِبِ ، وَقَدْ قُلْتُمْ بِمَنْعِ قِيَاسِ الْغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ .

فَالْجَوَابُ : أَنَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ هِيَ الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِهَا مَدْلُولُ الرُّؤْيَا اللَّغَوِيُّ ، وَخِطَابُ الشَّارِعِ إِلَّا مَا هُوَ بِحَسَبِ وَضْعِ اللُّغَاتِ ، وَمَنْعُ قِيَاسِ الْغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ لِتَنْزِيهِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى/ ١١] ، وَذَلِكَ نَفْسُهُ دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى اسْتِحْوَاجِ رُؤْيَايِهِ ؛ لِئَلَّا يَتَسَاوَى مَعَ مَخْلُوقَاتِهِ فِي تَسَلُّطِ إِحْدَى الْحَوَاسِّ عَلَى ذَاتِهِ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يُدْرَكَ بِحَاسَّةِ الْبَصَرِ لَحَازَ ذَلِكَ لِجَمِيعِ الْحَوَاسِّ كَاللَّمْسِ وَالشَّمِّ وَالذُّوقِ .

أَمَّا مِنْ حَيْثُ الْأَدِلَّةُ الثَّقَلِيَّةُ

❁ فَإِنْ أَصْرَحَ بِهَا وَأَقْوَاهَا وَأَدْلَاهَا عَلَى اسْتِحْوَاجِ رُؤْيَايِهِ تَعَالَى : قَوْلُهُ ﷻ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام/ ١٠٣] ، فَإِنَّهُ سَبَقَ مَسَاقَ التَّمَدُّحِ ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَلَا يُمَكِّنُ تَبَدُّلُهُ ذُلِّيًّا وَلَا أُخْرَى ، لِأَنَّ مَدَائِحَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا تَسْزُولُ ، فَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة/ ٢٥٥] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا آتَاكَ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدًا ﴾ [الحسن/ ٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا

يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف/٤٩] . فَلَا يَحُورُ انْقِلَابُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَى ضِدِّهِ ، فَلَا وَجْهَ لِحَصْرِ هَذَا الثَّقْفِي فِي الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ ، وَلَا فِي جَعْلِهِ خَاصًّا بِنَعْضِ الْأَبْصَارِ دُونَ بَعْضٍ . وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الْإِدْرَاكَ غَيْرُ الرُّؤْيَةِ مَرْدُودٌ بِأَنَّ إِدْرَاكَ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ ، فَإِدْرَاكَ الْأُذُنِ سَمَاعُهَا ، وَإِدْرَاكَ الْيَدِ قَبْضُهَا ، وَإِدْرَاكَ السَّهْمِ إِصَابَتُهُ ، وَإِدْرَاكَ الْعَيْنِ رُؤْيُهَا ، وَهُوَ الَّذِي تُدَلُّ عَلَيْهِ الْمَعَاجِمُ اللَّغَوِيَّةُ الْمُعْتَمَدَةُ فِي تَفْسِيرِهَا الْإِدْرَاكَ بِاللَّحَاقِ .

• وَمِنْ الْأَدْلَةِ عَلَى ذَلِكَ : قَوْلُهُ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ [الأعراف/١٤٣] . فَإِنَّ «لَنْ» مِنْ أَقْوَى عَوَامِلِ الثَّقْفِي ، فَلِذَلِكَ تُقْبَلُ تَأْكِيدُهُ أَوْ تَأْيِيدُهُ ، وَلَئِنْ اتَّفَقَتْ رُؤْيَتُهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاتَّفَقَا وَهَذَا عَنْ غَيْرِهِ أُخْرَى .

• وَمِنْ أَدْلَتِهِ مَا جَاءَ مِنَ التَّشْدِيدِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى مَنْ سَأَلَهَا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة/١٠٨] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ [الاعراف/١٥٣] .

وَمِنْ دَلَائِلِ ذَلِكَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

• حَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ : « جِئْتَانِ مِنْ ذَهَبِ آيَتِهَا وَمَا فِيهَا ، وَجِئْتَانِ مِنْ فِضَّةِ آيَتِهَا وَمَا فِيهَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبَرِيَاءِ عَلَى وَجْهِ رَبَّنَا فِي جَنَّةِ عَدْنٍ » . فَإِنَّ مَعْنَاهُ : أَنَّ اللَّهَ أَعْلَى مَنَازِلِهِمْ وَقَرَّبَهُمْ مِنْهُ ، فَلَمْ يَحُلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُؤْيَتِهِمْ إِلَّا أَنْصَافُهُ تَعَالَى بِالْكَبَرِيَاءِ ، وَرُؤْيَتُهُ تَنَافِي كِبَرِيَاءَهُ ﷺ ، وَصِفَةُ الْكِبَرِيَاءِ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلَّهِ لَا تَتَبَدَّلُ ، فَمَا اسْتَفَى بِسَبَبِهَا فَإِنَّ الْفَنَاءَ أَبَدِيٌّ يَسْتَحِيلُ ضِدُّهُ .

• وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ فَقَالَ : « نُورٌ أَلْبَى أَرَاهُ ! » . فَإِنَّ قَوْلَهُ : « أَلْبَى أَرَاهُ » اسْتِغْنَاءٌ لَأَنَّهُ تَحُورَ رُؤْيَتُهُ .

أَمَّا اسْتِدْلَالُ الْقَائِلِينَ بِالرُّؤْيَةِ عَلَى وَقُوعِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿ [القبامة/ ٢٢-٢٣] فَهُوَ مَرْدُودٌ بِأَنَّ النَّظَرَ هُنَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الرُّؤْيَةِ لِأُمُورٍ :

○ أَوَّلُهَا : أَنَّ النَّظَرَ لَيْسَ هُوَ عَيْنُ الرُّؤْيَةِ ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْقَائِلَ يَقُولُ : نَظَرْتُ الْهَلَالَ فَلَمْ أَرَهُ ، وَلَوْ قَالَ : رَأَيْتُ الْهَلَالَ فَلَمْ أَرَهُ ؛ لَكَانَ قَوْلًا سَخِيفًا مُتَهَالِكًا .

○ ثَانِيهَا : أَنَّهُ أُسْنِدَ إِلَى الْوُجُوهِ ، وَالْوُجُوهُ لَيْسَتْ هِيَ آلَةُ الرُّؤْيَةِ وَإِنَّمَا آلتُهَا الْأَبْصَارُ .

○ ثَالِثُهَا : أَنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالنَّظَرِ هُنَا إِلَّا الْإِنْتِظَارَ ، فَإِنَّ الْآيَةَ

أَتَّبَعَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿ [القبامة/ ٢٤-٢٥] وَتَفْسِيرُهُ بِالرُّؤْيَةِ لَا يَنْسَجِمُ مَعَ هَذَا السِّيَاقِ ، فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿ نَاصِرَةٌ ﴾ - وَهُوَ بِمَعْنَى النَّصَارَةِ وَالْحُسْنِ - مُقَابِلُ بِقَوْلِهِ ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ ، وَقَوْلُهُ ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ مُقَابِلُ بِقَوْلِهِ ﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ ، فَوُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ نَاصِرَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ لِإِنْتِظَارِهَا رَحْمَةَ اللَّهِ ، أَيْ أَنْ يُؤْذَنَ لَهَا بِدُخُولِ جَنَّتِهِ وَالْفَوْزِ بِنَعِيمِهِ ، وَالْوُجُوهُ أَعْدَائِهِمْ بَاسِرَةٌ ، أَيْ كَالِحَةٌ تَتَوَقَّعُ أَمْرًا شَدِيدًا يَقْطَعُ فَقَارَ ظُهُورِهَا ، وَهُوَ دُخُولُ النَّارِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - .

ولو فُسِّرَ النَّظَرُ هُنَا بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ لَشَدَّ عَمَّا يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ مِنَ التَّقَابُلِ وَالتَّضَادِّ بَيْنِ أَوْصَافِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَوْصَافِ الْكَافِرِينَ وَالْفَاسِقِينَ ، إِذْ لَا تَقَابُلَ بَيْنَ كَوْنِ وَجُوهِ الْمُؤْمِنِينَ رَائِيَةً لِرَبِّهَا وَوُجُوهِ أَعْدَائِهِمْ تَتَوَقَّعُ أَمْرًا يَقْطَعُ فَقَارَ ظُهُورِهَا .

○ رَابِعُهَا : أَنَّ الْآيَاتِ إِنَّمَا هِيَ تُخْبِرُ عَنْ أَحْوَالِ الْمَوْقِفِ يَوْمَ الْحِسَابِ ، وَالْقَائِلُونَ بِالرُّؤْيَةِ اخْتَلَفُوا فِي وَقُوعِهَا فِي الْمَوْقِفِ ، بَلْ نَجِدُهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّهَا مِنَ الزِّيَادَةِ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ الْفَوْزِ بِالثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ .

فَإِنْ قَالُوا بَأَنَّهُ لَا يُسَلَّمُ أَنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْمَوْقِفِ لِأَنَّهَا دَعَاوَى لَمْ يَقُمْ عَلَيْهَا بُرْهَانٌ . قُلْنَا : بُرْهَانُهَا وَاضِحٌ فِي نَفْسِ الْآيَاتِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ ، فَلَوْ كَانَ مَا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ النَّصَارَةِ وَالنَّظَرِ مَعْنِيًّا بِهِ مَا يَنَالُونَهُ فِي الْجَنَّةِ لَكَانَ مَا ذُكِرَ فِي حَقِّ الْفَرِيقِ الْآخَرِ مُرَادًا بِهِ مَا يَحْدُوثُهُ فِي النَّارِ ، مَعَ أَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ يَصْلُوا

النَّارَ لَا مَعْنَى لِظَنِّهِمْ أَنْ يُفْعَلَ بِهِمْ فَاقِرَةٌ ، لِأَنَّ الْفَاقِرَةَ حَلَّتْ بِهِمْ ، وَظَنَّ ذَلِكَ - أَيِ تَوَقُّعُهُ - إِنَّمَا هُوَ قَبْلَ دُخُولِهَا .

أَمَّا مَا زَعَمُوهُ بِأَنَّ النَّظَرَ إِذَا عُذِيَ بِـ «إِلَى» لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ ؛ فَهُوَ مَرْدُودٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران/ ٧٧] ، فَقَدْ عُذِيَ النَّظَرُ هُنَا بِإِلَى وَهُوَ بِمَعْنَى غَيْرِ الرُّؤْيَةِ قَطْعًا ، لِأَنَّهُ لَوْ فُسِّرَ بِهَا لَزِمَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُبْحَاثًا لَا يَرَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فَإِنْ قَالُوا : إِنَّ إِسْنَادَ النَّظَرِ إِلَى الْوُجُوهِ هُوَ الَّذِي يُؤَكِّدُ أَنَّهُ بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ . قُلْنَا : إِنَّ الْوُجُوهَ هُنَا مَحَازٍ عَنْ أَصْحَابِهَا ، وَلَقَدْ حَازَ أَنْ يُسْنَدَ إِلَيْهَا كُلُّ مَا يُسْنَدُ إِلَى أَصْحَابِهَا مِنَ التَّعْمَةِ وَالرِّضَا فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْحُشُوعِ وَالْعَمَلِ وَالنَّصَبِ وَصِلِي النَّارِ وَالسَّقْيِ مِنْ عَيْنِ آيَةٍ فِي حَقِّ الْمُجْرِمِينَ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ ﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ ﴿ [العاشية/ ١-٥] ، ثُمَّ فِي مُقَابِلِهَا : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ [العاشية/ ٨-٩] ؛ فَمَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ يُسْنَدَ النَّظَرُ بِمَعْنَى الْإِسْتِظَارِ إِلَيْهَا كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؟ عَلَى أَنَّهُ أُسْنِدَ إِلَى وَجُوهٍ - فِي آيَةٍ تَالِيَةٍ - ظَنُّهَا أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ، فَدَعَوَى أَنْ النَّظَرَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ إِذَا أُسْنِدَ إِلَى الْوُجُوهِ دَعَوَى عَارِيَةٍ مِنَ الدَّلِيلِ .

وَالْكَلَامُ فِي الرُّؤْيَةِ لَا تَسَعُ لَهُ هَذِهِ الْعُجَالَةُ ، وَقَدْ بَسَطْتُ الْقَوْلَ فِيهِ فِي «الْحَقِّ الدَّمَاعِ» ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ .



نظي التكليف

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



۱۲. وَلَا يُكَيِّفُهُ وَهُمْ وَلَا يَفَكِّرُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَقْطَارُ مُدْخَلًا



❁ نفي التكيف :

١٢. وَلَا يُكَيِّفُهُ وَهُمْ وَلَا فِكْرٌ وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَفْطَارُ مُدْخَلًا

الْوَاوُ عَاطِفَةٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

وَمَعْنَى ذَلِكَ : أَكُنَّا نَدِينُ - فِيمَا نَدِينُ بِهِ - أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا تُكَيِّفُهُ الْأَوْهَامُ وَالْأَفْكَارُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَفْطَارُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَمَا تَصَوَّرَهُ الْوَهْمُ أَوْ كَيْفُهُ الْفِكْرُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثَالٌ يَرْتَسِمُ فِي الذَّهْنِ، فَلِذَلِكَ وَجَبَ تَنْزِيهِهُ ^{وَعَلَى} عَنْ كُلِّ مَا يَرِدُ إِلَى الْأَذْهَانِ مِنَ الْخَيَالَاتِ وَالصُّوَرِ .

وَهُوَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ أَيْضًا عَنْ إِحَاطَةِ الْأَفْطَارِ - أَيِ الْجِهَاتِ - بِهِ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ نَفْيِ كَوْنِهِ جِسْمًا أَوْ عَرْضًا ، وَكَفَى .



مركز بحوث القرآن الكريم

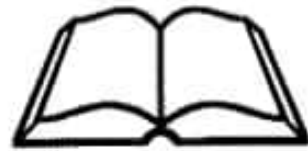


٥ / ٩

الاستواء

على العرش

مركز تحقيقات کامپوزيٽيون اسلام آباد



عَدَلَتْ فَهِيَ اسْتِوَاءٌ غَيْرُ مَا عُقِلَا
لَهُ عَلَى كُلِّهَا اسْتَوَى وَقَدْ عَدَلَا
عَلَى الْبِلَادِ فَحَازَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَا

١٣. وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ وَالْأَشْيَا اسْتَوَى وَإِذَا
١٤. وَإِنَّمَا الْاسْتِوَاءُ مُلْكٌ وَمَقْدَرَةٌ
١٥. كَمَا يُقَالُ اسْتَوَى سُلْطَانُهُمْ فَعَلَا



❁ الاستواء على العرش :

١٣. وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ وَالْأَشْيَا اسْتَوَى وَإِذَا
 ١٤. وَإِنَّمَا الْإِسْتِوَاءُ مُلْكٌ وَمَقْدَرَةٌ
 ١٥. كَمَا يُقَالُ اسْتَوَى سُلْطَانُهُمْ فَعَلَا
 عَدَلَتْ فَهُوَ اسْتِوَاءٌ غَيْرُ مَا عُقِلَا
 لَهُ عَلَى كُلِّهَا اسْتَوَى وَقَدْ عَدَلَا
 عَلَى الْبِلَادِ فَحَازَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَا

قد أخبر الله في كتابه في العديد من الآيات أنه استوى على العرش ، ويجب أن نذكر أن هذا الاستواء لا يعني القعود والاستقرار ، لأنه تعالى منزهة عن الافتقار إلى الغير ، ولو كان بمعنى القعود والاستقرار لكان هو بحاجة إلى العرش ، ولأنه سبحانه سابق على كل شيء في الوجود ، لا أول لأوليته ، وكل ما سواه حادث عن العدم ، وهو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود .

فوضح لكل ذي عيّن أنه يستحيل عليه أن يكون استواءه على العرش بالمعنى المادي ، وهو القعود والاستقرار كما أخذت به المشبهة ، وتعين أن هذا من باب الكنايات ، وذلك معهود في الخطاب العربي وغيره ، كما يقال : فلان طويل النجاد ؛ كناية عن طول قامته ، ولو لم يكن له نجاد ، وكما يقال في الكريم بأنه : كثير الرماد ، مهزول الفصيل ، جبان الكلب ، ولو لم توجد حقيقة لشيء مما وُصف به .

وعليه فإن استواءه على العرش إنما هو بمعنى هيمنته على خلقه وتذبيره لأمرهم وتصريفه لكل شيء في الكائنات . على أن العرب تطلق الاستواء بمعنى الاستيلاء ، كما يقول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهوراق
 وهذا المعنى أولى أن تحمل عليه الآيات ، لما ثبت من دليل العقل والثقل من استحالة المعنى المادي الظاهر ، فإن العرش الجسماني مكان كغيره من الأمكنة ، كان بعد

أَنْ لَمْ يَكُنْ ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بِخَلْقِ اللَّهِ ، فَهُوَ الْمُفْتَقِرُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ وَعَنِ غَيْرِهِ .

وَلَوْ كَانَ تَعَالَى حَالًا بِالْعَرْشِ - كَمَا تَقُولُ الْمُشَبِّهَةُ - لَتَرْتَّبَ عَلَى ذَلِكَ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ سَابِقًا عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ يَقْتَضِي حُدُوثَهُ تَعَالَى . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدِيمًا مَعَهُ ؛ وَهُوَ يَقْتَضِي تَعَدُّدَ الْقَدَمَاءِ ، وَتَعَدُّدَ الْقَدَمَاءِ يَقْتَضِي تَعَدُّدَ الْإِلَهَةِ . وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ حَادِثًا كَغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى التَّسَاوُلِ عَنْ مَكَانِهِ تَعَالَى قَبْلَ حُدُوثِ عَرْشِهِ .

وَالْتَسْرِيَةُ اللَّائِقُ بِحَلَالِ اللَّهِ يَقْتَضِي بَاسْتِحَالَةَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ وَلَا زَمَانَ وَلَا مَكَانَ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ ، لَمْ يُحْدِثْ خَلْقُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ تَغْيِيرًا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ ، فَإِنَّ التَّحَوُّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ مِنْ سِمَاتِ مَخْلُوقَاتِهِ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَالْعَرْشُ وَمَا دُونَهُ مَحْمُولَانِ بِلُطْفِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى .

وَإِنَّمَا مِنْ تَيْسِيرِ اللَّهِ تَعَالَى الْهِدَايَةَ لِعِبَادِهِ أَنْ خَاطَبَهُمْ بِالْعِبَارَاتِ الَّتِي يَفْهَمُونَهَا مِنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَحَازِ وَالصَّرِيحِ وَالْكِنَايَةِ ، وَقَدْ عُهِدَ فِي تَخَاطُبِ النَّاسِ قَوْلُهُمْ مَثَلًا : اعْتَلَى فُلَانُ الْعَرْشَ ، بِمَعْنَى : تَوَطَّدَ مُلْكُهُ وَاسْتَوْلَى عَلَى أَرْزَمَةِ أُمُورِ الرُّعْيَةِ .



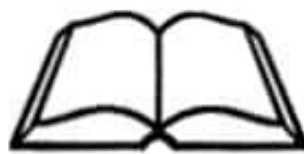
الایمان

و - س

صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بمحمد

مرکز تحقیقات کلامی و عقاید اسلامی



يُخَصُّ مِنْ بَيْنِهِمْ فَضْلاً وَمُفْتَضِلاً
مُبَلَّغُ الثَّقَلَيْنِ مَا بِهِ رَسُولُ

۱۶. وَأَنْ أَحْمَدَ مِنْ رُسُلِ الْإِلَهِ ، وَقَدْ
۱۷. وَأَنْهُ صَادِقٌ فِيمَا أَتَانَا بِهِ



❖ الإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ :

١٦. وَأَنْ أَحْمَدَ مِنْ رُسُلِ الْإِلَهِ ، وَقَدْ
١٧. وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا أَتَانَا بِهِ
- يُخَصُّ مِنْ يَنِيهِمْ فَضْلاً وَمُقْتَضِلاً
مُبْلَغُ الثَّقَلَيْنِ مَا بِهِ رُسُلُ

بَعْنِي أَنَّهُ مِمَّا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ أَنْ أَحْمَدَ - أَيُّ نَبِيِّنَا مُحَمَّدًا ﷺ - هُوَ وَاحِدٌ مِنْ
رُسُلِ اللَّهِ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ، وَالْإِيمَانُ بِهِ أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ الرُّسُلِ يَقْتَضِي الْإِيمَانَ بِكُلِّهِمْ
هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ وَبِرِسَالَتِهِمْ جَمِيعًا ، وَلَكِنَّ الْوَاجِبَ مِنْ إِيْمَانِنَا بِهِمْ هُوَ الْإِيمَانُ بِجُمْلَتِهِمْ ،
إِلَّا مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ فَعَرَفْنَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَعْرِفَةً حَاصَّةً فَعَلَيْنَا أَنْ نَخْصُهُ بِالْإِيمَانِ .

وَيَتَمَيَّزُ إِيْمَانُنَا بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - أَنَّهُ إِيْمَانٌ بَعْنِيهِ ، فَلَا
يَكْفِي أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ إِيْمَانًا مُجْمَلًا مَعَ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ ، لِأَنَّهُ النَّبِيُّ الْخَاتَمُ ، وَرِسَالَتُهُ هِيَ
الرِّسَالَةُ الْخَاتَمَةُ ، وَقَدْ تَعَبَّدْنَا بِهَا وَفَرَضْنَا عَلَيْهَا تَابِعَهُ ، وَذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ إِلَّا إِذَا مَا خَصَّصْنَاهُ
بِالْإِيمَانِ .

وَالْمُرْسَلُونَ جَمِيعًا مَبْزُؤًا عَلَى غَيْرِهِمْ بِفَضَائِلِهِمُ الْحَمَّةِ الَّتِي اخْتَصَّصَهُمُ اللَّهُ بِهَا ،
وَنَاهَيْكَ أَنْ اللَّهَ وَصَفَهُمُ بِالْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اصْطِفَائِهِمْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ
الْخَلْقِ وَأَفْضَلِيَّتِهِمْ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ .

وَقَدْ مُيزَ مِنْ بَيْنِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَا رَفَعَ دَرَجَتَهُ فَوْقَ دَرَجَاتِهِمْ ، وَشَمَخَ بِقُدْرِهِ
مِنْ بَيْنِ أَقْدَارِهِمْ ، وَحَسَبَكُمْ مَا وَصَفَهُ اللَّهُ بِهِ حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء/ ١٠٧] ، وَهُوَ وَصِفَ تَقَاصُرَ دُوْنَهُ الْأَوْصَافُ ، وَقَدَّرَ تَتَوَاضَعُ دُوْنَهُ
الْأَقْدَارُ ، إِذْ لَمْ يَجْعَلْهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ رَحْمَةً
لِمُطْلَقِ الْوُجُودِ ، وَقَدْ تَمَيَّزَ مِنْ بَيْنِهِمْ :

- ◆ بِأَنْ رِسَالَتُهُ هِيَ الرِّسَالَةُ الْخَاتَمَةُ الْمُهِمَّةُ عَلَى رِسَالَتِهِمْ .
- ◆ وَأَنَّ الْكِتَابَ الْمُنَزَّلَ عَلَيْهِ هُوَ الْكِتَابُ الْآخِرُ مِنْ بَيْنِ الْكُتُبِ ، فَهُوَ مُهِمٌّ عَلَيْهَا .
- ◆ وَأَنَّ مُعْجَزَتَهُ هِيَ الْمُعْجَزَةُ الْخَالِدَةُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمُعْجَزَاتِ .

♦ وَأَنَّ شَرِيعَتَهُ هِيَ أَجْمَعُ الشَّرَائِعِ وَأَذَقَهَا ، وَأَوْفَاهَا بِكُلِّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

♦ وَأَنَّ رِسَالَتَهُ لَمْ تَكُنْ خَاصَّةً بِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ ، وَإِنَّمَا هِيَ رِسَالَةٌ إِلَى الثَّقَلَيْنِ جَمِيعًا .

♦ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ رَفَعَ بِهَا مَا كَانَ عَلَى الْأُمَمِ مِنَ الْأَصَارِ الشَّقَاةِ وَالتَّكَالُفِ الْعَسِيرَةِ ، فَحَقَّلَ الدِّينَ فِيهَا يُسْرًا .

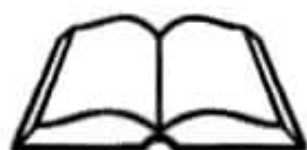
♦ وَأَنَّ أُمَّتَهُ هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ ، وَأَنَّهَا تَضَطَّلِعُ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمَانَةِ رِسَالَتِهِ قِيَامًا بِوَاجِبَاتِهَا وَتَبْلِيغًا لِمَضْمُونِهَا إِلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ .

♦ وَقَدْ زَادَهُ تَعَالَى شَرَفًا بِأَنْ وَعَدَهُ أَنْ يَتَّعَهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْ تَكُونَ لَهُ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى ، وَأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَحْتَ لَوَائِهِ .

وَمِمَّا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ أَيْضًا : مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ؛ الَّذِي هُوَ الْمُعْجَزَةُ الْخَالِدَةُ وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَالْمَنْهَجُ الشَّامِلُ لِكُلِّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ ، وَقَدْ مَيَّزَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ بَيْنِ الْكُتُبِ بِبَقَاءِ نَصِّهِ مَحْفُوظًا مِنْ أَيْدِي الْعَابِثِينَ ، وَمَصُونًا مِنْ تَحْرِيفِ الْمُبَدِّلِينَ ، يَتَحَدَّى الثَّقَلَيْنِ بِشَكْلِهِ وَمَضْمُونِهِ ، يَتَحَدَّدُ فِي كُلِّ حِينٍ إِعْجَازُهُ ، وَتَتَحَلَّى فِي كُلِّ عَصْرِ آيَاتِهِ ، بِمَا يَنْهَرُ الْأَلْبَابَ وَيَسْتَأْصِلُ شُبُهَةَ كُلِّ مُشَاقِقٍ ، وَيَأْتِي عَلَى ثُلَيْسٍ كُلِّ دَجَالٍ ، فِيهِ النُّورُ وَالشِّفَاءُ وَالْهُدَى وَالرَّحْمَةُ وَالنَّجَاةُ وَالْعِصْمَةُ .



الْإِيمَانُ بِالْمَوْتِ وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ



١٨. وَقَدْ أَتَتْ حُجُجُ الْبُرْهَانِ نَاطِقَةً بِالْمَوْتِ وَالْبَعْثِ وَالْحُسْبَانِ فَاْمَثَلَا



❁ الإِيمَانُ بِالْمَوْتِ وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ :

١٨. وَقَدْ أَتَتْ حُجُجُ الْبُرْهَانِ نَاطِقَةٌ بِالْمَوْتِ وَالْبَعْثِ وَالْحُسْبَانِ فَاْمْتِثِلَا

هَذَا مِمَّا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ ؛ وَهُوَ : الْمَوْتُ فَمَا بَعْدَهُ .

فَالْمَوْتُ هُوَ سَبِيلُ الْإِنْتِقَالِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ ، وَمِنْ الْفَنَاءِ إِلَى الْخُلُودِ ، وَمِنْ الْعَمَلِ إِلَى الْجَزَاءِ ، وَلَا يُجَادَلُ فِيهِ مُجَادِلٌ ، لِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ وَاقِعَةٌ لَا يَتَمَارَى فِيهَا إِنْسَانٌ ، فَهَذِهِ الْأَمَمُ عَبْرَ الْقُرُونِ يَطْوِيهَا الْمَوْتُ طَيًّا ، وَلَيْسَ فِيهَا مَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى السُّتْخْلُصِ مِنْهُ أَوْ تَأْخِيرِ سَاعَتِهِ عِنْدَمَا يَحِينُ حِينُهُ ، بَلِ النَّاسُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَحْيَاءِ فِي سَبَاقِ مُسْتَمِرٍّ إِلَيْهِ لَوَرَدَ مِنْهُلِكَ وَالْعَبْءُ مِنْ كَاسِهِ ، لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ قَوِيٍّ وَضَعِيفٍ ، وَلَا بَيْنَ قَاهِرٍ وَمَقْهُورٍ ، وَلَا بَيْنَ غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ ، وَلَا بَيْنَ عَزِيزٍ وَذَلِيلٍ ، فَلِذَلِكَ سَلَّمَ الْكُلُّ لَهُ وَلَمْ يُوجَدْ مَنْ يُعَارِي فِي حَقِيقَتِهِ أَوْ يُشَكِّكُ فِي ثُبُوتِهِ ، فَالْمُؤْمِنُونَ وَالْكَفَّارُ وَالْبَرَّةُ وَالْفَجَرَةُ سَوَاءٌ فِي الْإِقْرَارِ بِهِ .

وَأَمَّا يُجَادَلُ الْمُجَادِلُ وَيُشَكِّكُ مَنْ شَكَّكَ فِيمَا يَتَّبَعُهُ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرْحَالُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، فَفِي ذَلِكَ يَقَعُ الْإِفْتِرَاقُ بَيْنَ طَائِفَتَيْ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ ، فَالْمُؤْمِنُونَ كَمَا آمَنُوا بِثُبُوتِ الْمَوْتِ الْمُشَاهِدِ يُؤْمِنُونَ بِثُبُوتِ الْبَعْثِ الْمُعْصِبِ وَمَا يَتَّبَعُهُ ، لِتَسْلِيمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَتَصْدِيقِهِمْ بِكُلِّ مَا أُخْبِرَ بِهِ .

وَقَدْ أَقَامَ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ الْحُجَّةَ عَلَى مَا أُنْكَرُوهُ مِنَ الْبَعْثِ مِنْ دَلَائِلِ خَلْقِهِ لَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ ، وَتَصَوُّيرِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى غَيْرِ سَابِقِ مِثَالٍ ، وَمَا آتَاهُمْ مِنْ مَوَاهِبِ الْحَيَاةِ وَأَفَاضَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِ الْمَدَارِكِ وَالْأَحَاسِيسِ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ❁

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٥﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧٦﴾ [الحج/٥-٧] .

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ الْمَلَكُوتَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [بر/٧٧-٨٣] .

وَقَدْ ذَلَّلَ النَّصُوصُ الْقَاطِعَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ مُحَاسَبٌ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿٨٤﴾ [الحاقة/١٨] ، وقال : ﴿ يُنْشَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿٨٥﴾ [القيامة/١٣] ، وقال : ﴿ إِنَّا إِلَيْنَا يَأْتِبُهُمُ ﴿٨٦﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٨٧﴾ [الغاشية/٢٥-٢٦] .

مركز تحقيقات کامپوز اسلام آباد



الميزان



قَالُوا عَمُودٌ وَكَفَاتُ لِمَا عُمِلَا
تَسْمَعُ إِلَى آيَةِ الْأَعْرَافِ مُحْتَفِلَا

١٩. وَمَا هُنَالِكَ مِيزَانٌ يُقَامُ كَمَا
٢٠. وَإِنَّمَا الْوِزْنُ حَقٌّ مِنْهُ - عَزَّ - أَلَمْ



✽ الميزان :

١٩. وَمَا هَذَا مِيزَانٌ يُقَامُ كَمَا
قَالُوا عَمُودٌ وَكَفَاتٌ لِمَا عَمِلُوا
٢٠. وَإِنَّمَا الْوِزْنُ حَقٌّ مِنْهُ - عَزَّ - أَلَمْ
تَسْمَعْ إِلَى آيَةِ الْأَعْرَافِ مُخْتَلِفًا

جاءت الآيات القرآنية ناصئة على أن الناس يوم القيامة متفاوتون في المال بحسب التفاوت في الأعمال ، فمنهم ثَقِيلُ المِيزَانِ ومنهم خَفِيفُهُ ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ سَنَ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ * وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون / ١٠٢-١٠٣] ، وقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ * فَأَمَّهُ هَآوِيَةٌ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَ ﴾ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارة / ٦-١١] .

وقد اختلف المسلمون في تأويل ذلك :

♦ فمنهم من ذهب إلى أن الأعمال تُوزَنُ وَزَنًا حَقِيقِيًّا بِمِيزَانٍ حَقِيقِيٍّ ، فَأَهْلُ الْبِرِّ تَثْقُلُ مَوَازِينُهُمْ ، وَأَهْلُ الْفُجُورِ تَخِفُّ مَوَازِينُهُمْ ، وهو قول الأشاعرة ومن نَحَا نَحْوَهُمْ .

♦ وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّ الْمِيزَانَ كِنَايَةٌ عَنْ فَرْزِ الْأَعْمَالِ ، وَتَمْيِيزِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا ، وَبَيَانِ مَقْبُولِهَا وَمَرْدُودِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى مِيزَانٍ حَقِيقِيٍّ لِبَيَانِ الصَّالِحَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَإِنَّمَا يَغْرِضُ عَلَى عِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا قَدَّمُوا وَمَا أَخَّرُوا ، وَمَا أَخْلَصُوا فِيهِ لِلَّهِ وَمَا أَرَادُوا بِهِ غَيْرَ وَجْهِهِ ، فَتَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَى الْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ ، وَيَنْتَعِمُ الْمُحْسِنُ بِنِعْمَةِ الْقَبُولِ مِنَ اللَّهِ ، وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا وَالْمُعْتَزِلَةِ .

وَحُجَّةُ هَؤُلَاءِ : أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَخْبَرَ عَنِ الْوِزْنِ بِأَنَّهُ الْحَقُّ ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ الْقِسْطُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف / ٨] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ

مِنْ خَرَدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء/٤٧] . فقوله : ﴿ الْحَقُّ ﴾ خَيْرٌ عَنِ
الْوِزْنِ ، وقوله : ﴿ الْقِسْطُ ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْمَوَازِينِ .

وهو دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ ، وَصَوَابِ مَا عَوَّلُوا عَلَيْهِ ؛ مِنْ أَنَّ الْوِزْنَ لَيْسَ
هُوَ بِمِيزَانٍ مَادِّيٍّ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِيزَانٌ مَعْنَوِيٌّ وَهُوَ الْحَقُّ وَالْقِسْطُ ، فَإِنَّ الْخَيْرَ هُوَ نَفْسُ
الْمُخْبِرِ عَنْهُ ، وَالْبَدَلُ هُوَ عَيْنُ الْمُبْدَلِ مِنْهُ ، وَلِذَلِكَ نَفَى الْمُصَنَّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّ
يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْمِيزَانِ مِيزَانًا مَادِّيًّا لَهُ عَمُودٌ وَكِفَتَانِ .

وَمِمَّا يُقَوِّي ذَلِكَ : أَنَّ الْأَعْمَالَ أَعْرَاضٌ وَلَيْسَتْ أَجْسَامًا ، وَالْأَعْرَاضُ لَا تُوزَنُ
بِمَعَايِيرَ مَادِّيَّةٍ ، وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْقَائِلُونَ بِالْمِيزَانِ الْمَادِّيِّ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ
تَتَحَسَّدُ فَتَكُونُ أَجْسَامًا ، فَيَكُونُ وَزْنُهَا كَمَا تُوزَنُ الْأَجْسَامُ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بَأَنَّ الْوِزْنَ
إِنَّمَا هُوَ لِذَوِي الْأَعْمَالِ ، فَيُثْقَلُونَ وَيَخِفُّونَ بِقَدَرِ مَا قَدَّمُوا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ . وَلَا دَلِيلَ
عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .



مرکز تحقیقات کتب و سوره تنوع اسلامی



الصراط والحساب

مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود
الرياض - المملكة العربية السعودية



٢١. وَلَا الصُّرَاطُ بِجِسْرِ مِثْلَ مَا زَعَمُوا وَمَا الْحِسَابُ بِعَدٍ مِثْلَ مَنْ ذَهَبَ



❁ الصِّرَاطُ وَالْحِسَابُ :

٢١. وَلَا الصِّرَاطُ بِجِزْرِ مِثْلَ مَا زَعَمُوا وَمَا الْحِسَابُ بِعَدٍّ مِثْلَ مَنْ ذَهَلَا

يَعْنِي أَنَّ الصِّرَاطَ لَيْسَ هُوَ جِسْرًا عَلَى مَتْنٍ جَهَنَّمَ يَعْبُرُهُ السَّالِكُونَ - كَمَا هُوَ رَأْيُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ - وَإِنَّمَا الصِّرَاطُ هُوَ دِينُ اللَّهِ الْحَقُّ الَّذِي تَتَوَقَّفُ نَجَاةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى سُلُوكِهِ بِحَذَقٍ وَحَذَرٍ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سَمَّاهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا فِي قَوْلِهِ تَعْلِيمًا لِعِبَادِهِ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة/٦] ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام/١٥٣] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام/١٦١] .

أَمَّا مَا جَاءَ فِي الرِّوَايَاتِ مِنْ أَنَّ الصِّرَاطَ جِسْرٌ عَلَى مَتْنٍ جَهَنَّمَ يَعْبُرُهُ النَّاسُ ، وَأَنَّهُ أَحَدُ مِنَ السِّتْفِ ، وَأَنَّ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ فِي عُبُورِهِ ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُرُهُ كَالْبَرْقِ وَمِنْهُمْ كَالرَّيْحِ وَمِنْهُمْ كَالْفَارِسِ وَمِنْهُمْ كَالْمَاشِي ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْوِي بِهِمْ فِي النَّارِ ، فَمَا هُوَ إِلَّا تَمَثِيلٌ لِنَفَاوَتِ النَّاسِ فِي اتِّبَاعِ الدِّينِ ، فَمِنْهُمْ الْحَاذِقُ الْمَاهِرُ الَّذِي لَا يُفْطِطُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تُرْدِيهِ شَهَوَاتُهُ فِي جَهَنَّمَ .

وَيَذُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ بِذَلِكَ التَّمَثِيلُ : حَدِيثُ الثَّوَالِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ - وَحَسَنُهُ - وَالْحَاكِمِ - وَصَحَّحَهُ - وَالتَّسَانِيَّ وَابْنُ حَرِيرٍ وَابْنُ الْعَثَرِ وَأَبِي الشَّيْخِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَابْنُ أَبِي حَتَّى فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتَانِ ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرَخَّاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا . وَدَاعٍ يَدْعُو مِنَ فَوْقِ الصِّرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيَحَلْكَ لَا تَفْتَحْ ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلَحَّه . فَالصِّرَاطُ : الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ : حُدُودُ

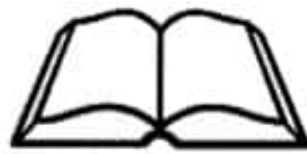
الله ، والأبوابُ المفتحة: محارمُ الله ، وذلك الداعي على رأسِ الصراط: كتابُ الله ، والداعي من فوق: واعظُ الله تعالى في قلبِ كلِّ مسلمٍ . وقد ذكرَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ بعضَ أسانيدِ الحديثِ فقال : وهو إسنادٌ حسنٌ صحيحٌ .

وقولُ المصنّف : «وما الحسابُ بعدَ مثلِ من ذهلاً» يعني : أن الحسابَ هوَ عرضُ أعمالِ الإنسانِ عليه من خيرٍ وشرٍّ وبيانُ المنجى من المهلكِ منها ، وليسَ هوَ بعدَ كعدِّ المخلوقِ الذاهلِ .





الجنة والنار



۲۲. وَأَنَّهُ مَنَ اطَّاعَ اللَّهَ يُدْخِلْهُ
جَنَّاتِهِ أَبَدًا لَا يَنْتَغِي نُقْلًا
۲۳. وَمَنَ عَصَاهُ فِي النَّارِ مَسْكَنُهُ
وَلَمْ يَجِدْ مَفْزَعًا عَنْهَا فَيَنْقِلَا



﴿ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ ﴾

٢٢. وَأَنَّهُ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ يُدْخِلْهُ
 ٢٣. وَمَنْ عَصَاهُ فَفِي النَّارِ مَسْكَنُهُ
 جَنَّتَاهُ أَبَدًا لَا يَتَغَيَّرُ لِقْلًا
 وَلَمْ يَجِدْ مَفْرَعًا عَنْهَا فَيَنْتَقِلًا

يعني : أن الناس مُتَبَايِنٌ مَصِيرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَتَبَايُنِ مَسِيرِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .
 فَمَنْ وَافَاهُ الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَى صِلَاحٍ وَاسْتِقَامَةٍ ثَابِتًا مِنْ سَيِّئَاتِهِ حَرِيصًا عَلَى طَاعَةِ
 رَبِّهِ فَهُوَ رَضِيٌّ عِنْدَ اللَّهِ ، يَفُوزُ مِنْهُ بِحُسْنِ الْجَزَاءِ ، وَهُوَ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ ، يَتَّعَمُ فِيهَا وَلَا يَبْئُوسُ ، وَيَخْلُدُ فِيهَا وَلَا يَمُوتُ ، وَيَبْقَى فِيهَا وَلَا يَخْرُجُ .
 وَمَنْ وَافَاهُ أَجَلُهُ وَهُوَ مُنْهَمَكٌ فِي هَوَاهُ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةِ رَبِّهِ فَإِنَّ مُنْقَلَبَهُ - وَالْعِيَاذُ
 بِاللَّهِ - إِلَى نَارِ حَامِيَةٍ ، شَدِيدِ عَذَابِهَا حَمِيمِ شَرَابِهَا ، لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ نِكَالُهَا ، مَنْ دَخَلَهَا
 خُلِدَ فِيهَا وَلَمْ يَمُتْ ، وَشَقِيَ بِهَا وَلَمْ يَسْتَعِدْ ، وَأَقَامَ بِهَا وَلَمْ يَخْرُجْ .
 وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ
 وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ
 جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا
 مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ [يونس / ٢٦-٢٧] .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بَيَّاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
 تُحْبَرُونَ ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ
 الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ لَكُمْ فِيهَا
 فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ
 وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿ وَنَادُوا يَا مَلِكُ لَبِّقْضِ
 عَلَيْنَا رُبَّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ ﴿ [الزمر / ٦٩-٧٧] .
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ |

الجن / ٢٣ | .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ
 الدِّينِ ﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿ [الانفطار / ١٣-١٦] .
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، وَأَنَّ النَّارَ
 أُعِدَّتْ لِلْمُجْرِمِينَ ، وَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا دَارُ خُلُودٍ وَبَقَاءٍ .
 وَالْمُرَادُ بِـ « الْمَفْزَعِ » : الْمَلْحَأ .





٣ - ١ - ٩

الشفاعة



٢٤. وَمَا الشَّفَاعَةُ إِلَّا لِلتَّقِيِّ كَمَا قَدْ قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهَا وَقَدْ فَصَّلَا



❁ الشفاعة :

٢٤ . وَمَا الشَّفَاعَةُ إِلَّا لِلتَّقِيِّ كَمَا قَدْ قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيهَا وَقَدْ فَصَّلَا

الشفاعة لغة : سعى ذي جاه إلى من يرعاه ويُقدِّره من أجل دفع ضررٍ عن أحدٍ أو تحقيق مصلحة له . مأخوذة من : شفع الفرد ؛ إذا جعل له ثانياً ، لأن الشافع بتأييده للمشفوع له كأنه يضم نفسه إليه فيكون ثانياً له .

واصطلاحاً : درجة يمنحها الله لمن يشاء من عباده يوم القيامة ، فيأذن له أن يطلب لغيره عُفْران ذنب أو رفع درجة أو تعجيل دخول الجنة .

وهي للبيِّن ، وقد تكون لغيرهم كالشهداء ، ولكن الشفاعة العامة هي لرسول الله ﷺ وحده ، فإنه يشفع إلى الله في الموقف العظيم بأن يُعجل لعباده الفرج فيدخل المؤمنين الجنة .

ولست الشفاعة لمن أصرَّ على فحوره ومات على ضلاله ، وإنما هي للتائب من ذنبه ، وهو المراد بالتقي في كلام المصنف ، والدليل على ذلك ما جاء في القرآن من نفى الشفاعة في ذلك اليوم أو نفى نفعها ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَحْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة/ ٤٨] ، وقوله : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَحْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة/ ١٢٣] ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ ﴾ [البقرة/ ٢٥٤] ، وقوله في وصف ملائكته : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء/ ٢٨] ، ومن المعلوم أن الله لا يرتضي الفاسق المصِّرَّ على فسوقه .

فإن قيل : إن الآيتين الأولى من هذه الآيات إنما هما في بني إسرائيل ، لأن الخطاب فيهما لهم ، ولا ينفي ذلك الشفاعة عن غيرهم ؛ قلنا : إن الخطاب وإن كان لبني إسرائيل فإن الوصف إنما هو لذلك اليوم الذي حذروه ، وهو وصف

يَسْتَوِي فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ النَّاسِ ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ الْآيَةَ الثَّالِثَةَ خُوطِبَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ
تَحْذِيرًا لَهُمْ مِنَ التَّشَبُّثِ بِالْأَمَانِيِّ وَالْإِثْكَالِ عَلَى تَيْلِ الشَّفَاعَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَ بَقَبُولِ ثَوْبَةِ التَّائِبِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، فَهُمْ لَيْسُوا بِحَاجَةِ إِلَى
شَفَاعَةِ أَحَدٍ ؛ **قُلْنَا :** إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلَفُ ، وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ أَنَّ ثَوْبَتَهُ بَعِيْنُهُ مَقْبُولَةٌ
أَوْ لَا ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ غُرْضَةً لِلْخَطَا وَالتَّقْصِيرِ ، وَإِنْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ رَفَعَ
بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضِ دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّمَا يَأْذُنُ سُبْحَانَهُ لِمَنْ يَشَاءُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالشَّفَاعَةِ
لِلتَّائِبِينَ فَيَتَقَبَّلُ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ ، وَفِي ذَلِكَ إِظْهَارٌ لِمِزِيَّةِ هَؤُلَاءِ الشَّافِعِينَ وَرَفْعَةِ دَرَجَاتِهِمْ ، كَمَا
أَنَّ فِي ذَلِكَ بَيَانًا لِفَضْلِ اللَّهِ عَلَى التَّائِبِينَ بِأَنْ يَتَقَبَّلَ تَوْبَتَهُمْ .

وَقَدْ حَكَى اللَّهُ دُعَاءَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ حَيْثُ قَالَ : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ
الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ
كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ ﴾ رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿ [غافر/ ٧-٩] . فَهَؤُلَاءِ مَعَ كَوْنِهِمْ تَائِبِينَ مُتَّبِعِينَ لِسَبِيلِ اللَّهِ هُمْ بِحَاجَةِ إِلَى هَذَا
الدُّعَاءِ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ ، وَهَذَا مِنْ جِنْسِ الشَّفَاعَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ الدُّعَاءَ لَيْسَ مُنْحَصِرًا فِي التَّائِبِينَ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ
يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور/ ٥] ؛ **قُلْنَا :** هَذَا مُحْمَلٌ
يُنْتَهَتْ تِلْكَ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ ، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُحْمَلَ يُرَدُّ إِلَى الْمُبِينِ ، وَلَوْ أُخِذَ بِمَا
يَقْتَضِيهِ ذَلِكَ الْإِحْمَالُ - حَسَبَ ظَاهِرِهِ بِعُمُومِ لَفْظِهِ - لَزِمَ أَنْ يَكُونَ دُعَاؤُهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ
شَامِلًا لِلْمُشْرِكِينَ وَالْمَلَاحِدَةِ ، لِأَنَّهُمْ مَعْنَى فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ مُعَارِضٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا
كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ ﴾ [النور/ ١١٣] .



و و و

الورود



٢٥. وَالْمُؤْمِنُونَ عَنِ النَّارِ إِذْ بَعُدُوا وَمَا الْوُرُودُ لَهُمْ بَلْ لِلَّذِي اتَّخَذَ لَا



❁ الورد :

٢٥. وَالْمُؤْمِنُونَ عَنِ النَّارِ قَدْ بَعُدُوا وَمَا الْوُرُودُ لَهُمْ بَلْ لِلَّذِي اخْذَلَا

قَضَى اللَّهُ نَجَاةَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ وَبَعْدَهُمْ عَنْهَا ، وَالْمُرَادُ بِـ «الْمُؤْمِنِينَ» :
الْأَتْقِيَاءُ الْأَوْفِيَاءُ ، فَإِنَّهُمْ مَصُورُونَ مِنْ لَفْجِهَا وَمُزَحَّجُونَ عَنْهَا ، إِذْ هُمْ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ
الْحُسْنَى ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ❁
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ❁ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ
وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء/١٠١-١٠٣] .

أَمَّا الْوُرُودُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا
مَقْضِيًّا ﴾ [مرء/٧١] ؛ فَهُوَ لِأَهْلِهَا لَا لِلَّذِينَ زُحِرُوا عَنْهَا ، لِأَنَّ هَذَا الْخِطَابَ إِنَّمَا هُوَ
لِلَّذِينَ وَصِفُوا مِنْ قَبْلِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ❁
أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ❁ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ
لَنَحْضُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ❁ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَ بَشَرًا ❁
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَ بَشَرًا ❁ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَ بَشَرًا ❁
ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَ بَشَرًا ❁ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَ بَشَرًا ❁
هَذَا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ، وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْفَاتِ ، وَهُوَ مَعَهُودٌ عِنْدَ
الْعَرَبِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ : ﴿ ثُمَّ لَنَنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا
جِثِيًّا ﴾ [مرء/٧٢] ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوُرُودَ لِلْكَلِّ ، وَإِنَّمَا يُنَجَّى الْمُتَّقُونَ مِنْهَا بَعْدَ وَرُودِهَا ،
بِدَلِيلٍ عَظِيمٍ هَذِهِ الْجُمْلَةُ بِـ «ثُمَّ» الَّتِي تَقْتَضِي الْمُهْلَةَ وَالتَّرْتِيبَ .

قُلْنَا : مَنْ وَقَعَ فِي الشَّيْءِ فَهُوَ غَيْرُ مُنَجَّى مِنْهُ ، وَإِنَّمَا التَّنْجِيَةُ قَبْلَ الْوُقُوعِ ،
وَ«ثُمَّ» وَإِنْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الْمُهْلَةِ إِلَّا أَنَّ الْمُهْلَةَ هُنَا لَيْسَتْ زَمَنِيَّةً ، وَإِنَّمَا هِيَ رُبِّيَّةٌ كَمَا
هُوَ شَائِعٌ عِنْدَمَا تُعْطَفُ جُمْلَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَكُ رَقَبَةً ❁ أَوْ
إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ❁ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ❁ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ❁ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ

آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ [البقرة/١٣-١٧] ، فَإِنَّ الْمُهَلَّةَ هُنَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ
تَكُونَ زَمَنِيَّةً ؛ لِضَرُورَةِ كَوْنِ مَنْ أَتَصَفَ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قَبْلَ
فَكَ الرِّقَبَةِ وَالْإِطْعَامِ .

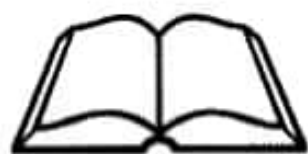
وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ ﴾ [الأعراف/١١] ، مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ سَابِقٌ عَلَى خَلْقِهِمْ
وَتَصَوُّيرِهِمْ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي سُورَتِي الْحَجَرِ وَصَ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ
رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر/٢٩، ص/٧٢] .

وَمِمَّا يُوَكِّدُهُ : مَا فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَاتِ نَفْسَهَا مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ
بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًى ﴾ ، مَعَ أَنَّ عِلْمَهُ بِذَلِكَ أَزَلِّيٌّ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ مَا ذُكِرَ .





الایمان بالملائکة



۲۶. وَأَنَّ لِلَّهِ أَمْلَاکًا وَقَدْ عَصِمُوا وَأَنَّ جَنْسَهُمْ عَنْ جَنْسِنَا فُصِّلَا
۲۷. فَلَا تَصِفُهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِكَ مُطَ * لَقَا سِوَى أَنَّهُمْ خَلَقَ قَدْ امْتَثَلَا



❖ الإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ :

٢٦. وَأَنَّ لِلَّهِ أَمَلَاكًا وَقَدْ عَصَمُوا وَأَنَّ جَنَسَهُمْ عَنْ جَنَسِنَا فَصَلَا
٢٧. فَلَا تُصِفُهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِكَ مُطْ * لَقَا سِوَى اللَّهِ خَلَقَ قَدْ امْتَلَا

مِمَّا يَحِبُّ الْإِيمَانُ بِهِ : مَلَائِكَةُ اللَّهِ ، وَهُمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، يُؤْمِنُ بِوُجُودِهِمْ وَإِنْ لَمْ تُشَاهِدْهُمْ ، وَهُمْ خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ سَخَّرَهُمُ اللَّهُ لِعِبَادَتِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ ، فَهُمْ كَمَا وَصَفَهُمُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٢٠] ، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٢٧] ، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النجم/ ٦] . وَهُمْ مُمَيَّزُونَ عَنْ سَائِرِ الْخَلْقِ بِطَبَائِعِ خَاصَّةٍ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ ، فَهُمْ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ وَلَا يَتَعَبُونَ وَلَا يَنَامُونَ ، وَلَا يُفَرِّزُونَ الْفَضَالَاتِ الطَّبِيعِيَّةَ الَّتِي تُفَرِّزُهَا الْأَجْسَامُ الْآخَرَى .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ ، فَأَجْسَامُهُمْ أَجْسَامٌ لَطِيفَةٌ نُورَانِيَّةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَكَيَّفُونَ فَيَتَمَثَّلُونَ فِي صُورٍ كَصُورِ الْآدَمِيِّينَ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا أَتَى مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم/ ١٧] ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ الْوَحْيِ : « وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ » ، وَقَوْلُهُ فِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَمْ أَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ ؛ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

وَالْإِيمَانُ بِهِمْ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّيِّئَةِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُمْ فِيْمَا يَحِبُّ الْإِيمَانُ بِهِ إِذْ قَالَ : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة/ ١٧٧] ، وَوَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة/ ٢٨٥] . وَنَصَّ حَدِيثُ جِبْرِيلَ فِي الْإِيمَانِ عَلَى وَجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِمْ .

وَبِمَا تَقَدَّمَ يَتَّضِحُ : أَنَّ الْإِيمَانَ بِهِمْ يَقْتَضِي اعْتِقَادَ أَنَّهُمْ مُبَايِنُونَ لِسَائِرِ
 الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تُشَاهِدُهَا فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، لِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَصِفَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ
 صِفَاتِنَا إِلَّا أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ كَمَا خَلَقْنَا ، وَمُتَعَبِّدُونَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَا تُعْبَدُنَا ، وَهَذَا
 يَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُوصَفُونَ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْأُلُوْهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ، إِذْ هُمَا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَحْدَهُ .





الْإِيمَانُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْكِتَابِ



۲۸. وَالْأَنْبِيَاءُ بِهِمْ الْإِيمَانُ يَلْزَمُنَا وَمَا عَلَى كُلِّهِمْ مِنْ كُتُبِهِ نَزَلَا



❁ الإِيمَانُ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْكِتَابِ :

٢٨. وَالْأَنْبِيَاءُ بِهِمُ الْإِيمَانُ يَلْزَمُنَا وَمَا عَلَى كُلِّهِمْ مِنْ كُتْبِهِ نَزَلَا

مِنْ الْإِيمَانِ الرَّاجِبِ : الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ النَّبِيِّينَ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقَةٍ بَيْنَهُمْ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة/ ٢٨٥] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء/ ١٥٠-١٥٢] .

وَمَعْنَى ذَلِكَ : أَنَّ التَّفْرِيقَةَ بَيْنَ رَسُولٍ وَآخَرَ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ تَهْدِمُ الْإِيمَانَ مِنْ أَسَاسِهِ ، وَتَجْعَلُ مِنَ أَصْفِ بِذَلِكَ فِي عَذَابِ الْكَافِرِينَ حَقًّا الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ الْمُهِينِ ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقَةٍ بَيْنَهُمْ يَنْتَظِمُ بِهِ الْمُؤْمِنُ فِي سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ .

وَهَذَا لَا يُنَافِي وَجُوبَ تَعْيِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ بَيْنِهِمْ فِي الْإِيمَانِ ، مَعَ الْاِكْتِفَاءِ بِالْإِيمَانِ الْإِحْمَالِيِّ بِسَائِرِهِمْ إِلَّا مَنْ قَامَتِ الْحُجَّةُ بِمَعْرِفَتِهِ بَعِيْنِهِ ؛ مِمَّنْ نَصَّ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ أَوْ عَرَفَتْ بُيُوتُهُ وَرِسَالَتُهُ بِالتَّوَاتُرِ الْقَطْعِيِّ عَنِ الْمَعْصُومِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ .

وَكَذَلِكَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُتُبٍ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ بِطَرِيقِ الْإِحْمَالِ ، مَا عَدَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الْمُنَزَّلَ عَلَى نَبِيِّنَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ ، فَإِنَّهُ يَجِبُ تَعْيِينُهُ فِي الْإِيمَانِ كَالْإِيمَانِ بِمَنْ نُزِّلَ عَلَيْهِ ، وَكَذَا إِنْ قَامَتِ حُجَّةٌ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفَةِ كِتَابٍ آخَرَ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ يُعَيَّنَ فِي إِيْمَانِهِ ، كَمَا سَلَفَ فِي الْإِيمَانِ بِالْأَنْبِيَاءِ .

هَذَا وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي التَّفْرِيقَةِ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ ، فَقِيلَ لَا تَفْرِيقَةٌ بَيْنَهُمَا ؛ فَكُلُّ نَبِيِّ رَسُولٌ وَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ . وَقِيلَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ ، وَعَلَيْهِ فَالْمَشْهُورُ : أَنَّ النَّبِيَّ أَعَمُّ مِنْ

الرَّسُولِ وَالرَّسُولَ أَخَصُّ مِنْهُ ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ لَا الْعَكْسُ ، ذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ - عِنْدَ هَؤُلَاءِ - مَنْ أُوْحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ سَوَاءٌ أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ أَوْ لَمْ يُؤْمَرْ ، وَالرَّسُولُ : مَنْ أُوْحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ .

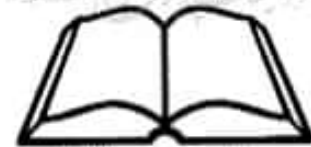




الإيمان بالقرآن

والقول في خلقه

وخلق غيره مما أنزل على النبيين



وَلَيْسَ مِنْهَا قَدِيمٌ يُحْتَوَى الْأَزَلَا
فِيمَا يَشَاءُ ، فَلَا تُصْغُوا لِمَنْ عَذَلَا

٢٩. وَبِالْقُرْآنِ خُصُوصًا بَعْدَ حُمْلَتِهَا
٣٠. بَلْ كُلُّهَا خَلَقَ الْبَارِي وَكَوْنُهُ



❁ الإيمان بالقرآن والقول في خلقه وخلق غيره مما أنزل على النبيين:

٢٩. وبالقرآن خصوصاً بعد جملة ما
٣٠. بل كلها خلق الباري وكونه
وليس منها قديم يحتوي الأزل
فيما يشاء ، فلا تصفوا لمن عدلاً

تقدم وجوب تمييز القرآن بتعيينه في الإيمان من بين سائر الكتب ، ذلك لأننا متعبدون باتباع ما احتواه أمراً ونهيًا ، إذ هو التاسخ لما تقدمه ، فكان هذا التعيين أمراً ضرورياً لانتظام حياتنا الإيمانية والعملية حسبما نعبدها ، فلا يسع أحدا جهل القرآن ، وهو : الكتاب المنزل على نبينا ﷺ للتحدي والإعجاز المنقول عنه بالتواتر القطعي .

وقول المصنف - رحمه الله - : «وليس منها قديم يحتوي الأزل» فيه تبيان لمقولة الحق في القرآن وما أنزل الله سبحانه وتعالى من كتبه على أنبيائه ورسله ، فإنه مما يتجلى للأذهان بدهة أن هذه الكتب كلها كائنة بعد أن لم تكن ، فهي حادثة ، وحدوثها يؤذن بمخلوقيتها ، إذ كل حادث لا بد له من محدث أحدثه ، وإلا لحاز حدوث الحوادث بنفسها ، وذلك عين المحال ، لأنه يقضي ببطلان الألوهية .

ومما لا يعاري فيه ذو لب : أن هذه الكتب جميعاً هي مبينة لذات الله العلية ، فليس من المستساع عقلاً أنها هي عين ذاته ﷻ ، ولا أنها جزء من ذاته ، وكما يستحيل كونها جميعاً كذلك يستحيل اتصاف بعضها بهذه الصفة ، ولئن ثبت أنها غير ذاته تعالى تعين كونها مخلوقة له ﷻ ، إذ كل ما سواه فقد خلقه ، بمعنى أخرجه من العدم إلى الوجود ، قال تعالى : ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام/ ١٠٢] ، وقال : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان/ ٢] . ولا ريب أن تلكم الكتب من جملة الأشياء ، وإلا لما كان معنى للإيمان بها .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَاتِهِ فَإِنَّهَا مِنْ صِفَاتِهِ ، وَصِفَاتُ اللَّهِ أَزَلِيَّةٌ ،
لأنَّهُ لَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا فِي الْأَزَلِ لَانْتَصَفَ بِأَضْدَادِهَا ؛ قُلْنَا : لَيْسَتْ هِيَ مِنْ صِفَاتِهِ ،
وإنَّما هِيَ مِنْ آثَارِ صِفَاتِهِ ، إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ تَتَفَصَّلَ الصِّفَةُ عَنْهُ هُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا ، وَأَنْ
تَكُونَ حَالَةً فِي غَيْرِهِ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ الَّذِي هُوَ أَهْمُ هَذِهِ الْكُتُبِ بِأَلْفِ
قَائِمٍ بِغَيْرِهِ تَعَالَى مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، فَقَدْ قَالَ : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿ فِي لَوْحٍ
مَحْفُوظٍ ﴿ | البروج/ ٢١-٢٢ | ، وَقَالَ : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ
أَوْثَرُوا الْعِلْمَ ﴿ | العنكبوت/ ٤٩ | .

وإنَّما قُلْنَا بِأَنَّهَا مِنْ آثَارِ صِفَاتِهِ ، لِأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ إِلَّا بِقُدْرَتِهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ ، كَمَا
أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْرَهَا إِنَّهَا هِيَ آثَارٌ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا وَأَبْدَعَ خَلْقَهَا بِعِلْمِهِ
وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيتِهِ ، وَلَا يَحُوزُ أَنْ يُوصَفَ شَيْءٌ مِنْهَا بِالْأَزَلِيَّةِ وَالْقَدَمِ ، أَوْ يُنْفَى عَنْهُ كَوْنُهُ
مَخْلُوقًا لِلَّهِ تَعَالَى .

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ مِنْ كَلَامِهِ حَيْثُ قَالَ : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى
يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴿ | التوبة/ ٦ | ، وَالْكَلَامُ صِفَةُ أَزَلِيَّةٌ لِلَّهِ يُرَادُ بِهَا تَقْيُّ الْخَرَسِ ، كَمَا يُنْفَى
بِالْعِلْمِ الْجَهْلُ ، وَبِالْقُدْرَةِ الْعَجْزُ ، وَبِالْحَيَاةِ الْمَوْتُ ؛ قُلْنَا : لِلْكَلَامِ مَعْنَيَانِ :
﴿ أَحَدُهُمَا : الْقُدْرَةُ عَلَى الْقَوْلِ ، كَمَا أَنَّ ضِدَّهُ الَّذِي هُوَ الْخَرَسُ عَجْزٌ عَنْهُ .

﴿ ثَانِيَهُمَا : أَثَرُ هَذِهِ الصِّفَةِ ، وَهُوَ مَا يَحْدُثُ مِمَّا يُعَدُّ قَوْلًا ، وَالتَّخْلِيطُ بَيْنَهُمَا
كَالتَّخْلِيطِ بَيْنَ الْقُدْرَةِ وَالْمَقْدُورِ عَلَيْهِ ، وَالْعِلْمِ وَالْمَعْلُومِ ، وَالْبَصَرِ وَالْمُبْصَرِ ، وَالسَّمْعِ
وَالْمَسْمُوعِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ضَرُورِيٌّ .

هذا ؛ وَقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ الْكَثِيرَةُ عَلَى خَلْقِ الْقُرْآنِ ؛

◆ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَهُ بِأَنَّهُ مُخْدَتٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ
مُخْدَتٌ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿ | الأنبياء/ ٢ | وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ
الرَّحْمَنِ مُخْدَتٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿ | الشعراء/ ٥ | . وَالذِّكْرُ هُنَا بِمَعْنَى الْقُرْآنِ لِدَلَالَةِ
كَثِيرٍ مِنَ النُّصُوصِ عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿

[المحر/٩] ، وقوله : ﴿ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء/٥٠] ، وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل/٤٤] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ [طه/١٢٤] . ولا ريب أن المحدث يستحيل قدمه ، لأن الحدوث والقدم صفتان متضادتان ، فالمحدث : ما كان بعد أن لم يكن ، ولا بد له من محدث أخذته .

♦ ومن تلك التخصيص قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزحرف/٣] وقوله : ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى/٥٢] . فإن الجعل هنا بمعنى التصيير ، وتصييره قرآناً عربياً ونوراً يهتدى به إما أن يكون : بخلقه من أول الأمر متصفاً بهاتين الصفتين ، أو بنقله إليهما من غيرهما ، بحيث إنه لم يكن من قبل عربياً فحوّله الله إلى عربى ، ولم يكن من قبل نوراً فحوّله الله إلى نور ، وكلا الأمرين ذال على خلقه ، فإن ما حوّل من وصف إلى آخر يتعذر أن يكون قديماً ، على أن الأول هو المتعين ، إذ لا دليل على أنه كان غير عربى فصيره الله عربياً ، أو لم يكن من قبل نوراً ثم صيره الله كذلك .

♦ ومنها قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود/١] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [الأعراف/٥٢] . فإن الإحكام والتفصيل كل منهما فعل لله تعالى وقع به ، وذلك يقتضي أن يكون أبدعه الله تعالى من أول الأمر مُحْكَمًا مُفَصَّلًا ، أو أنه حوّله إلى الإحكام والتفصيل بعد أن كان مُتَّصِفًا بِخِلَافِهِمَا ، وكلا الأمرين ذال على حدوثه كما سبق ، والأول هو المتعين منهما دون الثاني .

♦ ومنها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران/٧] . وموضع الدليل فيه : انقسامه إلى مُحْكَمٍ ومُتَّشَبِهٍ ، والانقسام لا يكون إلا في الحادث .

فإن قيل : استدَلَّ بعضُ القائلين بِعَدَمِ خَلْقِهِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اِمْتَنَّ عَلَيْنَا فِي مواضعَ شَتَّى بآئِهِ مُنْزَلٌ مِنْهُ ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان/ ٣] ، وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر/ ١] ، وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ [النحل/ ٤٤] ، وقوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص/ ٢٩] ، وقوله : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ [الأنبياء/ ٥٠] ، حتَّى أن بعضَ هؤلاءِ قال بِقَطْعِيَّةِ كُفْرِ مَنْ قَالَ بِخَلْقِهِ لِأَجْلِ هَذِهِ النُّصُوصِ .

قُلْنَا : إنَّ وَصْفَهُ بِالْإِنْزَالِ لَا يَتَنَافَى مَعَ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى خَلْقِهِ ، لِأَنَّ الْإِنْزَالَ نَقْلٌ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، وَهِيَ حَالَةٌ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْمَخْلُوقِ . عَلَى أَنَّ الَّذِينَ اسْتَدَلُّوا بِإِنْزَالِهِ عَلَى عَدَمِ خَلْقِهِ - حتَّى قالوا بِكُفْرِ مَنْ قَالَ بِخَلْقِهِ لِذَلِكَ - يَلْزِمُهُمُ الْقَوْلُ بِعَدَمِ خَلْقِ الْمَاءِ وَالْحَدِيدِ وَنَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ كُلًّا مِنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ مُنْزَلٌ ، حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان/ ٤٨] ، وقال : ﴿ وَيُنَزَّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهَّرَ كُفْرُكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال/ ١١] ، وقال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد/ ٢٥] ، وقال : ﴿ وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر/ ٦] ، فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولُوا فِي ذَلِكَ ؟!

وَبِالْحُمْلَةِ فَإِنَّ أَدْلَةَ خَلْقِ الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ ، وَمَنْ شَاءَ الْعَزِيدَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ «الْحَقِّ الدَّامِغِ» ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .



الإيمان بالقضاء والقدر



وَأَنَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِنَا حُلَّالًا
وَعِلْمُهُ سَابِقُ فِي كُلِّ مَا جَعَلَا
فَالْخَلْقُ لِلَّهِ وَالْكَسْبُ لِمَنْ فَعَلَا

٣١. وَبِالْقَضَا وَبِمَا الرَّحْمَنُ قَدْرُهُ
٣٢. لَكِنَّهُ لَا يَخْبِرُ كَانَ مِنْهُ لَنَا
٣٣. وَإِنَّمَا الْفِعْلُ مَخْلُوقٌ وَمُكْتَسَبٌ



الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ [الكهف/١٧] ، وَيَقُولُ : ﴿ وَمَا تَشَاوُونَ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإسراء/٣٠] ، وَيَقُولُ : ﴿ فَمَنْ يُرِيدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشُرْ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ
يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام/١٢٥] .

وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَقْتَضِيهِ أدلة العقل ، فَإِنَّهُ لَوْ نَفَذَ فِي هَذَا الْكَوْنِ غَيْرُ مُرَادِ اللَّهِ
لَكَانَتْ إِرَادَةُ غَيْرِهِ تَعَالَى غَالِبَةً عَلَى إِرَادَتِهِ ، وَهُوَ عَيْنُ الْمَحَالِ ، وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا أَثَرَ
لِإِرَادَةِ الْإِنْسَانِ فِي فِعْلِهِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ جَانِبُ الْكَسْبِ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا الْخَلْقُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى ، وَلَيْسَ اكْتِسَابُهُ لِمَا يَكْتَسِبُ أَمْرًا اضْطِرَّارِيًّا ، فَإِنَّمَا يَكْتَسِبُ مَا تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ
إِرَادَتُهُ ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُدْرِكُ الْفَرْقَ بَيْنَ مَا يَقَعُ عَلَى الْإِنْسَانِ اضْطِرَّارِيًّا وَمَا يَحْدُثُ لَهُ
اخْتِيَارًا ، فَحَرَكَتُهُ الْاضْطِرَّارِيَّةُ كَالرَّغْشَةِ وَالتَّبْضِ وَغَيْرِهِمَا هِيَ غَيْرُ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تُكُونُ
بِتَحْرِيكِ مَقْصُودٍ مِنَ الْإِنْسَانِ ، كَحَرَكَاتِ الْمَشْيِ الْاخْتِيَارِيِّ وَتَنَاوُلِهِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ ،
وَدَفْعِهِ مَا يُرِيدُ دَفْعَهُ وَأَخْذِهِ مَا يُرِيدُ أَخْذَهُ .

هَذَا ؛ وَقَدْ وَقَفَ النَّاسُ مَوَاقِفَ مُتَبَايِنَةٍ فِي أَمْرِ الْقَدَرِ :

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَفْرَطَ فِي إِبْتِائِهِ ؛ وَهُمْ الْجَهْمِيَّةُ الَّذِينَ قَالُوا لَا فِعْلَ لِلْإِنْسَانِ وَلَا
إِرَادَةَ ، وَجَعَلُوا كُلَّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ كَالْأُمُورِ الْجَبَلِيَّةِ الْاضْطِرَّارِيَّةِ ، وَمَثَّلُوا
الْإِنْسَانَ بِالْخَيْطِ الَّذِي تُقَلِّبُهُ الرِّيحُ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَّطَ فِي ذَلِكَ ؛ وَهُمْ الْمُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ نَفَوْا أَثَرَ الْإِرَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي فِعْلِ
الْعَبْدِ ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِإِيْجَادِ فِعْلِهِ اسْتِقْلَالًا تَامًا .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ وَقَفَ بَيْنَ الْمَوْقِفَيْنِ ، وَقَالَ بَأَنَّ لِلْإِنْسَانَ مِنْ فِعْلِهِ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا
جَانِبَ الْكَسْبِ دُونَ الْخَلْقِ ، وَأَنَّهُ عَلَى كَسْبِهِ يَتَرْتَّبُ ثَوَابُهُ أَوْ عِقَابُهُ ، أَمَّا الْخَلْقُ فَاللَّهُ تَعَالَى
وَخَدُّهُ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَنْدَرِجُ فِي ذَلِكَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ ، فَإِنَّهَا مِنْ بَيْنِ الْأَشْيَاءِ الدَّاحِلَةِ
فِي عُمُومِ ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

وذلك لا يُنافي أن ما يأتي به الإنسان مُتَّبِينٌ حُكْمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَحَكْمُهُ مِنْهُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَمِنْهُ مَا يَكْرَهُهُ ، فَالْخَيْرُ مُحِبُّوبٌ لَهُ تَعَالَى وَالشَّرُّ بَغِيضٌ إِلَيْهِ ، وَإِنَّمَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ وَحَكْمُهُ أَنْ يَهْدِيَ مَنْ شَاءَ لِفِعْلِ الْخَيْرِ وَأَنْ يَخْذُلَ مَنْ شَاءَ فَيَقْعُ فِي مَهَاوِي الشَّرِّ .

وَمَنْ أَتَى خَيْرًا أَوْ شَرًّا فَهُوَ مُخْتَارٌ فِي فِعْلِهِ ، غَيْرُ مُكْرَهٍ عَلَى ارْتِكَابِ أَيِّ مِنْهُمَا ، وَإِنَّمَا سَبَقَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى - وَهُوَ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ - بِمَا يَخْتَارُ مِنْهُمَا ، فَجَرَى بِذَلِكَ قَلَمُ قَضَائِهِ فِي الْأَزَلِ ، وَلَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَا مُعْقَبَ لِحُكْمِهِ ، فَلِذَلِكَ يُمَكِّنُهُ اللَّهُ مِنْ فِعْلِ مَا يَخْتَارُهُ عِنْدَمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ إِرَادَتُهُ ، وَيَخْلُقُهُ لَهُ لِيَكْتَسِبَهُ إِنْ أَرَادَ تَعَالَى وَقُوعَ ذَلِكَ مِنْهُ ، وَقَدْ لَا يُرِيدُ وَقُوعَهُ فَيَحْضُرُ لَهُ مِنَ الْمَوَانِعِ مَا يَصْرِفُهُ عَنْهُ ، وَهُوَ مُشَاهِدٌ فِيمَا يَقَعُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ .

وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْمَهْيِيعُ الْحَقُّ ، وَبِهِ يَجْتَمِعُ شَمْلُ الْأَدْلَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي قَدْ تَبَدُّو دَلَالَتُهَا - بِأَدْيِ الرَّأْيِ - مُتَّبِينَةٌ ، وَقَدْ تَعَلَّقَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُتَّبِائَتَيْنِ بِطَرْفٍ مِنْهَا مَعَ إِهْمَالِهِ لِلطَّرْفِ الْآخَرِ .

● فَالَّذِينَ عَزَّوْا أَعْمَالَ الْعَبْدِ إِلَى اللَّهِ وَلَمْ يَجْعَلُوا لِلْعَبْدِ فِيهَا كَسْبًا تَشَبَّهُوا بِنَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف/ ١٧] وَقَوْلِهِ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة/ ٢٧٢] وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة/ ٥٦] وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان/ ٣٠] وَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي ﴾ وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴾ [النجم/ ٤٣-٤٤] ، وَذَلِكَ أَنَّ الضَّحْكَ وَالْبُكَاءَ يَصُدُّرَانِ مِنَ الْعَبْدِ فَهُمَا مِنْ فِعْلِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَسْتَدَّ هُمَا إِلَيْهِ عِنْدَمَا بَيَّنَّ أَنَّ هُوَ يُضْحِكُهُ وَيُبْكِيهِ ، كَمَا أَنَّ هُوَ الَّذِي يُمِيتُهُ وَيُحْيِيهِ ، وَلَا أَثَرَ لِفِعْلِ الْعَبْدِ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ ، فَكَذَلِكَ لَا أَثَرَ لَهُ فِي الضَّحْكَ وَالْبُكَاءِ . وَيَقُولُهُ : ﴿ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد/ ٣١] وَيَقُولُهُ : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام/ ١٤٩] وَقَوْلُهُ فِي الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء/ ٧٨] .

• والذين نفوا القدرَ وجعلوا العبدَ مُستقلاً في إيجادِ فعله تشبثوا بالآياتِ التي
تُعزِّو الأفعالَ إلى العبادِ ، وتنفي أن يكونَ اللهَ الحاحمُ إليها ، كقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام/ ١٤٨] وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا
مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [الحمل/ ٣٥] وقال في استحقاقهم العقاب :
﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ال عمران/ ١٨٢] وقوله : ﴿ وَمَا
أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء/ ٧٩] وقوله : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴾
[الطور/ ٢١] وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [الحج/ ١٠] .

• أمَّا الذين أنسبوا اللهَ تعالى الخلقَ وللعبدِ المخلوقِ الكسبَ فإنهم تعلَّقوا
بالنظرِ في هذه الآياتِ جميعاً ، ففهموا أن ما كان مُستنداً إلى الله فإستادهُ إليه لأنه خالقُه
ومُقدِّره ، وما كان مُستنداً إلى العباد فإستادهُ إليهم من أجل احتسابهم إيَّاه ، ولم يكن
هذا الكسبُ بإكرامٍ منه تعالى ، وإنما اختارَ من شاءَ منهم الخيرَ ومن شاءَ الشرَّ ، وكلُّ
ميسرٍ لما خلقَ له .

وقد علمَ الله في الأزلِ ما يكونُ من اختيارِ كلِّ لنفسٍ ، وجاءَ الخلقُ الذي هو من
فعلِ الله مقروناً باختيارِ العبدِ المُكتسبِ لبتائي له الكسبُ ، ليهلكَ من هلكَ عن بَيِّنَةٍ
ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، ولا يعني هذا أن لاختيارِ الإنسان أثراً في فعلِ الله تعالى ، فإنَّ
اللهَ يفعلُ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ ، وإنما ذلكَ عندما يريدُ الله سبحانه أن تُنفذَ مشيئةُ
العبدِ بكسبه الخيرَ أو الشرَّ ، وقد تكونُ مشيئتهُ تعالى خلافَ ذلكَ ، فلا يَقَعُ إلا ما شاءَ ،
ويَحُولُ بينَ العبدِ وبينَ مشيئتهُ ، فيصدُّه عن الشرِّ الذي اختاره ، أو يَحُولُ بينَهُ وبينَ
الخيرِ .

وَفِي ذَلِكَ رَحْمَةٌ وَابْتِلَاءٌ ، إِذْ لَعَلَّهُ عِنْدَمَا يُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا كَانَ يُتَوَقَّعُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ يَرْوِبُ إِلَيْهِ رُشْدُهُ وَيَنْشِئُ عَنْ اخْتِيَارِهِ السَّابِقِ ، وَلَعَلَّهُ إِنْ اخْتَارَ الْخَيْرَ وَصَرَفَهُ عَنْ فِعْلِهِ صَارَفَ يَتَقَى مُتَعَلِّقًا بِهِ مُتَحَسِّرًا عَلَى قَوَاتِهِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِكَسْبِ مَزِيدٍ مِنَ الْخَيْرِ ، وَقَدْ تَكُونُ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنْ يَنْشِئَ عَنْ قَصْدِ الْخَيْرِ مُخْتَارًا بِنَفْسِهِ ، فَيَتَرَدَّى وَيَهْلِكُ - وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ - ، وَفِي كِلَا الْأُمْرَيْنِ حِكْمَةٌ بِالْعَقَّةِ تَقْصُرُ دُونَهَا مَذَارِكُ الْعِبَادِ ، وَبِهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَتَضَحُّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان/ ٣٠] .

وَمَا الْقَدَرُ إِلَّا سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ غَيْبِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلِذَلِكَ مُنْعَمًا مِنْ إِغْرَاقِ النَّظَرِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُوقِنَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُؤَاخِذُ عَبْدَهُ إِلَّا بِفِعْلِهِ ، فَالْعُقُوبَةُ عَلَى أَفْعَالِ الشَّرِّ إِنَّمَا هِيَ عَلَى اكْتِسَابِ الْعَبْدِ لَهَا ، لَا عَلَى خَلْقِهِ تَعَالَى إِبَاهَا ، وَمِثْلُ ذَلِكَ ثَوَابُ أَعْمَالِ الْخَيْرِ .

وَنَفَاةُ الْكَسْبِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ الْمُتَرَتِّبَيْنِ عَلَى أَفْعَالِ الْعِبَادِ إِنَّمَا هُمَا بِسَبَبِ مَا كَانَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ إِجْحَادِ الْخَيْرِ أَوْ ضِدِّهِ عَلَى يَدِ الْعَبْدِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ فِي ذَلِكَ كَسْبٌ ، وَهُوَ عَيْنُ الْمُحَالِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَبْرُّ وَأَرْحَمُ مِنْ أَنْ يُجَازِيَ عَبْدًا عَلَى مَا لَا اخْتِيَارَ لَهُ فِيهِ وَلَا كَسْبَ .

وَقَوْلُهُمْ هَذَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ بَطْلَانُ الْأَمْرِ وَالتَّهْيِي وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ ، مَا دَامَ مَنْ كَانَ مَقْصُودًا بِذَلِكَ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ وَلَا كَسْبٌ ، وَفِيهِ مَا لَا يَخْفَى مِنْ تَعْطِيلِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي نِظَامِ الْوُجُودِ .



ذِكْرُ الْإِيمَانِ

وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ



❖ قواعد الدين

❖ أركان الدين

❖ مسالك الدين

❖ فرائض الدين

❖ حرمات الدين

❖ الولاية والبراءة







ذِكْرُ الْإِيمَانِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ



۳۴. إِيْمَانُنَا الْقَوْلُ وَالتَّصْدِيقُ مَعَ عَمَلٍ فَالْقَوْلُ مَرٌّ فَصَدَّقَهُ وَكُنْ عَمَلًا
۳۵. بِمَا عَلَيْكَ مِنَ الْإِيْمَانِ مُفْتَرَضٌ وَالتَّغْلُ إِن تَسْتَطِيعَ فافْعَلْهُ مُبْتَهَلًا



❁ ذِكْرُ الْإِيمَانِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ :

٣٤. إِيْمَانُنَا الْقَوْلُ وَالتَّصْدِيقُ مَعَ عَمَلٍ
٣٥. بِمَا عَلَيْكَ مِنَ الْإِيْمَانِ مُفْتَرَضٌ
فَالْقَوْلُ مَرَّةً فَصَدَّقَهُ وَكُنْ عَمَلًا
وَالنَّفْلُ إِنْ تَسْتَطِيعَ فافْعَلْهُ مُبْتَهِلًا

«الإِيْمَانُ» لُغَةً : هو التصديق ، كما قال تعالى حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ
لِأَبِيهِمْ : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف / ١٧] ، فَأَلْهِمُ أَرَادُوا بِهِ آلَهُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ لَهُمْ .
وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْأَمْنِ ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ - أَي : الْمُصَدِّقَ - بِتَصْدِيقِهِ لِمُحَدِّثِهِ جَعَلَهُ فِي مَأْمَنِ مِنْ
تَكْذِيبِهِ إِيَّاهُ .

وَهُوَ شَرْعًا : تصديق بالغيب الذي جَاءَتْ بِهِ رِسَالَاتُ اللَّهِ . وَقَدْ جَمَعَ أَصُولُ
ذَلِكَ حَدِيثُ حَبِيبِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ إِذْ جَاءَ تَفْسِيرُ الْإِيْمَانِ فِيهِ : « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَبْرَهُ وَشَرَّهُ مِنَ اللَّهِ » .

عَلَى أَنَّ هَذَا التَّصْدِيقَ الْمَطْلُوبَ شَرْعًا يَهْدِيهِ الْحَقَائِقُ الْعَيْيَّةُ لَيْسَ تَصْدِيقًا ذَهْنِيًّا
فَحَسْبُ ؛ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ لَهُ أَثَرٌ عَلَى أَعْمَالِ الْمُصَدِّقِ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَصْدِيقٌ يَتَغَلَّغُلُ فِي
أَعْمَاقِ النَّفْسِ ، حَتَّى تَتَفَاعَلَ مَعَهُ تَفَاعُلًا تَامًّا فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْفِعْلِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْأَخْلَاقِ
وَالسُّلُوكِ ، بِحَيْثُ تَتَجَاوَبُ حَيَاةُ الْمُؤْمِنِ كُلُّهَا مَعَ إِيْمَانِهِ تَجَاوُبًا تَامًّا ، فَيَتَحَسَّدُ إِيْمَانَهُ فِي
جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَجَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ تَحَسُّدًا تَامًّا يَتَرَأَى لِلنَّاطِقِينَ .

وَأَقْوَى شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ وَأَبْلَغُ تَعْبِيرٍ عَنْهُ مَا نَحَدُّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ أَوْصَافِ
الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴾ [الْأَنْفَالُ / ٢-٤] ، فَقَدْ حَصَرَ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا
فِي هَذَا الصَّنَفِ مِنَ النَّاسِ ، إِذْ جَاءَ فِي أَوَّلِ وَصْفِهِمْ بِأَدَاةِ الْحَصْرِ وَهِيَ «إِنَّمَا» ، ثُمَّ أَكَّدَهُ

آخراً بتعريف المُسْتَدِّ والمُسْتَدِّ إليه وتوسيطِ ضميرِ الفصلِ بينهما في قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ والذين هم للزكاة فاعلون ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿ [المؤمنون / ١- ١١] .

وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [المحررات / ١٥] .

وتضافرت الروايات الكثيرة عن النبي ﷺ على تأكيد هذا المعنى ، فقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ؛ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ » ، وقال ﷺ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ، وفي رواية : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ » .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » ، وجاء عنه : « وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ . وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ . وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ » . قيل : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : « مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ » .

وبين صلوات الله وسلامه عليه شمول الإيمان للعقيدة والقول والأعمال والأخلاق في قوله : « الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، أَعْلَاهَا كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » ، فقد دخل القول والاعتقاد في كَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فإنها كلمة الحق التي يطالب بها الإنسان ، وهي أصدق ما يُقال ،

ولا اعتدادَ بها إلا عندما تكون عقيدةً راسخةً في النفس ، ورَمَزَ إلى العملِ بِذِكْرِ إماطة الأذى عن الطريق ، وإلى الأخلاقِ بقوله : « والحياةُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » . والعَدَدُ ليس للحصر ، فقد جاءَ في روايةٍ « يَضَعُ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً » ، ومعنى ذلك أن كلَّ بِرٍّ يندرجُ تحت الإيمان .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ قَضِيَّةٍ إِيمَانِيَّةٍ تَرَسَّخُ فِي النَّفْسِ حَتَّى تَتَغَلَّغَلَ فِي أَعْمَاقِهَا وَتَمْتَرِجَ بِمَشَاعِرِهَا وَأَحَاسِيسِهَا لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَفَاعَلَ مَعَهَا النَّفْسُ وَتَتَجَاوَبَ حَرَكَاتُهَا وَفَقْرُ مُقْتَضَاهَا .

❖ فالإيمان بالله هو إيمانٌ بِمَنْ خَلَقَ فَسَوَى ، وَقَدَّرَ فَهَدَى ، وَلَهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ، وَاهْبِ الْحَيَاةَ وَمُفِضِ النِّعَمِ ، الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَالْعَلِيمِ بِكُلِّ أَمْرٍ ، الَّذِي مِنْهُ الْمُبْدَأُ وَإِلَيْهِ الْمُتَقَلَّبُ . وَرُسُوحُ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ فِي النَّفْسِ دَافِعٌ لَهَا إِلَى الطَّاعَةِ الْمُطْلَقَةِ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بِحَيْثُ يَحْرِصُ الْمُؤْمِنُ عَلَى أَنْ لَا يَفْقِدَهُ اللَّهُ حَيْثُ أَمَرَهُ ، وَأَنْ لَا يَجِدَهُ حَيْثُ نَهَاَهُ .

❖ وَالْإِيمَانُ بِمَلَائِكَتِهِ هُوَ تَصْدِيقٌ بِعَالَمٍ غَيْبِيٍّ أُوتِيَ مِنَ الْقُوَى مَا لَا يَدْخُلُ فِي حُسْبَانِ الْإِنْسَانِ ، وَمَعَ قُوَّتِهِ تِلْكَ لَمْ يَحْمِ حَوْلَهُ الْغُرُورُ ، فَهُوَ لَا يَفْتَأُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَلَا يَنْفَلِتُ عَنْ طَاعَتِهِ وَلَا يَعْزُبُ عَنْ خَشْيَتِهِ ، وَإِنْ مِمَّا سُوَّخَّرَ لَهُ هَذَا الْعَالَمُ مُرَاقِبَةَ الْإِنْسَانِ وَكُتِبَ أَعْمَالُهُ وَالشَّهَادَةُ عَلَيْهِ بِمَا قَدَّمَ وَمَا أَخَّرَ ؛ ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [١٨/٣] ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام/ ١٠-١٢] ، وَرُسُوحُ هَذَا الْإِيمَانِ يَبْعَثُ عَلَى الطَّاعَةِ وَيَقِي مِنَ التَّرَدِّي إِلَى مَهَاوِي الْعَصْيَانِ .

❖ وَالْإِيمَانُ بِكُتُبِهِ هُوَ إِيمَانٌ بِنِظَامِ اللَّهِ التَّشْرِيعِيِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ ، وَالتَّفَاعُلُ مَعَهُ إِذَا هُوَ بِالْأَتْبَاعِ التَّامِّ لِهَذَا الْمُتَنَزِّلِ ، وَالْعَمَلُ الْمُطْلَقُ بِمَا اقْتَضَاهُ مِنْ أَوْامِرٍ وَنَوَاهِي ، وَالانضِبَاطُ بِخُدُودِهِ وَمَرَامِهِ .

◊ والإيمان برسوله هو الإيمان بصفوته ممن خلق ، أرسلهم الله مبشرين ومنذرين ، واختصهم بأن جعلهم وعاء لهدايته ومشرقاً لنوره ، وميزهم بأن رفعهم على غيرهم درجات ، وهذا الإيمان إذا ما امتزج بمشاعر النفس قادها إلى حسن التأسي بأولئك المرسلين واتباع هداهم وتجنب ما حاثته .

◊ والإيمان باليوم الآخر هو إيمان بالقلب الذي لا مفر لأحد منه ، وفيه يحزى كل أحد بما كسب ؛ ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصل ٤٦] على أن الجزاء في ذلك اليوم مبين لكل ما يكون من جزاء في الدنيا ، إذ لا ينقطع خيره ولا شره ، وكل منهما أعظم من أن تكتفه البصائر أو يرثسم في ألواح الخيال ، فلذلك كان منشأ للصالح والاستقامة وينبوعاً للهداية والفضائل .

ولذلك كثيراً ما يقترن بالإيمان بالله في النصوص القرآنية والنبوية في مقام الدعوة أو التحذير ، كما في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [البقرة/ ٢٣٢] ، وقوله : ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب/ ٢١] . وكما في قوله ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ » ، وقوله : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » .

◊ والإيمان بقضاء الله وقدره ينشأ عنه التسليم لأمر الله والرضا بصروف قضائه . وبالجملة فإن الإيمان المطلوب من المرء ليس أمراً نظرياً فحسب ، وإنما هو عقيدة ينبثق منها منهج رباني يشمل جميع تصرفات الإنسان فعلاً وتركاً .

والمراد بـ «القول الإيمانى» - في قول المصنف - : الشهاداتتان ، كما دل عليه حديث « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ » .

والمراد بـ «التصديق» : هو التصديق بمضمونها جملة وتفسيراً ، وقد سبق أن الإنسان إنما يتعبد بالجملة أولاً ، وعندما تقوم عليه الحجة بتفسيرها الاعتقادي أو شيء منه يجب عليه الإتيان بما قامت به الحجة عليه ، ولا اعتبار للقول وحده ، فإن من جاء بالقول من غير تصديق كان منافقاً نفاقاً اعتقادياً ، ومعنى ذلك أنه في باطنه حكمه

حكمُ المُشركين ، وإن أُجْرِيتْ عليه أحكامُ الإسلام بحَسَبِ ما أتى به في الظاهر من القول والعمل .

ومُرَادُهُ بِـ «الْعَمَلِ» : الإتيانُ بالفرائض مع اجتنابِ المَحَارِم ، مع الترغيب في الإتيان بالمقدور عليه من المندوبات ، وهو المرادُ بقوله : «وَكُنْ عَمَلًا» .

٣٥ . بِمَا عَلَيْكَ مِنَ الْإِيمَانِ مُفْتَرَضٌ وَالنَّفْلُ إِنْ تَسْتَطِعَ فافْعَلْهُ مُبْتَهِلًا

أي : متضرعًا إلى الله بأن يتقبله منك .

وقوله : «فَالْقَوْلُ مَرٌّ» يعني ما سبق ذكره في الجمل الثلاث .

هذا وقد سبق أن لِحُمْلَةَ التوحيد تفسيرًا عَمَلِيًّا ، كما أن لها تفسيرًا اعتقاديًا ،

والتفسيرُ العَمَلِي هو العمل الذي يندرج في مضمون الإيمان الشرعي كما أوضحناه .

فإن قيل : إذا كان الإيمان يشمل القول والعمل والاعتقاد ؛ فما الفرقُ بينه

وبين الإسلام ؟ قلنا : هُمَا مُخْتَلِفَانِ مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ اللُّغَوِيَّةُ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ لُغَةً هُوَ

التصديق كما مرَّ ، وَالْإِسْلَامَ لُغَةً بِمَعْنَى الانقياد ، أَمَّا مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ الشَّرْعِيَّةُ فَإِنَّ

مُؤَدَّاهُمَا وَاحِدٌ ، وَلِذَلِكَ يُوصَفُ الْمُسْلِمُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنُ بِالْمُسْلِمِ ، كما في قوله تعالى :

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ نَبَاتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[الذاريات/٣٥-٣٦] .

ولكن قد يُلْحَظُ فِيهِمَا أَصْلٌ مَعْنَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وبهذا قد يتباينُ معناهُمَا ،

كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الأحرار/١٤] ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ

الحقيقي هو الحقيقة الباطنة للإسلام ، وَالْإِسْلَامَ الحقيقي هو الصورة الظاهرة للإيمان ،

فإنَّ الْإِيمَانَ - كما قلنا - عقيدة تستلزم العمل الصالح واجتناب المحظورات ،

وَالْإِسْلَامَ هو انقياد وإذعان في الأقوال والأعمال ، قائمٌ على عقيدة راسخة في النفس ،

ولذلك كان الركنُ الأولُ من أركانهِ الإتيانُ بالشهادتين .

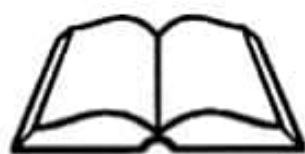
ونظراً إلى أن الأصل في الإيمان هو التصديق - وهو معنى باطن - وأن الأصل في الإسلام الانقياد - وهو فعل ظاهر - جاز إطلاق الإسلام على ما يبدو من أفعال من انتسب إليه ولو لم يكن ذلك مبنياً على تلك العقيدة المطلوبة الراسخة ، وهذا شأن أولئك الأعراب الذين ادَّعوا الإيمان فنفاه الله عنهم ، وأثبت لهم صفة الإسلام أي الانقياد الشكلي الظاهر ، وإلا فالإسلام الحق هو أن يُسَلِّمَ العبد نفسه ظاهراً وباطناً لربه سبحانه ، كما يدل عليه قوله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ [الأنعام/ ١٦٢] .





قَوَاعِدُ

الدِّينِ



٣٦. قَوَاعِدُ الدِّينِ عِلْمٌ بَعْدَهُ عَمَلٌ وَنَيَّْةٌ وَرَعٌ عَنْ كُلِّ مَا حُظِلَا



❖ قواعد الدين :

٣٦. قواعد الدين علم بعده عمل ونية ورع عن كل ما حُظِلَا

القواعد هي الأسس والأصول ، فقاعدة البناء أساسه الذي يُشاد عليه ، وقاعدة الشجرة جذورها الذي تنسق منه .

والدين هو ما يُدانُ لله به ، أي يُنقادُ له ، والمرادُ به هنا دينُ الإسلام ، لأنه دينُ الله الذي اصطفاه واختاره لعباده وأرسلَ به رُسُلَهُ وأنزَلَ به كُتُبَهُ ، قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى/ ١٣] ، وقد بينَ تعالى أن كل دين سواه ليس هو من الله في شيء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران/ ١٩] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران/ ٨٥] .

وقد رَضِيَهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا رَضِيَهُ لِلْأُمَّمِ مِنْ قَبْلِهَا ، وَأَكْمَلَهُ لَهُمْ وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة/ ٣] .

والدين - كغيره - لا يُشادُ إلا على قواعد ، وقد بينَ المُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أن قواعدهُ أربع :

❖ أولُها : العلمُ ؛ والمرادُ به هنا : العلمُ المُتعلِّقُ بالدين ، سواءً ما تعلَّقَ بالاعتقاد أو العمل أو الأخلاق ، وسواءً ما يتعلَّقُ بالتَّحَلِّي أو التَّخَلِّي ، إذ الدين لا بُدَّ لمُمارِسِهِ مِنْ إِتْقَانِهِ ، وَلَا يُمَكِّنُهُ إِتْقَانُهُ إِلَّا بِالْعِلْمِ ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ خِلَافَةُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ مَثَوِّطَةً بِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ عِلْمٍ ، فِيهِ شَرَّفَ اللَّهُ هَذَا الْمَخْلُوقَ وَأَعْلَى دَرَجَتَهُ ، وَبَوَّاهُ مُبَوِّأَ التَّكْرِيمِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ الْمُقَرَّبِينَ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ شَرَفَ

العلم في آيات شتى من كتابه العزيز كقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر/ ٩] ، وقوله : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المائدة/ ١١] ، ونعى على أهل الضلال جهلهم بقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم/ ٦] .

وبين نبهنا ﷺ أن العلم المتعلق بالدين هو مناط الخير ، حيث قال : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » ، ودل الحديث على فرضية طلبه ، إذ قال عليه - أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

وإنما كان العلم من قواعد الدين وقدمه المصنف - رَحِمَهُ اللَّهُ - على سائر قواعده لأن كل ما يليه متبن عليه ، فالمسلم لا يدري ما يأتي وما يذر من الأعمال إلا بالعلم ، ولا يتقن النية الصالحة إلا به .

♦ ثانيها : العمل ؛ والمراد به : العمل الصالح الموافق لحكم الله تعالى ، وإنما كان العمل من قواعد الدين لأن الدين ليس أمراً نظرياً ، وإنما هو منهج تطبيقي عملي ، فلا بد للمتدين من أن يتجاوب في تصرفاته وأعماله مع ما يدين به من الدين ، على أن العمل لو كان بمنأى عن الدين لما كان الدين أمراً واقعياً ، وإنما ينحصر في عالم المثال ، وهذا غير ما أراده الله تعالى من عباده ، فإن الله ﷻ إنما شرع لعباده السدين ليصلحوا به نفوسهم ، ولتتחסد به طاعتهم لربهم ، وليتقنوا به روابطهم فيما بينهم ، ولتكون كل جزئية من جزئيات حياتهم قائمة على تعاليمه ، مسورة بأحكامه .

من أجل ذلك نرى الآيات الكثيرة في القرآن الكريم لا تذكر الإيمان في مقام تبشير أهله بالفلاح إلا مقروناً بالعمل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة/ ٢٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة/ ٩] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف/ ١٠٧] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ

لَهُمُ الرَّحْمَنُ وَذًا ﴿٩٦﴾ [مريم/٩٦] ، وقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ [الأنبياء/٩٤] ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت/٩] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ ﴿ حَزَّائُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البقرة/٧-٨] .

بَلْ يَبَيِّنُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا نَجَاةَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخُسْرَانِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ عَلَى جِنْسِ الْإِنْسَانِ بِالْإِيمَانِ وَحَدَهُ حَتَّى يَكُونَ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالتَّوَّاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَّاصِي بِالْعَصْرِ ، وذلك في قوله : ﴿ وَالْعَصْرُ ﴾ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر/١-٣] .

ذلك لأن العمل هو تَحْسِيدٌ لِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ وَتَصْدِيقٌ لَهُ - كما سبق ذكره - ، وإِنَّمَا قَدَّمَ الْمُصَنِّفُ - رحمه الله - عَلَيْهِ الْعِلْمَ لِأَنَّ الْعِلْمَ إِمَامٌ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ ، إِذْ لَا يُتَصَوَّرُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الصَّالِحَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ إِلَّا بِهِ ، مَعَ شُمُولِهِ لِأَصْلِ الْعَمَلِ وَهُوَ الْإِيمَانُ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ الْحَقَّ لَا يَكُونُ إِلَّا مَبْنًى عَلَى الْعِلْمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى عِبَادِهِ الْإِيمَانَ بِحَقَائِقَ لَا يَتَّبِعُ الْعِلْمُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، بَلْ جَمِيعُ دَلَالَتِهِ تَحْفُفُ بِهَا وَتُوَيِّدُهَا ، وَلَيْسَتْ قَضَايَا الدِّينِ الَّتِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهَا فِي الْإِسْلَامِ خَيَالَاتٍ وَأَوْهَامًا ؛ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي غَيْرِهِ ، بَلْ هِيَ حَقَائِقُ تَشْهَدُ لَهَا الْعُقُولُ وَتَدْعُمُهَا التُّقُولُ .

♦ ثَالِثُهَا : النَّسِيَّةُ ؛ وَهِيَ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَحَدَهُ ، وَهِيَ رُوحُ الْعَمَلِ ، إِذْ لَا قِيَمَةَ لَهُ بِذَوْنِهَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البقرة/١٧٥] ، وَقَالَ ﷺ : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف/١١] .

وَرَوَى الرَّبِيعُ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى » ، وَرَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا مِنْ طَرِيقِ عُمَرَ ﷺ بِلَفْظٍ : « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ

إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجَرْتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةً
يَتَرَوُجُهَا فَهَجَرْتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ .

وَكُونَ الْأَعْمَالِ بِالنِّيَّاتِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ لَا قِيَمَةَ لَهُ بِدُونِهَا ، فَقَدْ يَأْتِي
الْإِنْسَانُ الْعَمَلَ مُسْتَقِيمًا تَامًا لَيْسَ بِهِ اعْوِجَاجٌ وَلَا خَلَلٌ ، وَلَكِنَّهُ يَكُونُ وَبَاءً عَلَيْهِ وَوَبَالًا ،
لَأَنَّهُ مِمَّا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ وَجْهَهُ تَعَالَى ، كَأَنَّهُ يُصَلِّي أَوْ يَصَدَّقُ أَوْ
يَحُجُّ أَوْ يُحَاجِدُ ؛ لَا لِامْتِنَالِ أَمْرِ اللَّهِ وَلَكِنْ مُرَاعَاةٍ لِلنَّاسِ ، لِيَنَالَ بَيْنَهُمْ شُهْرَةَ الصَّلَاحِ
وَالنَّقْوَى ، فَإِنَّ هَذَا تَقَرُّبٌ إِلَى النَّاسِ بِمَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ ، وَلِذَلِكَ عُذُّ مِنَ الْإِشْرَاقِ ،
كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ
رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف/ ١١] .

وَبِمَا أَنَّ النِّيَّةَ الْمَطْلُوبَةَ شَرْعًا هِيَ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَحْدَهُ ؛ فَإِنَّهَا سِرٌّ بَيْنَ
الْعَبْدِ وَرَبِّهِ ، وَلَيْسَتْ قَوْلًا بِاللِّسَانِ - كَمَا هُوَ تَصَوُّرُ عَوَامِّ النَّاسِ - ، حَتَّى أَصْبَحَتْ النِّيَّةُ
عِنْدَهُمْ لَا يُعْتَدُّ بِهَا مَا لَمْ يَأْتِ بِهَا صَاحِبُهَا نَظْقًا ، وَلَرُبَّمَا كَانَ هَذَا النُّطْقُ مُجَرَّدَ تَمَتُّعٍ
بِاللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْضَارِ لِمَعَانِيهَا ، وَهَذَا يَعْنِي فَقْدَانِ النِّيَّةِ رَأْسًا ، إِذِ النِّيَّةُ لُغَةً وَشَرْعًا لَا
تَعْنِي النُّطْقَ ، وَإِنَّمَا هِيَ حَقِيقَةُ الْقَصْدِ بِالْقَلْبِ ، فَمَنْ قَصَدَ بِالْعَمَلِ شَيْئًا فَقَدْ نَوَاهُ حَسَبَ
قَصْدِهِ ذَلِكَ .

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْمُعْبَّرَةُ عَنِ النِّيَّةِ مَعْهُودَةً زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا زَمَنَ
الرُّعِيلِ الْأَوَّلِ - وَهُمْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ - ، وَإِنَّمَا أَخَذَتْهَا مَنْ أَخَذَتْهَا مِنْ بَعْدِ تَعْلِيمًا
لِلْعَوَامِّ كَيْفَ يَتَوَوَّنَ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا فَشَى الْجَهْلُ فِي النَّاسِ فَاحْتَاجُوا إِلَى تَبْصِيرٍ بِمَا يَتَوَوَّنَ ،
وَلَا قَائِلَ بِأَنَّهَا وَخَذَهَا تَكْفِي عَنْ الْقَصْدِ ، وَلَكِنْ لِفُشْوَى الْجَهْلِ وَتَبَلُّدِ الْأَذْهَانِ أَصْبَحَتْ فِي
النَّاسِ هِيَ النِّيَّةُ الْمَطْلُوبَةُ ، وَأَصْبَحَتْ غَايَةً لَا وَسِيلَةَ ، فَقَدْ ضَاعَ الْمَقْصِدُ لِاسْتِغْثَالِ النَّاسِ
بِالْوَسِيلَةِ دُونَهُ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ . وَهَذَا مِمَّا يَدْعُو إِلَى ضَرُورَةِ تَبْصِيرِ النَّاسِ بِالْهُدَى
وَتَعْرِيفِهِمْ بِحَقِيقَةِ النِّيَّةِ ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى أَنْ يَكْتَفُوا بِاسْتِحْضَارِهَا فِي أَذْهَانِهِمْ عِنْدَمَا يَقُومُونَ
إِلَى الْعِبَادَاتِ دُونَ تَرْحِمَتِهَا إِلَى أَقْوَالٍ تُرَدُّدُ بِاللِّسَانِ .

♦ رابعها : الورع ؛ وأقله اجتناب محارم الله جميعاً ، ولذلك قال المصنف - رَحِمَهُ اللهُ - : « وَرَعٌ عَنْ كُلِّ مَا حُظِلَا » أي : مُنِعَ ، فَحَقِيقَةُ الْوَرَعِ هِيَ التَّقْوَى ، وَلِذَلِكَ تَفَاوَتَتْ مَرَاتِبُ النَّاسِ فِيهِ ؛

- فَالْمَرْتَبَةُ الْأُولَى هِيَ مَرْتَبَةُ الْعُدُولِ ، وَهِيَ تَرْكُ الْمَحَارِمِ بِأَسْرَافِهَا مَعَ فِعْلِ الْفَرَائِضِ كُلِّهَا .

- وَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ مَرْتَبَةُ الصَّالِحِينَ ، وَهِيَ تَرْكُ مَا لَا حَرَجَ فِيهِ مَخَافَةَ الْوُقُوعِ فِيهَا فِي الْحَرَجِ ، هَذَا مَعَ فِعْلِ الْفَرَائِضِ وَالْحِرْصِ عَلَى النَّوَافِلِ .

- وَالْمَرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ مَرْتَبَةُ الصَّادِقِينَ ، وَلَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِتَرْكِ كَثِيرٍ مِمَّا لَا حَرَجَ فِيهِ ، وَلَوْ مَعَ غَدَمِ الْخَوْفِ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا فِي الْحَرَجِ ، مَعَ الْمُسَارَعَةِ إِلَى كُلِّ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ . وَهِيَ أَرْفَعُ الْمَرَاتِبِ .

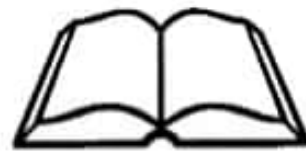




أَرْكَانُ

الدين

الدين



۳۷. اَرْضَ وَفَوْضَ وَسَلَّمْ وَاتَّكِلْ فَبَدَا تَحُورُ أَرْكَانُهُ اللَّاتِي بِهَا كَمُلَا



❖ أركان الدين :

٣٧. اِرْضَ وَفَوْضَ وَسَلِّمْ وَاتَّكِلْ فَبَدَا تَحُورُ أَرْكَانُهُ اللَّائِي بِهَا كَمُلَا

الأركانُ جمعُ رُكنٍ ، وهو الدَّعامةُ ، وهي أقوى ما في البناء .
وفي هذا تشبيهٌ للدينِ ببناءٍ له دعائمٌ متينةٌ ، وإنما عُدَّتْ هذه أركانَ الدينِ لأنها الجانِبُ القويُّ منه ، فمن استجمعها فقد حازَ الدينَ بِحَذَافِيرِهِ ، لأنها لا تَجتمعُ إلا في نفسٍ من أخلصَ لله تعالى عُبُودِيَّتَهُ ، وتجرَّدَ من هوى نفسه وتَحَكَّمَ في وساوسِها .
وأركانُ الدينِ هي : الرِّضا بِقضاءِ الله ، وتسليمُ الأمرِ إليه ، وتفويضُ كُلِّ شيءٍ له ، والتَّوَكُّلُ عليه .

❖ فالرِّضا بِقضاءِ الله هو قبولُ كُلِّ ما يأتي من لدنهِ من أمرٍ أو نهيٍ ، أو سرٍّ أو ضَرٍّ ، بحيثُ لا تُجدُّ النفسُ حرجًا قطُّ وهي تستجيبُ لداعيِ الله بفعلِ ما أمرَ وتركَ ما نهى ، وتتفاعلُ مع سننِ الحياةِ ، مُوقِنَةً أَنَّ كُلَّ ما أصابها من خيرٍ أو شرٍّ فمنَ الله وحدهُ ، وذلك يُوَدِّي إلى الاتِّزانِ والثَّباتِ أمامَ تحدياتِ الدَّهرِ وصُروفِ الزَّمنِ ، فلا تَحْزَنُ لِضَرٍّ ولا تَسْتَفْزِها التَّعَمُّاءُ .

❖ والتَّسليمُ هو الاتِّقيادُ والإذعانُ له تعالى ، مع الخُضُوعِ وعدمِ الاعتِراضِ عليه في شيءٍ .

❖ والتَّفويضُ هو الرِّضا بِخِيرةِ الله تعالى له ، لأنَّهُ العالمُ بِمَصالِحِ خَلْقِهِ .
❖ والتَّوَكُّلُ على الله هو الثَّقةُ به ﷻ وبما عندهُ ، وعدمُ الاعتمادِ على ما عندَ النَّاسِ ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق/ ٣] . ولا يعني ذلك إهمالَ الأسبابِ وعدمَ الأخذِ بها ، فإنَّ ذلك ليسَ مِنَ التَّوَكُّلِ في شيءٍ ، وإنما هو عَجْزٌ وَجَهْلٌ ، فإنَّ الله ﷻ ناطقُ الأمورِ بِأسبابِها ، وأمرُ بالسَّعيِ في الأرضِ والابتغاءِ مِنْ فَضْلِهِ ، وهو مِنَ الأخذِ بِالأسبابِ ، كما أمرَ في الحُرُوبِ بِأخذِ الحَذَرِ مِنَ العَدُوِّ وإعدادِ

الْعُدَّةُ وَغَدَمُ التَّفَرُّقِ وَالْاِخْتِلَافِ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَعَ ثِقَتِهِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ فَقَدْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تُنْسِبُهُ الْأَسْبَابُ مُسَبِّبَهَا ، فَهُوَ يُلْحِظُ عِنْدَمَا يَأْخُذُ بِأَيِّ سَبَبٍ قُدْرَتَهُ تَعَالَى ، وَيُحِسُّ بِعَظِيمِ فَضْلِهِ عَلَيْهِ ، إِذْ هِيَ أَلَهُ تِلْكَ الْأَسْبَابَ وَمَكَّنَهُ مِنْ مُمَارَسَتِهَا .

هَذَا وَقَدْ تَسَاءَلَ بَعْضُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْقَوَاعِدِ وَالْأَرْكَانِ ، فَأَجَبْتُهُ بِأَنَّ الْقَوَاعِدَ هِيَ الْأَسُسُ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْبِنَاءُ ، وَالْأَرْكَانُ هِيَ الْعُمُدُ الَّتِي يَشْتَدُّ بِهَا ، وَبِهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ الْأَرْكَانَ نَفْسَهَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْقَوَاعِدِ ؛ إِذْ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَيْهَا .





مسالك الدين



٣٨. ثُمَّ الظُّهُورُ وَدَفْعُ وَالشَّرَاءُ مَعَ الْ * كِتْمَانِ طُرُقٍ لَهُ ، أَكْرَمَ بِهَا مُبْلَا



❁ مَسَالِكُ الدِّينِ :

٣٨. ثُمَّ الظُّهُورُ وَدَفْعُ وَالشَّرَاءُ مَعَ الْ * كِتْمَانِ طُرُقَ لَهُ ، أَكْرَمَ بِهَا سُبُلًا

الْمَسَالِكُ جَمْعُ مَسْلَكٍ ؛ وَهُوَ الطَّرِيقُ ، وَإِنَّمَا عُبِّرَ عَنْ هَذِهِ الْحَالَاتِ بِالْمَسَالِكِ لِأَنَّهَا طُرُقٌ يَسْلُكُهَا الْمُسْلِمُونَ - حَسَبَ مُلَاعِمَةِ الظُّرُوفِ وَتَهَيُّؤِ الْأَسْبَابِ - إِلَى مَا يَيْغُونَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالرَّشْدِ وَإِقَامَةِ نِظَامِ الدِّينِ .

وَهَذَا لِأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يُكْتَفَى مِنْهُ بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَسْئُولٌ عَنْ إِصْلَاحِ مُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ ، وَبِهَذَا يَنْتَظِمُ شَمْلُ الْمُسْلِمِينَ وَتَمْتَدُّ بَيْنَهُمْ أَوَاصِرُ الْوِلَايَةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [التوبة/ ٧١] .

وَلَا بُدَّ مِنْ مَرَاعَاةِ تَفَاوُتِ الْأَحْوَالِ وَتَبَايُنِ الظُّرُوفِ ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ اخْتِلَافِ الْمُلَاعِمَاتِ لِلْقِيَامِ بِهَذَا الْوَاجِبِ ، فَمَا يَجِبُ إِبَّانُ الْقُوَّةِ لَيْسَ كَالَّذِي يَجِبُ فِي فترات الضعف ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ وَنِظَامٌ ، وَلِذَلِكَ يُؤَيُّ كُلُّ أَمْرٍ مُبَوَّأُهُ ، وَيُعْطَى كُلُّ شَيْءٍ مَا يُلَاقِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ جَامِعًا لِلشَّيْئَاتِ وَمُوحِّدًا لِلصِّفِّ ، وَلَكِنَّهُ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - لَمْ يَكُنْ شَأْنُهُ وَشَأْنُ أَصْحَابِهِ فِي مَكَّةَ وَهُمْ يُوَاجِهُونَ عَسَنَتَ الْكُفْرِ وَكِبْرِيَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا كَانَ شَأْنُهُ وَشَأْنُهُمْ بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، حَيْثُ تَبَيَّنَتْ أَوَّلُ دَوْلَةٍ لِلْإِسْلَامِ فِي عَهْدِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَأَخَذَتْ تَبَسُّقُ دَوَّحَتَهَا وَتَمْتَدُّ فُرُوعُهَا ، لِتُظِلَّ بِظِلِّهَا الْوَارِثَ الظِّلِيلَ كُلَّ مُؤْمِنٍ ، وَلِتُؤْوِيَ إِلَى رِحَابِهَا الْأَمِنَةِ كُلَّ مُسْتَضْعَفٍ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا أَسَّسَهُ وَبَنَاهُ ﷺ مِنْ نِظَامٍ دِينِيٍّ لَيْسَ نِظَامًا وَقَفِيًّا ، بَلْ هُوَ شَامِلٌ لِكُلِّ الْأَطْوَارِ وَالْعُصُورِ إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ، رَغْمَ أَنَّ عَوَادِي السَّرْمَنِ وَصُرُوفَ الدَّهْرِ مُتَقَلِّبَةٌ بَيْنَ مُلَائِمَةٍ وَمُعَاكِسَةٍ ، فَإِنْ رِيَّاحَ الْأَحْدَاثِ مِنْهَا الصَّبَا الْمُنْعِشُ ،

ومِنْهَا الدُّبُورُ الْمُدْمَرُ ، ومع ذلك فإنَّ عُصْبَةَ الْحَقِّ مُطَالِبُونَ دَائِمًا بِأَنْ يُحَافِظُوا عَلَى مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ، وَأَنْ يُطَبِّقُوا نِظَامَهُ وَفَقَّ مُقْتَضِيَاتِ الظُّرُوفِ ، فَلِذَلِكَ شَرَعَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْمَسَالِكُ لِئَلَّا يُفَرِّطُوا فِي نِظَامِ الدِّينِ ، وَهِيَ أَرْبَعَةٌ :

♦ **أَوَّلُهَا : الظُّهُورُ ؛** وَهُوَ - كَاسْمِهِ - بُنْيُىٌ عَنِ الْقُوَّةِ وَاجْتِمَاعِ شَمْلِ الْأُمَّةِ وَانْتِظَامِ أَمْرِهَا وَعِلْوُ كَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَتَمَكُّنُ عُصْبَتِهِ مِنْ قِيَادَةِ سَفِينَةِ الْأُمَّةِ وَفَقَّ نِظَامِ دِينِهَا .

وَهَذَا الَّذِي كَانَ مِنْ بَعْدِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عِنْدَمَا بَايَعَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، فَإِنَّ بَيْعَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَانَتْ وَفَقَّ هَذَا النِّظَامِ ، وَإِنَّمَا ذَابَّ أَصْحَابُنَا - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - عَلَى التَّمَثِيلِ لِهَذَا الْمَسْلُوكِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ حَالُ الْأُمَّةِ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَتَيْنِ الرَّاشِدَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لِأَنَّ الْأُمَّةَ فِي عَصْرِهِمَا كَانَتْ فِي عَافِيَةٍ مِنَ الْفِتْنَةِ وَمَأْمِنٍ مِنَ الشَّقَاقِ وَالْخِلَافِ ، وَإِنَّمَا بَدَأَتْ بَعْدَهُمَا تَهْبُّ عَلَيْهَا أَعَاصِيرُ الْفِتَنِ لِتَضُرَّمَ نَارُهَا ، فَحَصَلَ بَيْنَهَا مَا حَصَلَ مِنَ الشَّقَاقِ وَالْإِخْتِلَافِ .

هَذَا ؛ وَبِمَا أَنَّ هَذَا الْمَسْلُوكَ هُوَ أَعْلَى الْمَسَالِكِ وَأَجْلُهَا - إِذْ هُوَ أَصْفَاهَا مَوْرِدًا وَأَطْيَبُهَا ثَمَرًا - لَمْ تَتَوَانَ هِمُّ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْإِسْتِقَامَةِ - فِي حَالِ مَا تَكُونُ الْفُرْصُ مُوَاتِيَةً - عَنِ الْأَخْذِ بِنِظَامِهِ وَالْإِعْتِنَاءِ بِحَبْلِهِ ، كَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَرْضِ الْيَمَنِ عِنْدَمَا بَايَعُوا طَالِبَ الْحَقِّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى الْكِنْدِيَّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - ، وَبِالْقَطْرِ الْعُمَانِيَّ مُنْذُ مَبَايَعَةِ الْجُلَنْدِيِّ بْنِ مَسْعُودٍ ثُمَّ الْأَثَمَةِ الْعُدُولِ مِنْ بَعْدِهِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - ، وَكَذَلِكَ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْذُ بَيْعَةِ الْإِمَامِ أَبِي الْخَطَّابِ الْمَعَاوِيَّيِّ ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ هَذَا النِّظَامُ فِي عُهُودِ الْأَثَمَةِ الرَّشْمِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ الْجَمِيعَ - . وَإِلَى ذَلِكَ يُشِيرُ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي جَوْهَرِهِ حَيْثُ قَالَ :

وَلِلْعُمَانِيِّينَ وَالْمَعَاوِيَّةِ	وَحَضَرَ مَوْتَ أُمَرَاءَ غَالِبَةٍ
يُشَابِهُونَ الْعَمَرِيْنَ عَدْلًا	وَوَرَعًا وَتَقْوَةً وَفَضْلًا
مَضَوْا عَلَى تَهْجِ الصَّوَابِ فَلَهُمْ	حُسْنُ النَّامِغِ الرِّضَا مِنْ رَبِّهِمْ

وميزة هذا المسلك أن نظام الدين فيه يطبق على الأمة بغير استثناء ، فتقام فيه حدود الله ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ، وينصر فيه المظلوم ويغاث فيه الملهوف ، ويقض فيه على يد الظالم ، ويؤطر فيه على الحق أطرا ، كما تُصان فيه أرض الإسلام وتحمى فيه بيضته .

♦ ثانيها : الشراء ؛ وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْحَيَاةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [النساء/ ١١١] ، فالشراء باعوا نفوسهم لله يبتغون رضوانه ويحفظون .

والشراء إنما يكون في حال عدم ظهور كلمة أهل الحق ، وذلك بأن يكون العدو متسلطا عليهم ، ينزل بهم المصائب ويسعى إلى صدهم عن الهدى ، ولا يسالي بانتهاك الحرم وإضاعة الحقوق ونهب الأموال ، فتتبري طائفة من المؤمنين لمحاولة الحد من هذا الفساد ، لإغلاق العدو ومحاولة مباحثته تأديبا على تصرفاته .

وذلك كما وقع في عهد بني أمية عندما ولي لهم زياد بن أبيه ، فأخذ يتبع أهل الحق تقتيلا وتشريدا وتمثيلا ، ولم تسلم النساء من بطشه ، فقد أخذ البلحاء بنكير ظلمه ، وشفى غليل نفسه بقتلها وتمثيلها وتعريضها من ثيابها ، وكانت - رحمها الله - مثالا لرباطة الجأش وصلابة الموقف أمام طغيانه وحقيقه ، حتى مضت شهيدة إلى رضوان الله ، فالتبرى أهل الغيرة والشهامة والتجدة والمروعة وبايعوا أبا بلال المرداس بن حدير - رحمه الله - ، فخرج بهم أبيا أن يستعرض الناس بالسيف إلا من قاتله ، وكانوا شوكة في جنب العدو ، فهزموا - وهم أربعون رجلا - ألفي مقاتل بأسك ، وكانوا مثالا للصلاية وقوة الشكيمة ومضاء العزيمة ، حتى ألقوا زيادا وجنده ، ثم مضوا في سبيل الله شهداء بعد ما سجلوا بدمانهم تاريخ البطولة والفداء .

بَايَعَ صَحْبَهُ عَلَى الشَّرَاءِ وَمَا	طَالَ زَمَانُهُ إِلَى أَنْ أَكْرَمَا
نَالُوا الشَّهَادَةَ الَّتِي قَدْ طَلَبُوا	وَبَرِضَا الرَّحْمَنِ فِيهَا انْقَلَبُوا

ولا يكون الشراء عند أصحابنا إلا بأربعين رجلاً ، ولعلهم أخذوا ذلك مما كان في عهد الرسول ﷺ عندما أسلم عمر رضي الله عنه ، فسلم بإسلامه عدد من أسلم من الرجال أربعين ، وقد كانوا من قبل يعبدون الله مستخفين في دار الأرقم ، ولكنهم خرجوا بعد ذلك متحدين كبرياء الجاهلية .

وليس لمن بايع على الشراء تراجع إلى أن يلقى الله وحده ، لأنه بايع على الموت ، ولو بقي بنفسه ، وقيل إن نقصوا عن ثلاثة كانوا في حل من أمرهم .
والمشهور في المذهب : أن الشاري لا تجوز له الشقة ، وأجازها له المحقق الخليلي - رحمه الله تعالى - عند الحاجة إليها ، معللاً ذلك بأن ما أوجبه على نفسه ليس أوجب مما أوجبه الله عليه .

وهؤلاء إنما يخرجون من الأوطان ، فإنهم لا وطن لهم إلا حيث يشهرون سيوفهم ، فحيثما أشهروا سيوفهم أتموا صلاتهم .

♦ ثالثها : الدفاع ؛ وهو أن يجتمع المسلمون عندما يفاجئهم عدوهم بالانقضاض عليهم على مبايعة أحد منهم ليقودهم دفاعاً عن دينهم وعن حرماتهم ، إلى أن تحل العمة وينكشف العدو ، وتنتهي بذلك بيعته .

وهذا كما وقع لإخواننا أهل المغرب ؛ عندما كثرت أبو تميم الفاطمي الملقب بالمعز عن آتياه العصل فقتل عالمهم أبا القاسم يزيد بن محمد الوسياني - رحمه الله - ، فاجتمع من كان حوله على مبايعة أبي خزر الوسياني - رحمه الله - إمام دفاع لهم ، يقود مجاهديهم في سبيل الله حماية لدينهم ولحقوقهم ، ولكن الحملة التي قادها أبو خزر منيت بالهزيمة والفشل ، لأنها لم يخطط لها من قبل ، وإنما كانت أمراً ارتجالياً ، دفعتهم إليه الغيرة والحماس كما سجلته المصادر التاريخية .

ومن العلماء من ذهب إلى أن بيعه عبدالله بن وهب الراسبي - رحمه الله - كانت بيعه دفاع ، ومن بين هؤلاء العلامة الكندي شارح هذه المنظومة - رحمه الله تعالى - ، وليس ذلك بشيء ، فإن أحداث البيعة تدل على أنها كانت بيعه ظهري ،

لأنهم ولّوه أمرَ المسلمين بعد أن أصبحوا لا قائدَ لهم حين وقعَ التحكيمُ واتَّفَقَ الحكمَانِ على خَلْعِ الخليفة الشرعي الإمامِ علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ، مع ما تمَّ من الاتفاق بينه وبين خصمه معاوية بن أبي سفيان على تحكيم ذَيْنِكَ الحكمَيْنِ .

♦ رابعها : الكِثْمَانُ ؛ وهو خلاف الظهور معْنَى وحُكْمًا ، وذلك بأن يكونَ المسلمون في ضَعْفٍ وتَشَتُّتٍ ، بحيث لا يُمكنهم أن يسألوا أيَّ مَسْئَلٍ مِنَ الْمَسْأَلِ الثلاثة المذكورة من قَبْلُ ، ولا يُدَّ لَهُمْ من مَرَجِعٍ يرجعون إليه يَدُلُّهُمْ على الرُّشْدِ ويُذَكِّرهم بالله وباليوم الآخر ، ويُصلح ذاتَ بَيْنِهِمْ ، ويقوم بما أمكنه من مَصَالِحِهِمْ . وهذه الحالة التي مرَّتْ بِهَا الدَّعْوَةُ إِبَّانَ نُشُوتِهَا في الْمُجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ ، فإن أصحابَ النبي ﷺ كانوا يَلْتَفِتُونَ حَوْلَهُ في كِثْمَانٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَيَتَلَقَّوْنَ عَنْهُ مَا يُصْلِحُ دِينَهُمْ ودنياهم ، ويُبَيِّنُ لَهُمُ الطَّرِيقَ وَيُبَيِّنُ لَهُمُ الْحَقِيقَةَ .

وقد كان هذا هو مَسْئَلُ الإمامِ أَبِي الشَّعَثَاءِ جَابِر بن زيد - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - عندما أَبْصَرَ ببصيرته الناقية تُعَذِّرُ انتظامَ أمرِ المسلمين في وقته واجتماعَ شَعْلِهِمْ على القيام بإنشاء نظامٍ إسلاميٍّ يَتَحَدَّى النظامَ القائمَ آنذاك .

وعَلَيْهِ دَرَجَ تَلْمِيذُهُ وَخَلِيفَتُهُ الْعَمَلَاءُ الْقَائِدُ الْمُحَنِّكُ وَالرَّائِدُ الْمُسَدِّدُ أَبُو عُبَيْدَةَ مُسْلِمُ بْنُ أَبِي كَرِيمَةَ التَّمِيمِيُّ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - ، الذي نُضِجَ في عَهْدِهِ الْجَهْدُ ، فَآتَتْ الدَّعْوَةُ على يديه ثَمَارَهَا الطَّيِّبَةَ ، إِذْ تَمَحَّضَتْ عَنْ مِيلَادِ بَيِّنَاتٍ لِأُتَمَّةِ ظُهُورِ بَارزِينَ ، فَقَدْ بُويعَ لِأَرْبَعَةٍ مِنْ تَلَامِيذِهِ بَيْعَةَ ظُهُورٍ ، فَصَدَّقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ قَضَوْا نَحْبَهُمْ بِأَذِلَّةٍ أَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُمْ :

◊ طَالِبُ الْحَقِّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى الْكِنْدِيُّ ، الذي أَظْهَرَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ بِأَرْضِ الْيَمَنِ ، وَشَمِلَ حُكْمُهُ أَرْضَ الْحِجَازِ ، وَوَصَلَتْ خَيْلُهُ إِلَى وَادِي الْقَرْيِ .

◊ وَالْجَلَنْدِيُّ بْنُ مَسْعُودٍ الَّذِي بُويعَ بِعُمَانَ ، فَصَالَ عَلَى الْبَاطِلِ صَوْلَةَ اللَّيْلِ الْهَظُورِ ، وَبَدَّلَ نَفْسَهُ وَنَفِيسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَنَصْرَةِ دِينِهِ ، إِلَى أَنْ فَاضَتْ رُوحُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

﴿ وأبو الخطاب المَعافِرِيُّ الذي بُويع بِطَرَأُلُسِ المَغْرِبِ ، فَكان مِثالاً لِلزهد والورع والتقوى والتَّحَدَّةِ والإقدام والعدل والاستقامة .

﴿ وعبد الرَّحْمَنِ بن رُسْتَمِ الفارسيُّ الذي بُويع بعده بِالمَغْرِبِ الأوسطِ ، فأقام دولة الحَقِّ والإيمان والعدل والإنصاف التي سَحَّلَ النصارىُ مآثرَها العظيمةَ على صفحاتِ الأمجادِ المَشْرِقةِ ، رحمهم الله جميعاً .

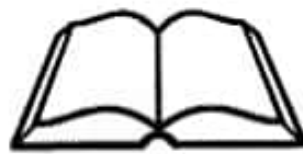
وَكثيراً ما يَتَوَلَّدُ الظهورُ عن الكتمانِ ، كما حَدَّثَ ذلك في عهد النبي ﷺ ، فإنه - بعد تأسيسه لقواعد الدين وإعدادِه اللَّبَنَاتِ الأولى لبناء الأمة الصالحة في عهد الكتمان - تَمَحَّضَتْ دعوته عن عهدٍ جديدٍ ، ظهرت فيه كلمةُ الحَقِّ ، وعَزَّزَتْ أنصارُهُ بقيامِ دولة الإسلامِ على طَيِّبَةٍ - طَيَّبَ اللهُ ثراها - ، إلى أن تَمَّ الفتحُ المُبِينُ ، وَلَمْ يَقْبِضِ اللهُ عَبْدَهُ ورسولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ إلا وحزيرةُ العربِ تُظَلُّها سماءُ تلك الدولة المُبَارَكَةِ ، ثُمَّ تَوَالَتْ الفُتُوحُ في عهد خلفائه الراشدين ﷺ إلى أن طَهَّرَتْ الأرضَ مِنَ الرَّجَسِ ، وحرَّثَتْها مِنَ الظلمِ ، وأقامت نظامَ العدل والإنصافِ بين العالمين ، فَسَعِدَتْ الإنسانيةُ بعد شقائها ، وَنَعِمَتْ بعد بؤسِها ، وَعَرَفَتْ قيمَتَها وقَدْرَها .

وَهَكَذَا أَمَرَ جُهْدُ أَبِي الشَّعْثَاءِ جَاوِدِ بْنِ زَيْدٍ وَخَلِيفَتِهِ أَبِي عُبَيْدَةَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا مِنْ أَسَاطِينِ الدُّعْوَةِ وَأَعْلَامِ الْهُدَى ﷺ ، إِذْ حَقَّقَ اللهُ أُمْنِيَّاتَهُمْ بِقِيَامِ نِظامِ العَدْلِ في المَشْرِقِ وفي المَغْرِبِ مَعاً ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ وَتَحَقِّقُ بِفَضْلِهِ الْأُمْنِيَّاتُ .



٩ ٥
فَرَزْ

٣
الدين
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



۳۹. وَفَرَزُهُ فِي ثَلَاثٍ : مُؤْمِنٍ وَمُتَّقٍ * فِي قِيٍّ وَصَاحِبِ شِرْكِ جَاحِدٍ عُدْلًا



❖ فَرَزُ الدِّينِ :

٣٩. وَفَرَزُهُ فِي ثَلَاثٍ : مُؤْمِنٍ وَمُنَا * فِيقِ وَصَاحِبِ شِرْكِ جَاحِدِ غَدَلَا

الْفَرَزُ هُوَ التَّمْيِيزُ وَالْفَصْلُ ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا هُوَ : تَمْيِيزُ النَّاسِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ،
وَالْفَصْلُ بَيْنَ أَحْكَامِهِمْ بِحَسَبِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الدِّينِيَّةِ .
وَهُمْ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثِ طَوَائِفَ :
❖ أَوَّلُهَا : الْمُؤْمِنُونَ :

وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ وَمَعْنَاهُ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا ، وَتَبَيَّنَ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ حَسَبَ مَا
تَذُلُّ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيحَةُ .

وَتَقَرَّرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ الْإِيمَانَ الْمَطْلُوبَ هُوَ عَقِيدَةُ رَاسِخَةٌ فِي النَّفْسِ ، تُنْشَأُ عَنْهَا
الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ وَالْأَخْلَاقُ الْفَاضِلَةُ وَالْأَقْوَالُ الصَّادِقَةُ ، وَهُوَ رُوحُ الْحَيَاةِ وَمَلَكَهَا ،
تَتَحَوَّلُ بِهِ النَّفُوسُ وَتَسْقُطُ بِهِ الطَّبَائِعُ إِلَى أَضْدَادٍ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، كَمَا حَدَّثَ ذَلِكَ
لِسُحْرَةِ فِرْعَوْنَ عِنْدَمَا كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ قِيَمَةَ لِلْحَيَاةِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَكْسِبُونَهُ مِنْ مَنَافِعِهَا
الْمَادِيَّةِ ، فَلِذَلِكَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ عِنْدَمَا أَتَوْا لِتَحْذِي مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - وَدَعْوَتِهِ :
﴿ إِنْ لَنَا لَأَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيْنَ ﴾ [الشعراء/ ٤١] .

وَقَدْ أَدْرَكَ اللَّعِينُ مَا تَنْطَلِعُ إِلَيْهِ أَفْنِدَتُهُمْ وَتَطِيرُ مِنْ أَجْلِهِ أَلْبَابُهُمْ ، وَهُوَ مَا يُؤْتَوْنَهُ
مِنَ الْمَالِ وَمَا يُؤْتَوْنَهُ مِنْ مَقَاعِدِ التَّكْرِيمِ وَالرُّفْقَى ، فَلِذَلِكَ أَضَافَ إِلَى مَا ذَكَرُوهُ مَا لَمْ
يَذْكُرُوهُ ؛ إِذْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء/ ٤٢] .

وَلَكِنْ عِنْدَمَا أَشْرَقَ الْإِيمَانُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَحْيَا ضَمَائِرَهُمْ وَأَنَارَ بَصَائِرَهُمْ تَبَدَّلَتْ
نَظَرَتُهُمْ هَذِهِ إِلَى الْحَيَاةِ ، فَلَمْ يَرَوْا لَهَا قِيَمَةً إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَكُونُ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ
وَنُصْرَتِهِ ، وَلَوْ كَانَ تَمَنُّ ذَلِكَ هُوَ الْحَيَاةُ كُلُّهَا ، فَلِذَلِكَ رَدُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ : ﴿ لَنْ نُؤْتِرَكَ

عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ .

فَمَا أَسْرَعَ هَذَا التَّحَوُّلُ مِنَ التَّقْيِضِ إِلَى التَّقْيِضِ ! وَمَا أَعْجَبَ هَذَا التَّبَدُّلَ فِي الطَّبَاعِ وَالْمَعَايِيرِ وَالتَّصَوُّرِ ! عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَدْرُجًا ؛ بَحِثْ أَخَذْتَ تَنْحَلْ عُقْدُ تَصَوُّرَاتِهِمُ السَّابِقَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَمْرًا مُفَاجِئًا فِي نَفْسِ لَحَظَاتِ مَوْقِفِ الْحَوَارِ ، فَمَا الَّذِي جَعَلَهُمْ يُلْقُونَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كُلُّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَيُودِّعُونَ حَيَاتَهُمُ الْأُولَى بِحَمِيصِ تَصَوُّرَاتِهَا وَأَفْكَارِهَا وَمَوَازِينِهَا وَمَعَايِيرِهَا ؛ لِيَسْتَقْبِلُوا حَيَاةً جَدِيدَةً تَنْسِمُ بِخِلَافِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ؟ إِنَّهُ الْإِيمَانُ الَّذِي حَوَّلَ الطَّبَاعَ غَيْرَ الطَّبَاعِ وَالْأَفْكَارَ غَيْرَ الْأَفْكَارِ وَالنُّفُوسَ غَيْرَ النُّفُوسِ .

وَهَكَذَا كَانَ أَمْرُ الْإِيمَانِ فِي نَفُوسِ الرُّعِيلِ الْأَوَّلِ الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الْحَقِّ ، وَتَقَضُّوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ كُلَّ مَا عَلِقَ بِهَا مِنْ غِيَارِ الْمَاضِي ، بَلْ تَطَهَّرُوا بِمَعِينِ الْإِيمَانِ الدِّفَاقِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِنْ مَاضِيهِمْ كُلِّهِ ، لِيُعَوِّدُوا كَأَنَّمَا أُنْشِئُوا نَشْأَةً جَدِيدَةً بِنُفُوسٍ غَيْرِ نُفُوسِهِمْ ، وَطَّبَاعٍ عَكْسِ طَبَاعِهِمْ ، وَمَشَاعِرٍ تَخْتَلِفُ كُلُّ الْإِخْتِلَافِ عَنْ سَابِقَتِهَا ، فَتَأَلَّفُوا بَعْدَ التَّفَرُّقِ ، وَاتَّحَدُوا بَعْدَ الْفُرْقَةِ ، وَصَارَ كُلُّ مِنْهُمْ يُحِبُّ لِلآخِرِ - الَّذِي كَانَ يَوْمًا مَا خَصَّمَهُ اللَّذُودُ - مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ .

وَهَكَذَا شَأْنُ الْإِيمَانِ دَائِمًا ، فَإِنَّهُ يَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ يَسْتَعْلِي عَلَى رَغَبَاتِ نَفْسِهِ وَضَرُورَاتِ حَيَاتِهِ ، لِيَكُونَ هَمُّهُ كُلُّهُ فِي إِرْضَاءِ رَبِّهِ وَنُصْرَةِ دِينِهِ وَالتَّهَوُّضِ بِأَمْرِهِ . وَلِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ حُقُوقٌ وَوَاجِبَاتٌ ، أَحْمَلَهَا الْقُرْآنُ وَفَصَّلَتْهَا الْمَثَلَةُ النَّبَوِيَّةُ - عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [المحرات/١٠] . وَهِيَ عِبَارَةٌ تُشِيرُ بِمَا يَكُونُ بَيْنَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْ اتِّحَادِ الْمَشَاعِرِ وَاتِّسَاجِمِ الْأَحْسَاسِ ، حَتَّى يُرِيدَ كُلُّ مِنْهُمْ لِسَائِرِ إِخْوَانِهِ مَا يُرِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ .

وهو الذي بيّنه الرسول - عليه أفضل الصلاة والسلام - بقوله : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » ، وبقوله : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » ، وبقوله : « تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحَمَى وَالسَّهَرِ » ، وذلك قائم على ما يكون بينهم من الصُّفَاءِ وَالْوَلَايَةِ ، حتى ينجذب بعضهم إلى بعض ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة/ ٧١] .

ولأجل المُحَافَظَةِ عَلَى هَذِهِ الصَّلَةِ وإبقاء هذه الرابطة جاء في حديث رسول الله ﷺ كثير من حقوقها ، كالتواصل بالزيارات في الأفراح والأتراح ، وشهود الجنائز ، وعدم خطبة أحد على خطبة أخيه أو المساومة على سَوْمِهِ ، وهي وإن لَمْ تَنْحَصِرْ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَالْإِخَاءِ ، إِلَّا أَنَّهَا رَافِدٌ قَوِي لِمَا يَكُونُ بَيْنَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوَدَّةِ وَالْإِخَاءِ .

﴿ ثانيهما: الْمُتَنَافِقُونَ ؛ وَهُمْ قَوْمٌ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِالْإِسْلَامِ وَبِأَيُّهِ فِي سِرِّيَّتِهِمْ أَوْ بِأَعْمَالِهِمْ ، وَوَصَفُهُمْ بِالنِّفَاقِ يُوحِي بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ التَّنَاقُضِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، وَهُوَ مُصْطَلَحٌ إِسْلَامِي مَحْضٌ ، إِذْ لَمْ تَكُنِ التَّسْمِيَةُ بِذَلِكَ مَعْهُودَةً عِنْدَ الْعَرَبِ قَبْلَ نَزُولِ الْقُرْآنِ ، وَإِنَّمَا مَأْخُذُهَا لُغَةً مِنْ : تَفَقَّ الْمَرْبُوعُ وَتَفَقَّ وَنَافَقَ ؛ إِذَا خَرَجَ مِنْ نَافِقَانِهِ هَرُوبًا مِنَ الصَّائِدِ ، وَذَلِكَ أَنَّ لِلْمَرْبُوعِ بَاطِنًا : ظَاهِرًا وَيُسَمَّى الْقَاصِعَاءِ ، وَخَفِيًّا وَيُسَمَّى النَافِقَاءِ ، فَإِذَا أَرَادَ الصَّائِدُ اسْتِخْرَاجَهُ مِنَ الْقَاصِعَاءِ ضَرَبَ بِرَأْسِهِ النَافِقَاءِ وَخَرَجَ عَنْهُ ، وَهَكَذَا الْمُتَنَافِقُ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ وَجْهِ وَيَدَّعُوهُ مِنْ آخَرٍ .

وهو على ضربين :

◀ نفاق عَقْدِيّ : وهو أن يتباين القول والمعتقد ، وذلك بأن يدّعي الإيمان وهو يطن للإشراك ، ومن هذا الصنف المنافقون الذين بكَتَهُمُ الْقُرْآنُ فِي عَهْدِهِ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - ، فَقَدْ ادَّعَوْا الْإِيمَانَ بِرِسَالَتِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - مَعَ انطوائهم على معتقدات أهل الكفر والضلال ، وَإِنَّمَا جَعَلُوا مَا يَظْهَرُونَهُ مِنَ الْإِيمَانِ

والإسلام حُجَّةٌ لئلا يُحَكِّمَ عليهم بأحكام أهل الشرك والضلال ، مع ما كانوا يظمرونه من محاربة الإسلام من الداخل بالدس والوقيعة بين أهله ، وتشكيك ضعاف النفوس من المؤمنين في أصول الإيمان ومعتقداته ، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهُمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة/ ٨-٩] ، وقوله : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الماقود/ ١] .

وقد كانوا مع كتمانهم عقائدهم يوحون بها بغير تحفظٍ عندما يخلو بعضهم إلى بعض ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة/ ١٤] ، ولربما انفلت من ألسنتهم عند وجدان المؤمنين ما يدل على دخالهم ، فلذلك كانوا يُعْمِنُونَ في نفي ما ينسب إليهم من قبل أولئك المؤمنين الذين ينقلون عنهم ما يكون من فلتات ألسنتهم إلى النبي ﷺ وإلى سائر المؤمنين ، وذلك بتكرار الأيمان ألهم ما قالوا كلمة الكفر وما كان منهم إلا ما يؤكد رسوخ إيمانهم بالله واليوم الآخر ، فلذلك قال تعالى فيهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ حُجَّةً فَعَصَوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الماقود/ ٢] .

وهذا الصنف تجري عليه أحكام الإسلام ظاهراً ، كالتوارث بينهم وبين المؤمنين ، ودفنهم في مقابرهم والصلاة عليهم إذا ماتوا ، وإن كانوا في باطنهم مشركين ، وإنما أعده الله لهم من الجزاء ما يتلاءم مع حالهم ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء/ ١٤٥] .

◀ ونفاق عملي : وهو عدم التزام المرء بواجبات الإسلام فعلاً أو تركاً ، وهو وإن كان أهون من سابقه إلا أنه أمر عظيم ، لما سبق من أن الإيمان والإسلام يقتضيان الوفاء بحقوقهما ظاهراً وباطناً ، وهذا الصنف وإن وافق معتقده قوله إلا أنه مخالف لما يقتضيه الاعتقاد الحق من طاعة رب الوجود والبعد عن معصيته ، على أن وصف هؤلاء

بالنفاق إنما هو في حال الإصرار على ما يرتكبون ، أما التائب من الذنب فكمّن لا ذنب له .

ودليل هذا النوع من النفاق ما جاء في حديث رسول الله ﷺ من بيان صفة المنافق ، فقد رَوَى الشيخان عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ » . وفي رواية مُسْلِم : « وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » بَعْدَ قَوْلِهِ : « آية المنافق ثلاث » . وفي رواية لهما للترمذي والنسائي مثل ما تقدّم ، ولكن بإبدال « إذا اتَّخَمَ خَانَ » من قوله : « إذا عاهد غدر » . وأخرج النسائي عن ابن مسعود ؓ قال : « ثلاث مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ ، إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإذا اتَّخَمَ خَانَ ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ ، فمن كانت فيه واحدة منهن لم تزل فيه خصلة من النفاق حتى يتركها » . وأخرج الشيخان وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، ومن كانت به خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ؛ إذا اتَّخَمَ خَانَ ، وإذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خَاصَمَ فَجَرَ » . وفي رواية للنسائي : « إذا وعد أخلف » بدلاً من « إذا اتَّخَمَ خَانَ » .

وهذا كله دليل على أن النفاق يكون في الأعمال كما يكون في الاعتقاد ، وليس ذَكَرُ بعض الخصال في الأحاديث دليلاً على الحصر ، وإنما ذلك من باب التمثيل . هذا هو الذي ذَرَجَ عليه أصحابنا ، ووافقهم عليه جماعة من المُحَقِّقِينَ ، كالعلامة ابن العربي المالكي والحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي ، والغني الحنفي ، وعزاه إلى الخطابي ، ونسبه الترمذي في جامعه إلى أهل العلم .

﴿ ثالثها : المشركون ؛ وهم كلُّ مَنْ رَفَضَ قبول الإسلام ظاهراً وباطناً ، سواء كان من عبدة الأوثان أو من الملاحدة أو من أهل الكتاب .

ويتحقق الشرك بإنكار كل ما عُلِمَ من الدين بالضرورة من غير تأويل ، كإنكار وحدانية الله ، أو إنكار قدسيته عن اتخاذ صاحبة أو الولد ، أو الانتصاف بصفات النقص

كالعجز والجهل والحدوث والموت والصمم والعمى ، أو إنكار رسول من رسل الله الذين ثبتت رسالتهم بالقطع ، أو إنكار كتاب مما أنزل الله ، أو حكم قطعي شرعه ، أو إنكار اليوم الآخر أو شيء من أوصافه الثابتة بالقطع .

وبهذا يتبين دخول كفار أهل الكتاب في المشركين ؛ بإنكارهم وحدانية الله سبحانه بنسبة الولد والشريك إليه ، وإنكار نبوة نبينا ﷺ ونزول القرآن عليه ، ولا معنى لما يقوله البعض - وشاع في عصرنا - من أنهم غير مشركين ، لأن الله ﷻ نَسَبَ الإِشْرَاقَ إليهم حيث قال : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [البقرة/ ١٦٣] . ولأن الله تعالى دعاهم إلى الإيمان بما أنزله مصدقا لما معهم ، ثم أتبع ذلك بيان عاقبة الإِشْرَاقِ - أي إن لم يؤمنوا - وذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرِيقٍ مِمَّنْ هَذَا عَلَى أَذْيَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء/ ٤٨] .

أما ما جاء من عطف المشركين على أهل الكتاب في نحو قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَنَفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة/ ١] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [البينة/ ٦] ؛ فهو لأجل أن عبدة الأوثان هم أعمق في الإِشْرَاقِ وأبعد في الضلالة ، فلذلك غلب إطلاق وصف الشرك عليهم ، كما غلب إطلاق وصف الإيمان على مؤمني هذه الأمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ﴾ [البقرة/ ٦٢] . ثم بين حكم من آمن من هذه الطوائف جميعاً فقال : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة/ ٦٢] ، لأن إيمان هذه الأمة أوسع وأشمل وأعمق ، لما أكرمها الله به من نزول الكتاب المُعْجِزِ عليها فيه تبيان كل شيء .

وبالجملة فإن وصف الشرك إذا أُطْلِقَ شَمِلَ أهل الكتاب وغيرهم ، وإذا جاء معطوفاً على أهل كتاب كان مقصوداً به سائر أصناف المشركين من غيرهم .
ويتفق المشركون جميعاً في بعض أحكامهم ، ومنها أنه لا توارث بينهم وبين المسلمين ، ولا يُدفنون في مقابرهم ولا يُصَلَّى عليهم إذا ماتوا ، ولا يُحْيَوْنَ بتحية الإسلام ، ولا يُشَمَّتْ عاطسُهم ، ومن مات منهم بين المسلمين ولم يكن هنالك أحد من أهل ملته فإنَّ على المسلمين دَفْنُهُ فقط بِمَتْنَيْ عَنْ مَقَابِرِهِمْ مِنْ غَيْرِ غُسْلٍ وَلَا صَلَاةٍ ، وَإِنَّمَا تُسْتَرُّ عَوْرَتُهُ لِأَجْلِ حُرْمَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَيَفْتَرِقُونَ فِي بَعْضِهَا كَمَا سَيَأْتِي شَرْحُهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِي ذِكْرِ أَحْكَامِ الْمِلَلِ السَّتِّ .





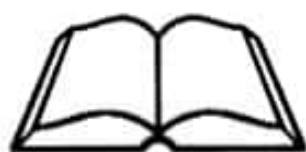
٥٠

حِرْزُ

الدِّينِ

الدِّينِ

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



٤٠. وَحِرْزُهُ أَنْ تُؤَالِي مَنْ أَطَاعَ وَتَبَّ * رَأَى مِنْ مُصِيرٍ وَقَفَ عَنْ كُلِّ مَنْ جَهَلَ



❁ حرز الدين :

٤٠. وَحِرْزُهُ أَنْ تُؤَالِي مَنْ أَطَاعَ وَتَبَّ * — رَأَى مِنْ مُصِرٍّ وَقَفَّ عَنْ كُلِّ مَنْ جَهِلًا

الْحِرْزُ كَالْحِفْظِ وَزَنًّا وَمَعْنَى .

والمراد بالبيت أَنَّ صَوْنَ الدين من الضياع إنما هو بولاية الصالحين والبراءة من المفسدين، والوقوف عمن جَهِل أمره .

وإنما كان حِرْزُ الدين بذلك لما فيه من شدِّ الروابط بين الْمُتَّقِينَ والتَّوَّابِينَ والتعاون على البر والتقوى ، وَتَجَنُّبِ جَمِيعِ أسباب الفساد والانفصال التام عن أهله ، فإن الولاية رباطٌ روحي يَشُدُّ الْمُؤْمِنَ إِلَى الْمُؤْمِنِ ، حتى لَا يُحِبُّ لَهُ إِلَّا مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَيَحْرِصُ عَلَى إِصْلَاحِهِ كَحِرْصِهِ عَلَى إِصْلَاحِ نَفْسِهِ ، ولذلك كانت السمة البارزة على الْمُؤْمِنِينَ الذين يؤالون بعضهم بعضاً أَنَّهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، مع الالتزام التام بالواجبات الشرعية ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [التوبة/ ٧١] .

فَالْمُؤْمِنُ الْوَفِيُّ فِي هَذِهِ الْبَيْتَةِ الصَّالِحَةِ يشعر أَنَّهُ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ ، وَيَتَفَيَّأُ ظِلَالِ الْأَخَوَةِ الْخَالِصَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، يُعِينُونَهُ عَلَى الْخَيْرِ وَيَصُونُونَهُ مِنَ الشَّرِّ ، وَيُحَافِظُونَ عَلَى سَلَامَةِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَالْفَاجِرُ يشعر أَنَّهُ مَنبُودٌ لَا تَرْبِطُهُ بِهِذِهِ الْبَيْتَةِ الصَّالِحَةُ رَابِطَةٌ ، فَتَضْبِقُ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، فَإِنَّمَا أَنْ يَضْطَرَّ إِلَى مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ وَالْعُودَةِ إِلَى حَقِيرَةِ الْحَقِّ وَالِاتِّفَافِ حَوْلَ الصَّالِحِينَ ، وَإِنَّمَا أَنْ يَبْحَثَ عَنْ بَيْتَةٍ أُخْرَى تَلَاثِمُ هَوَاهُ وَطَبَاعَهُ ، فَيَنْقَى الْمُجْتَمَعُ مِنْ أَعْمَالِهِ وَيَسْلُمُ مِنْ شَرِّهِ .



الولاية والبراءة



٤١. وَآل فِي جُمْلَةٍ مِّنْ قَدْ أَطَاعَ وَعَا * دَمَنُ عَصَى جُمْلَةً لِلَّهِ مُمَثَّلًا
 ٤٢. وَكُلُّ مَنِ عَصَمَ الْمَوْلَى وَلَايَتَهُ * فَرَضُ كَعْدُوَانٍ مِّنْ إِيَّاهُ قَدْ خَذَلَا
 ٤٣. وَكُنْ مُوَالٍ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ * حَوَتْهُ طَاعَتُهُ إِلَّا الَّذِي اتَّخَذَلَا
 ٤٤. وَعَادَ فِي الدِّينِ جَبَّارًا وَعَامِلَهُ * وَمَنْ لَهُ فِي سَبِيلِ الْمَكْفِرَاتِ ثَلَا
 ٤٥. لَا كُلُّ مَنِ قَدْ حَوَى سُلْطَانُ عِزَّتِهِ * إِذْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ مُؤْمِنٌ دَخَلَا
 ٤٦. ثُمَّ الْوَلَايَةُ تَوْحِيدًا تَكُونُ وَأُخْرُ * سَرَى طَاعَةً فَرَضَتْ إِنْ شَرَطُهَا حَصَلَا
 ٤٧. كَذَا الْبَرَاءَةُ، وَالشَّرْطُ الَّذِي وَجَبَتْ * بِهِ الْوَلَايَةُ: أَنْ تُلْفِيهِ مُمَثَّلًا
 ٤٨. وَرَبُّنَا لَمْ يَزَلْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِيٌّ * بَيَّا هَكَذَا وَعَدُوا لِلَّذِي نَصَلَا
 ٤٩. وَهَكَذَا أَبَدًا لَيْسَ الزَّمَانُ وَلَا الْ * أَفْعَالُ تَقْدَحُ فِيهِ، خُذَهُ مُنْتَحَلَا
 ٥٠. لَكِنَّا قَدْ تُعَبِّدُنَا بِطَاعَتِهِ * فَكُلُّنَا عَامِلٌ بِمَا لَهُ جُعَلَا
 ٥١. مَعْنَى مُوَالٍ مُّعَادٍ: عَالِمٌ بِهِمْ * وَبِالَّذِي فَعَلُوهُ الْجِدُّ وَالْهَزَلَا



❖ الولاية والبراءة :

الولاية والبراءة على أقسام ، لألّهما إما أن تكونا ولاية جُمْلَة وبراءة جُمْلَة ، أو ولاية أشخاص وبراءة أشخاص ، وولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص إما أن تكونا بحكم الظاهر أو بالحقيقة ، ولم يتعرّض المصنّف - رحمه الله - هنا لبيان أحكام هذه الأقسام طلباً للاختصار ، وتغريلاً على ما ذكره في سائر مصنفاته وشروحه ، وإثماً ذكر بعض المُحمّلات من الأحكام ، فقال في ولاية الجُمْلَة وبراءة الجُمْلَة :

٤١. وَوَالٍ فِي جُمْلَةٍ مَنْ قَدْ أَطَاعَ وَعَا * دِمْنُ عَصَى جُمْلَةٍ لِلَّهِ مُمْتَلَا

❖ وولاية الجُمْلَة هي أوّل ما يجب من صنوف الولاية على الإنسان ، فإنّها تجب على كل مسلم عالماً كان أو جاهلاً ، إذ يجب على كل أحد أن يعتقد أنّه يتولّى جميع أولياء الله من الأولين والآخريين إلى يوم الدين ، ويبرأ من جميع أعداء الله من الأولين والآخريين إلى يوم الدين .

❖ وإثماً ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص فهما إما أن تكونا ظاهريتين أو حقيقيتين ؛

❖ ولاية الظاهر ترتّب على ما يظهر من صلاح الإنسان واستقامته في أقواله وأفعاله ، وكذلك البراءة منه بحكم الظاهر إمّا هي مبنية على وقوعه في مخالفة الحقّ قولاً أو عملاً ، وإصراره عليها ، وثبوت ذلك عليه . وطرق هذه الولاية الظاهرية ثلاث :

- إمّا المُعانيّة ، وهي أن يشهد الإنسان المسلم من غيره ما يدلّ على استقامته من غير خروج عن مسئلك الحقّ قولاً ولا عملاً ، مع المُسارعة إلى التوبة عند الزلل .
- وإمّا الشُهرة ، وذلك بأن يشتهر المرء بالصلاح والاستقامة حتّى تتواطأ الألسن على نقل ذلك عنه .

- وإمّا البينة العادلة ، وهي شهادة العدلين ، واختلف في شهادة الواحد .

وَأَمَّا الْبَرَاءَةُ بِحُكْمِ الظَّاهِرِ فَتَثْبُتُ بِالطَّرِيقِ الْمَذْكُورَةِ مَعَ إِضَافَةِ طَرِيقٍ آخَرَ إِلَيْهَا ،
وَهِيَ : الْإِقْرَارُ بِارْتِكَابِ الْكَبِيرَةِ ، سَوَاءً كَانَتْ قَوْلًا أَوْ عَمَلًا أَوْ اعْتِقَادًا ، وَالْبَيِّنَةُ الَّتِي
تَثْبُتُ بِهَا الْبَرَاءَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَتَيْنِ .

وَلَكِنْ كَانَتْ وَلَايَةُ الظَّاهِرِ وَبَرَاءَةُ الظَّاهِرِ مَبْنِيَّتَيْنِ عَلَى مَا يَظْهَرُ مِنْ صَلَاحِ الْمَرْءِ أَوْ
عَدَمِهِ ؛ فَمِنْ الْوَاجِبِ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا بِصَلَاحٍ وَلَا بِفُجُورٍ : الْوُقُوفُ عَنْهُ ، حَتَّى
يُثْبِتَ مَا يُوجِبُ وَلَايَتَهُ أَوْ مَا يُوجِبُ الْبَرَاءَةَ مِنْهُ .

♦ وَأَمَّا وَلَايَةُ الْحَقِيقَةِ وَبَرَاءَةُ الْحَقِيقَةِ فَلَا تُكُونَانِ إِلَّا بِنَصِّ قَاطِعٍ - مَثَلًا
وَدَلَالَةٍ - يَدُلُّ عَلَى سَعَادَةِ أَحَدٍ بِعَيْنِهِ أَوْ شَقَاوَتِهِ ، سَوَاءً ذَكَرَ بِاسْمِهِ أَوْ بِكُنْيَتِهِ أَوْ بِوَصْفِهِ ،
كَمَا نَرَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنَ النَّصِّ عَلَى :

■ سَعَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ، وَسَعَادَةِ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ،
وَالرَّحُلِ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ .

■ وَشَقَاوَةِ فِرْعَوْنَ وَأَبِي لَهَبٍ وَامْرَأَةِ نُوحٍ وَامْرَأَةِ لُوطٍ وَابْنِ نُوحٍ الَّذِي عَصَى أَمْرَهُ .
ومثل ذلك ما لو ثبت بالتواتر عن النبي ﷺ أن أحدا بعينه من السعداء أو من الأشقياء ،
ولا يكفي في هذا كونه - صلوات الله وسلامه عليه - قد تولد أو أثنى عليه أو أخبر
بصلاحه أو عكس ذلك ، فإنه - عليه الصلاة والسلام - كان يتولى ويرأى بحكم الظاهر
فيمن لم يُوحَ إليه فيه بشيء ، والدليل على ذلك قوله ﷺ : « وَلْيَذَاقَنَّ عَنْ حَوْضِي رِجَالٌ
مَنْ أَمَنِي فَأَنَادِي أَصِيْحَابِي أَصِيْحَابِي ، فَيَقَالُ لِي : لَا تَدْرِي مَاذَا أَحْدَثُوا بِعَدِكَ ، فَأَقُولُ
فَسُحْقًا فَسُحْقًا » وفي رواية : « رِجَالٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي » ، وهو دليل على أنه ﷺ
كان يتولاهم بحكم الظاهر .

والفروق بين ولاية الحقيقة وبرائتها والولاية والبراءة بحكم الظاهر : أن ولاية
الحقيقة وبراءة الحقيقة لا تبدلان ، فالوَلِيُّ بِالْحَقِيقَةِ يَظُلُّ وَلِيًّا وَلَوْ ارْتَكَبَ مَا ارْتَكَبَ مِنْ
الْمَحْجُورَاتِ ، وَإِنْ ارْتَدَّ عَنْ إِسْلَامِهِ ، لِأَنَّ خَيْرَ اللَّهِ لَا يَتَبَدَّلُ ، وَكَذَلِكَ مَا أَخْبَرَ بِهِ
الْمَعْصُومُ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَإِنَّمَا تُنْفَذُ فِيهِ الْأَحْكَامُ الدُّنْيَوِيَّةُ الْمُتَرْتِبَةُ عَلَى أَعْمَالِهِ ، كِلَاقَامَةُ

الحدود وغيرها ، مع الاعتقاد الجازم أن مَبْتَنَّهُ لا تكون إلا مقرونة بخاتمة حسنة ، سواء ظهرت لنا أو خفيت علينا ، وكذلك البراءة بالحقيقة تظل ملازمة للمتمترأ منه ، ولو بدا من أقواله وأعماله أنه أبرُّ أهل زمانه ، لليقين الجازم أنه لن يَمُوت إلا شقياً .

وأما الولاية والبراءة بحكم الظاهر فتبدلان باختلاف حال الشخص المُتَوَلَّى أو المتمترأ منه ، فإذا استقام الفاجر وثبتت عند من كان يتبرأ منه توبته وجبت عليه ولايته ، وكذلك العكس .

وليس في الجملة ولا في الحقيقة وقوف ، لأن ولايتهما وبراءتهما لا تكونان إلا حسب ما في علم الله تعالى ، والله لا تخفى عليه خافية ، وإنما يجب الوقوف في الظاهر عما لم يعرف منه موجب ولاية ولا براءة ، لأن أحكام الظاهر مَنُوطَةٌ بما يبدو من حال الإنسان ، وَمَنْ خَفِيَ أَمْرُهُ فَالْوَقُوفُ هُوَ الْوَاجِبُ فِي حَقِّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الأنعام/ ٣٦] .

وعند التحقيق ينكشف أن ولاية الجملة وبراءتها حكمها حكم الحقيقة ، إذ هما أيضاً لا تبدلان بتبدل أحوال المرء ، لأهما حسب حال المرء عند الله ، وإن كانت ولاية الحقيقة وبراءتها المشهورتان في أشخاص وهاتان في غير مُعَيَّنَيْن ، ويظهر ذلك في كون ولي الحقيقة لا يمكن أن يكون عدواً في الجملة وكذا العكس ، أما الولي بحكم الظاهر فقد يكون عدواً في الجملة وكذا العكس ، لاحتمال أن يكون أمره عند الله بخلاف ما يبدو من حاله للناس .

هذا ولا خلاف في أن على الإنسان أن يتولى جميع أولياء الله من الأولين والآخرين إلى يوم الدين ، كذلك أن يبرأ من جميع أعدائه ، وإنما الخلاف في ولاية الأشخاص وبراءتهم ، فَذَهَبَ إِلَى وَجُوبِهِمَا أَصْحَابُنَا بِغَيْرِ خِلَافٍ ، ووافقهم عليهما بعض أصحاب المذاهب الأخرى ، وخالفهم آخرون ، والدليل عليهما واضح ، فإن الله أوجب على المؤمنين أن يتولى بعضهم بعضاً حيث قال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة/ ٧١] ، وهؤلاء هم الْمُؤْمِنُونَ بدين الله ، بدليل قوله في الآية

نفسها : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [النوبة/ ٧١] .

وما ذكره من أوصاف المؤمنين في آيتي الأنفال والمؤمنون ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة/ ٥٥] . وقال النبي ﷺ : « ترى المؤمنين في ترادهم وتراحهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر » .

لا يقال : إن هذا الواجب إنما هو في حملة المؤمنين لا في أفرادهم ، فلا دليل فيه على ولاية الأشخاص ؛ لأننا نقول : إن الوصف المُجْمَل لا بد من أن ينطبق على الأشخاص ، فصفة الإيمان والالتزام بمقتضياته ليست أمراً مثالياً لا يلزمه الإنسان في حياة إخوانه المؤمنين ، وإنما هو أمر واقعي يتجسد في حياة المتقين ، فمن وجد فيه وجبت على الكل ولايته .

على أن هذه الولاية ليست فيضاً من مشاعر الرحمة والود فحسب ، بل هي تتجسد في الأعمال والأقوال أيضاً ، كالمناصرة والدعاء بالرحمة ، ولذلك كانت رابطة بين المؤمنين تجمع شتاتهم وتنظم أفرادهم ، حتى تكون جماعتهم ظاهراً أمراً ، متمكنة من رقاب أعدائها ، كما يوحى به قوله ﷺ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة/ ٥٦] .

ومما يؤكد ذلك أن الله سبحانه فرض على عباده المهاجرين والأنصار الذين ربطتهم رابطة الإيمان وانتظمتهم نصرته الله ورسوله والجهاد في سبيله بأموالهم وأنفسهم أن يتولى بعضهم بعضاً ، ولم يجعل نصيباً من هذه الولاية لمن لم يهاجر من المؤمنين ، إلا في نصرته إن استنصر على من لم يكن بينه وبينهم ميثاق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَتَصَرَّوْا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ [الأنفال/ ٧٢] .

ثم إنه سبحانه يبين انحصار ولاء الكفار بعضهم لبعض، حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال/ ٧٣] ، ومعنى ذلك أنه لا يتولاهم إلا من كان مثلهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَبِإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ [المائدة/ ٥١] ، وأتبع ذلك ما يترتب على ترك المؤمنين لهذا الواجب حيث قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال/ ٧٣] .

أما البراءة من الأشخاص فدليلها قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ ، إلى أن قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [المنحة/ ٤-٦] ، ومن المعلوم أن براءة إبراهيم ومن معه إنما كانت من أشخاص بأعيانهم ، ومن بينهم أبو إبراهيم ، وقد أوجب الله على المؤمنين التماسي بهم ، حيث قال أولاً: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ .

ومفهوم ذلك أن مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ هَذِهِ الْأُسْوَةُ فَلَيْسَ هُوَ مِمَّنْ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وزاد ذلك تأكيداً قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ، فإن مثل هذا القول لا يَخْرُجُ إِلَّا مَخْرَجَ التهديد لِمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الاتِّبَاعِ .

فإن قيل : إن إبراهيم وَمَنْ مَعَهُ تَبَرَّأُوا مِنَ الْقَوْمِ الْمُشْرِكِينَ ؛ فلا يقوم من هذا دليل على البراءة من أصحاب الكبائر دون الشرك ، كقتل النفس بغير حق والزنا وأكل الربا وسائر أنواع الظلم والفسوق .

قلنا : إن هذه كبائر تَوَعَّدَ اللَّهُ عَلَيْهَا ، وقد جاء في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ ما يدل على استحقات فاعلها سَخَطَ اللَّهُ وَوَعِيدَهُ ، ولا شك أن الإقدام عليها والإصرار على مقارفتها عصيانٌ لأمر الله تعالى وفسوقٌ عن دينه ، وقد أختبر سبحانه في كتابه أنه حَبِيبٌ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَكَرَّةً إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، وذلك قوله: ﴿وَلَكِنْ

اللَّهُ حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ [المحرمات/٧] . وَمِنْ شَأْنِ كَرَاهَةِ الْفِعْلِ كَرَاهَةُ فَاعِلِهِ .

ويؤكد ذلك ما جاء على لسان رسول الله ﷺ مما يدل على براءته ممن فعل الكبائر دون الشرك ، كقوله : « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا » ، وقوله : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ » . ومثله ما جاء على لسانه مِنْ لَعْنِهِ مَنْ أَتَى بعض الكبائر ، كَلَعْنِهِ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالتَّشَبُّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ ، كما في حديث ابن عباس عند البخاري ، وكقوله : « لَعَنَ اللَّهُ الرَّبَا وَآكِلَهُ وَمُوكَلَّهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَهُ » ، وقوله : « لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ » .

فلا رَيْبَ فِي كَوْنِهِ ﷺ بَرِيئاً مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ وَفَاعِلِهَا ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ فِيهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب/٢١] .

ثُمَّ إِنَّ الْمَصْنَفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَشَارَ إِلَى وَلايَةِ الْحَقِيقَةِ وَبَرَاءَتِهَا بِقَوْلِهِ :

٤٢ . وَكُلٌّ مِنْ عَصَمِ الْمَوْلَى وَلَايَتُهُ فَرَضَ كَعُدْوَانٍ مِنْ إِيَّاهُ قَدْ خَذَلَا

وبعني به أن ولاية الحقيقة فريضة على المؤمن لكل من عصمه الله من الهلاك ، سواء كانت هذه العصمة عصمة من الوقوع في الأعمال المهلكة كعصمة الملائكة ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم/٦] ، وقال فيهم : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء/٢٧] ، وقال فيهم أيضاً : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ ﴾ [الأنبياء/٢٠] .

ومثلهم الأنبياء والمرسلون ، فَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ ، وَأَنَّهُمْ مِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَحْيَارِ ، مَعَ مَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ مِنْ قَوْلِهِ لِإِبْلِيسَ - لَعْنَهُ اللَّهُ - : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [المحر/٢٤] ، وهؤلاء هم من أحص عبادَه ، فلا سلطان للشيطان عليهم ، وأما ما كان من عتاب الله لبعضهم وذكر

اعترفهم بذنوبهم ونسبة العصيان إليهم فإنما ذلك لعلو قدرهم ، فالصغير في حق غيرهم كبير في حقهم ، وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فما بالك بالمرسلين الذين هم أشد قرباً وأقرب منزلةً وأحلُّ قدرًا ؟ وعلى أي حال فهم لا يُقَرُّون على باطل ولا يُصِرُّون على ما فعلوا ، وإنما تتحدد توبتهم إلى الله في كل حين .

أو كانت عصمة من الموت على ما يسخط الله من المعتقد الباطل أو العمل الفاسد أو القول المنكر ، كما هو شأن الذين كتب الله لهم النجاة من الردى ، فأنقذهم من الضلال إلى الهدى ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وباعدتهم من الغي والفساد ، ومن هؤلاء من كان من قبل على ملة الإشراك بالله فأنقذه الله منها كسحرة فرعون .

وبالجملة فإن كل من ثبتت عصمته من الهلاك بالدليل القطعي أو ثبت رضى الله تعالى عنهم أو أنهم من أوليائه وأصفيائه ، أو أنهم من حزبه المقربين ؛ فهم أولياء بالحقيقة سواء كانوا غير معينين بأشخاصهم كعموم الملائكة وحلة الأنبياء والمرسلين ، أو كانوا معينين كالمتنصوص عنهم من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، ومثل ذلك امرأة فرعون ومريم ابنة عمران والرجل الذي جاء من أقصى المدينة وهو يسعى أمراً قوم به باتباع المرسلين .

ويقابل هذه الولاية ما يجب من براءة الحقيقة من كل من ثبت عذلان الله تعالى له وسخطه عليه ، وأنه من أهل العذاب ، سواء كانوا غير محصورين كالشياطين وأوليائهم الذين ماتوا على كفرهم وفسقهم ، أو كانوا مذكورين بأسمائهم كفرعون وقارون وهامان ، وبنعوتهم وأوصافهم كأصحاب الأخدود والذي آتاه الله آياته فانسلك منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، وكذلك امرأة نوح وامرأة لوط ، أو بالكنى كأبي لهب ، وقد سبق بيان هذا القسم من الولاية والبراءة كسائر الأقسام مع بيان طائفة مما يتعلق به من الأحكام .

٤٣. وَكُنْ مُوَالٍ إِمَامٍ مُسْلِمٍ وَمَنْ حَوَتْهُ طَاعَتُهُ إِلَّا الَّذِي الْخَزَلَا

يعني أن من الواجب على المسلمين أن يوالوا إمامهم الشرعي الذي اختير للإمامة وبويع بيعة شرعية من قبل أهل الحل والعقد من المسلمين ، والتزم العمل بكتاب الله وسنة رسوله - عليه أفضل الصلاة والسلام - ، فإن ولايته واجبة على الأمة كطاعته ، ما لم يُحدث حدثاً ينقض هذه الولاية ويسقط طاعته عن رقاب العباد ، لأن طاعته وولايته كليهما مرهونان بطاعته هو لربه ووفائه بعهده ، والتزامه ما التزمه من القيام بأمر المسلمين وفق نظام الحق وطبق معايير العدل .

فإن حاد عن ذلك كان كفره في وجوب إنزاله حيث أنزل نفسه ، فتجب استنابته ، فإن تاب قبلت توبته واستمرت ولايته وبقيت إمامته ، إلا أن يكون الحدث الذي ارتكبه موجباً لإقامة حد عليه ، فهذا يجب على جماعة المسلمين بعد ثبوت ذلك الحدث عليه أن يخلعوا طوق الإمامة عن رقبة ، ويختاروا من المسلمين من يتولى هذا المنصب فيقيم عليه الحد الواجب ، لأنه وغيره في حدود الله سواء ، فإن تاب قبلت توبته ، ولكنه يظل غير أهل للإمامة ، وقيل بل على جماعة المسلمين إقامة الحد عليه واستنابته ، فإن تاب قبلت توبته وعادت إليه الولاية واستمرت إمامته فيهم .

والقول الأول هو الأرجح ، نظراً لما لمتصّب الإمامة من قدر ، ولا ريب أن ارتكاب الإمام موجب الحد وظهور ذلك بين الناس حيث أنزل به ما يستحقه من العقاب يجعله عرضة لسخرية الساعرين وتندّر سفهاء الناس ، فلا تبقى له في نفوسهم هبة ، وذلك مناف لما يجب أن يكون عليه الإمام من الهيبة والوقار وتقدير عامة الناس وخاصتهم له ، فيدون ذلك ينحل النظام وتعم الفوضى .

وإن كان ما أتاه من حدث لم يطلع عليه إلا أحد بعينه من المسلمين ؛ كان على ذلك أن يصارحه بما اطلع عليه ، وأن يطلب منه التوبة إلى الله والرجوع إلى الحق ، فإن تاب قبل منه ، وإن أصر تبرأ منه سرّاً ، لتلاييح البراءة من نفسه ، وأبقى له الطاعة فيما إذا لم يأمره بمعصية الله تعالى ، حفاظاً على وحدة الأمة واستقامة أمرها .

وقوله : «ومن حوته طاعته» يعني وجوب ولاية من كان من رعايا إمام المسلمين مُنفاداً لحُكمِهِ مُذْعِناً لطاعته ، لَمْ تَبْدُرْ مِنْهُ بَادِرَةٌ سَوْءٌ ، وَلَمْ يُخَالَفْ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى ، لأن من كان كذلك فهو من أهل الاصطفاء ، لأن سيرته تُرْتَضَى وقد نَهَجَ منهج الحق .
فإن قيل : ما وجه تخصيص من كان من رعايا إمام المسلمين بهذا الحكم ، مع أن الولاية حق لكل من استقام على الطريقة ولو كان من رعايا الجبارين ؟

قلنا : هذه هي ولاية بَيُضَةِ المسلمين ، لأن الأصل في جماعة المسلمين - مع استتباب الحكم الشرعي وإقامة حدوده ، وتنفيذ الأحكام على القوي والضعيف - أن تكون أحوال المسلمين في إطار دولتهم على نهج الاستقامة ، إلا مَنْ بَدَرَتْ مِنْهُ بَادِرَةٌ سَوْءٌ فَظَهَرَتْ مُخَالَفَتُهُ لأحكام الدين أو تَمَرُّدُهُ على إمام المسلمين ، فالواجب في حقه ما هو حقيق بأمثاله من البراءة والإبعاد عن هذا التكريم ، لأنه انْخَزَلَ - أي انقطع - عن ركب جماعة المسلمين ، وهو معنى استثناء المصنف - رحمه الله تعالى - حيث قال : «إلا الذي انْخَزَلَ».

٤٤. وَعَادِ فِي الدِّينِ جَبَّارًا وَعَامِلًا وَمَنْ لَهُ فِي سَبِيلِ الْمَكْرِفَاتِ ثَلَاثَا
 ٤٥. لَا كُلُّ مَنْ قَدْ حَوَى سُلْطَانُ عَزِيْزِهِ إِذْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ مُؤْمِنٌ دَخَلَ

كما تجب ولاية الإمام العادل تجب البراءة من ضده وهو الإمام الجائر ، لفساده وجوره ، وكذا كل من شدَّ أزرَهُ وَأَعَانَهُ عَلَى بَطْشِهِ وَظَلَمِهِ ، وهو المراد بـ «عامله» .
 ولكن لا ينطبق هذا الحكم على جميع الذين شَمِلَهُمْ حُكْمُهُ وَكَانُوا لَهُ رَعِيَّةً ، فقد يضطر الصالحون إلى العيش تحت نير أهل الظلم والاستبداد ، كما كان ذلك في عهد بني أمية ، فكم من صالح اضطرته الأقدار إلى العيش تحت سلطنتهم ، وإلى اتقاء بطشهم وظلمهم ، وَنَاهِيكَ بِمَنْ كَانَ تَحْتَ وَطْأَتِهِمْ مِنْ خِيَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، كعبدالله بن عُمَرَ وعبدالله بن عباس وأنس بن مالك وجابر بن زيد وجعفر بن السَّعَّاء وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وضُمام بن السائب وأبي الحرِّ علي بن الحصين وأبي نوح صالح الدهان

وغيرهم من أهل البر والصلاح والتقوى ، كما وُجِدَ ذلك في الأمم السابقة كأمراء فرعون ومؤمن آل فرعون ، فلا يَضِيرُ أحداً في دينه أن تُغْلَوْهُ يَدُ حَبَّارٍ مَفْسِدٍ مع استقامته على الحق وعدم تفريطه فيما بينه وبين ربه .

والمراد بولاية الإمام العدل والبراءة من إمام الجور : إمام الزمان ، فإن على المسلم أن يكون عالماً بِحَالِ إمام زمانه ، لطبيعته إن كان من أهل الطاعة ، ويَحْذَرُهُ إن كان من أهل الجور ، وكذلك تَجِبُ ولاية من اشتهر بالصلاح والعدل والتقوى من الأئمة الغابرين والبراءة من أضدادهم .

❁ أقسام الولاية والبراءة :

٤٦. ثُمَّ الْوَلَايَةُ تُوَحِّدًا تُكُونُ وَأُخْتُ * رَى طَاعَةً فُرِضَتْ إِنْ شَرَطَهَا حَصْلًا
٤٧. كَذَا الْبَرَاءَةُ ، وَالشَّرْطُ الَّذِي وَجَبَتْ بِهِ الْوَلَايَةُ أَنْ تُلْفِيهِ مُمَثِّلًا

يعني أن الولاية تنقسم إلى قسمين : منها ما يكون مقروناً بتوحيد الله تعالى ، لأنه ممّا يندرج في الاعتقاد ، ومنها ما يكون من ضمن الطاعات ، لأنه ممّا يندرج في الأعمال ، وكذلك البراءة .

فولاية الجملة وبراءة الجملة داخلتان في الاعتقاد المفروض على العباد ، وكذلك ولاية الحقيقة وبراءة الحقيقة ، لأنهما لا تَجِبَانِ إلا بنصٍّ قطعي ، فتركهما إنكار للنص وإعراض عنه ، ولذلك يكفر كافر شرك من أنكر ولاية الجملة وبراءتها ، أو ولاية الحقيقة وبراءتها .

وذلك بخلاف ولاية الظاهر وبراءته ، فمن أنكرهما فهو فاسق ، وكُفْرُهُ كُفْرُ نعمة لا يخرج من ملة الإسلام ، والإتيانُ بِهِمَا من الطاعات العملية ، وتركهما من المعاصي ، وقد سبق أن الولاية مشروطة بامتنال مَنْ تتولاه أَمَرَ الله تعالى فعلاً وتركاً ،

وهو معنى قول المصنف - رحمه الله تعالى - : « والشرط الذي وجبت به الولاية أن تلتفيه مُمْتَثِلًا » .

- ٤٨ . وَرَبُّنَا لَمْ يَنْزِلْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِيًّا * يَا هَكَذَا وَعَدُوا لِلَّذِي نَصَلَا
٤٩ . وَهَكَذَا أَبَدًا لَيْسَ الزَّمَانُ وَلَا الْ

يعني أن ولاية الله لأوليائه وعداوته لأعدائه أزليتان لا تبدلان بتغير الأحوال ولا بتقلب الأزمان ، فإن الله لَمْ يَنْزِلْ عليهما بأحوال عباده ، وما سيؤول إليه أمر كل أحد منهم من صلاح الصالحين ورشد الراشدين ، أو فساد المفسدين وضلال الغاوين .

فهو تعالى وَلِيٌّ لأوليائه الذين علم انقلاب أمرهم إلى الصلاح والتقوى ، وإن كانوا قبل ذلك على فجور وضلال كسحرة فرعون ، فلأنهم أولياء الله ﷻ حتى حين عتوهم في الكفر ، عندما انبروا لِمُعَالِيَةِ موسى عليه السلام رغبة في إزهاق الحق الذي جاء به ، وهو عَدُوٌّ لأعدائه الذين علم أنهم سينقلبون إلى الفساد والغي ، حتى في حين عبادتهم له وامتناعهم أوامره ، كإبليس فإنه عَدُوٌّ لله قبل طرده ، كما أنه عَدُوٌّ له بعد طرده ، وَلَمْ تُغْنِ عنه من الله عبادته شيئاً ، وكالذي آناه الله آياته فانسلك منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، فهو عَدُوٌّ لله قبل تَلْبِسِهِ بهذه الضلالة ، كما أنه عَدُوٌّ له بعدها .

وبهذا يتبين أن ولاية الله لعباده أزلية أبدية ، وكذا عداوته للمجرمين ، لا يؤثر عليهما ما يحدث منهم من أفعال الخير أو الشر ، لأن خاتمة كل منهم معلومة له تعالى ، وَبِحَسَبِهَا كانت ولايته لمن تولاه وعداوته لمن عاداه .

- ٥٠ . لَكِنَّا قَدْ تُعَبَّدْنَا بِطَاعَتِهِ فَكُلُّنَا عَامِلٌ بِمَا لَهُ جُعِلَا

يعني أن الله سبحانه وتعالى تعبدنا بطاعته ، مع علمه سبحانه بِمَصِيرِ كل منا ، وولايته لمن صلح وبراءته من المفسدين ، وما منا إلا هو عامل بِمَا جُعِلَ له - أي خُلِقَ - كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ عندما قيل له : أفلا تتكلم ؟ فقال : « اعْمَلُوا ؛ فَكُلُّ

مُسْتَرٍّ لِمَا خُلِقَ لَهُ » ، ذلك لأن صلاح مَنْ صلح وفساد مَنْ فسَدَ لَمْ يكن إلا بِمَا اختاره لنفسه ، نسأل الله تعالى العافية في الدارين .

٥١. مَعْنَى مُوَالٍ مُعَادٍ عَالِمٍ بِهِمْ وَبِالَّذِي فَعَلُوهُ الْجِدُّ وَالْهَزْلُ

هذا بيان لمعنى ولاية الله تعالى لأوليائه وعداوته لأعدائه ، فإنهما راجعتان إلى علمه بِخَاتِمَةِ كُلِّ مِنْهُنَّ وَمَالِهِ فِي الْآخِرَةِ ، وعليه فهما صفتا ذات ، وقيل المراد بولايته : توفيقه للصالحين منهم ؛ وبرأته : خذلانه للمجرمين ، وعليه فهما صفتا فعل .
وقول المصنف - رحمه الله - : «وبالذي فعلوه الجِدُّ والهزل» مُرَادُهُ : الذي يفعلونه ، وإِنَّمَا عُبِّرَ بِالْمَاضِي عَنْ الْمَضَارِعِ لِأَجْلِ تَحَقُّقِ مَضْمُونِهِ ، فَإِنْ مَا عَلِمَ اللَّهُ وَقَوَّعَهُ لَا يَدُّ مِنْهُ .

وَالْجِدُّ وَالْهَزْلُ مَعْرُوفَانِ ، وَهُمَا ضِدَّانِ ، وَهُمَا هُنَا بَيَانٌ لِمَا أَجْمَلَهُ الضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ فِي فَعْلُوهُ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْجِدُّ بَدَلًا مِنْهُ وَالْهَزْلُ مَعْطُوفًا عَلَيْهِ .

مركز تحقيقات کامیوتر علوم اسلامی



ذِكْرُ الْكُفْرِ

وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ

❁ قَوَاعِدُ الْكُفْرِ

❁ أَرْكَانُ الْكُفْرِ







٥ ٤ ٣ ٢ ١

ذِكْرُ الْكَفْرِ

وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ



مَرْكَزُ تَحْقِيقِ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ



٥٢. وَالشِّرْكَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُعْرِفَنَّهُ لِكَيْ
 ٥٣. وَهُوَ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ اللَّهِ - جَلَّ - وَبَيْنَ *
 ٥٤. وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُفْرَانِ يَلْزَمُنَا
 ٥٥. مَا لَمْ نَكُنْ رَاكِبِيهِ أَوْ نُصَوِّبُ مِنْ
 نَكُونُ فِي مَقْعَدٍ عَنْ غَيْهِ اغْتَرَلَا
 مِنَ الْخَلْقِ أَوْ جَحْدُهُ مُبْحَاهُ وَعَلَا
 أَيُّ عِلْمُهُ إِنْ عَلِمْنَا حُكْمَهُ الْقَصْلَا
 يَأْتِيهِ عَمْدًا وَجَهْلًا ، هَكَذَا نُقْلَا



﴿ ذَكَرَ الْكُفْرَ وَمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ﴾

الْكُفْرُ لُغَةً : هو التغطية ، ولذلك سُمِّيَ الزارعُ كافرًا ، لأنه يُغَطِّي البَذْرَ بِإلقاء التراب عليه ؛ قال تعالى : ﴿ أَغْحَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد/ ٢٠] . ومن شواهد قول الشاعر :

* أَلْقَتْ ذُكَاءَ يَمِينِهَا فِي كَافِرٍ *

يعني به غروب الشمس ، ف «ذُكَاءُ» هي الشمس ، وإلقاؤها يَمِينِهَا في كافرٍ: كناية عن استئثارها وراء الأفق في الغروب . ومنه قول لبيد :

يَعْلُو طَرِيقَهُ مَشْيَهَا مُتَوَاتِرًا فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومُ غَمَامُهَا
وهو في الاصطلاح كُفْرَانٌ : كفرٌ بالله وكفرٌ بنعمته .

♦ فالْكُفْرُ بالله : هو الإشراك به سبحانه ، وهو مُخْرِجٌ من مِلَّةِ الإسلام ، وسيأتي - إن شاء الله - بيانه قريبًا مَقْرُونًا بِحُكْمِهِ في شرح كلام المصنف .

♦ وأما الْكُفْرُ بِنِعْمَتِهِ تعالى : فهو صَرْفٌ ما أُنْعِمَ بِهِ عَلَى عبده من نعمه الظاهرة أو الباطنة إلى ما لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجَلِهِ من الطاعة ، ويكون ذلك بالإعراض عن مفروضاته تعالى أو ارتكاب محظوراته ، وهو بهذا المعنى نقيضُ الشُّكْرِ ، لأنَّ الشُّكْرَ صَرْفُ العبد ما أنعم الله به عليه من النعم في طاعته .

ومن أدلته قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان/ ٣] وقوله حِكَايَةً عن مُلِيمَانَ عليه السلام : ﴿ لِيَلُونِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل/ ٤٠] ، وقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم/ ٧] ، وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران/ ٩٧] ، وذلك أَنَّهُ جَعَلَ تَرْكَ الْحَجِّ كُفْرًا .

وقد وردت به أحاديث كثيرة ، حتى إن مسلماً أفرد له باباً في صحيحه ، وترجم له البخاري بقوله : (كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ) . ومما جاء فيه قول النبي ﷺ : « سَبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » ، وقوله : « لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » ، وَمَا رَوَاهُ الرَّبِيعُ - رحمه الله - مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : « مَنْ أَتَى رَجُلًا شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ أَوْ أَتَى النِّسَاءَ فِي أَعْمَارِهِنَّ فَقَدْ كَفَرَ » ، وقوله : « لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْكَفْرِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ » وفي روايةٍ غَيْرِ الرَّبِيعِ : « بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْكَفْرِ » . وحديثُ بُرَيْدَةَ عِنْدَ الْجَمَاعَةِ إِلَّا الْبُخَارِي : « الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ » .

وَيَخْتَلَفُ هَذَا الْكُفْرُ عَنْ سَابِقِهِ بَأَنَّهُ لَا يُخْرِجُ صَاحِبَهُ مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ يُعَامَلُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي الْوَلَايَةِ ؛ فَإِنَّهَا اصْطِفَاءٌ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ ثَبَتَ صَلَاحُهُ وَتَقْوَاهُ .

وقد أُنْبِتَهُ أَصْحَابُنَا - رحمهم الله - باتفاقٍ ، وقال به كثيرٌ من أهل الحديث وجماعة من الْمُحَقِّقِينَ ، وَأَنكَرَهُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ غَيْرِنَا ، وَقَدْ حَارَرُوا فِي فَهْمِ هَذِهِ النُّصُوصِ وَمَا تُحْمَلُ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْمُبَالِغَةُ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَعْمَالُ هِيَ فِي الْأَصْلِ أَعْمَالُ الْكَفَرَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهَا عَلَى مَنْ أَتَى بِمَا ذُكِرَ مُسْتَحْبِلًا ، وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ كَالْحَنَابِلَةِ إِلَى أَنَّ تَارِكَ الصَّلَاةِ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ كُفْرُهُ كُفْرٌ مِلَّةً ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يُعَامَلُ مَعَامَلَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وهذا كُلُّهُ فِرَارٌ مِنَ الْوَاضِحِ إِلَى الْمَشْكِلِ ، فَإِنَّ الدَّلَائِلَ قَائِمَةً عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكَفْرِ فِيمَا ذُكِرَ كُفْرُ النُّعْمَةِ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْعِبَادَةُ هِيَ مُنْتَهَى الْخُضُوعِ وَالتَّوَاضُعِ وَالْإِنْقِيَادِ ، وَخُلِقَ لَهُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، وَسُخِّرَ لَهُ مَا فِي الْوُجُودِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ عَوْنًا عَلَى الْقِيَامِ بِحُقُوقِ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّهُ هُوَ شَدِيدُ فَسْخَرِ شَيْئًا مِنْ طَاقَاتِهِ أَوْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْهَبَاتِ الْأُخْرَى لِلِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ ذَلِكَ جَحْدًا مَعْنَوِيًّا لِمَا أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ النُّعْمَةِ الَّتِي انْحَرَفَ بِهَا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ، وَهُوَ عَيْنُ

الكفر لُغَةً ، فَإِنْ هُوَ أَصْرٌ عَلَى ذَلِكَ كَانَ حَقِيقًا يوصف الكفر ، وبهذا يتبين لك أَنَّ الإصرارَ على أيِّ كبيرةٍ هو كفرٌ بنعمته سبحانه ، سواء كانت فعلاً أو تركاً .

هذا ؛ وقد بين المصنّف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - النوعَ الأكبرَ من الكفر وهو الشُّرْكُ حيث قال :

٥٢. وَالشُّرْكُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَعْرِفَهُ لِكَيْ تَكُونَ فِي مَقْعَدٍ عَنْ غِيهِ اغْتِرَلا
٥٣. وَهُوَ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ اللَّهِ - جَلَّ - وَبَيْنَ * مِنَ الْخَلْقِ أَوْ جَعْدُهُ سُجَّالُهُ وَعَلَا

بمعنى أَنَّهُ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مَعْرِفَةِ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ ، لِأَجْلِ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى عَنْهُ ، وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ : شُرْكٍ مُسَاوَاةٍ وَشُرْكٍ جُحُودٍ .

♦ **فَالْمُسَاوَاةُ :** أَنْ يُسَوَّى بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي شَيْءٍ ، فَمَنْ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَقَدْ سَوَّى بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ غَيْرِهِ ؛ إِذْ جَعَلَ الْأُلُوهِيَّةَ مُشْتَرَكَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَرِيكِهِ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُعِينًا أَوْ وَزِيرًا أَوْ مُشِيرًا فَقَدْ سَوَّى بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فِي الْاِحْتِيَاجِ إِلَى مَنْ اِحْتِيَاجٌ إِلَيْهِ ، وَكَذَلِكَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ صَاحِبُهُ أَوْ وَلَدًا فَقَدْ سَاوَاهُ تَعَالَى بِغَيْرِهِ فِي ذَلِكَ ، وَمِثْلُهُ إِنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ حَدَثٌ أَوْ قَانٌ ، أَوْ وَصَفَهُ بِأَيِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ ، فَقَدْ سَاوَاهُ تَعَالَى بِخَلْقِهِ فِي الْاِتِّصَافِ بِتِلْكَ الصِّفَةِ .

♦ **وَأَمَّا الْجُحُودُ :** فَهُوَ أَنْ يَجْحَدَ وُجُودَ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ مَا عُرِفَ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، كَأَنْ يَجْحَدَ كَوْنَهُ عَالِمًا أَوْ كَوْنَهُ سَمِيعًا أَوْ بَصِيرًا أَوْ قَدِيرًا ، أَوْ يَجْحَدَ خَلْقَهُ الْخَلْقَ أَوْ إِمَانَتَهُمْ ، أَوْ بَعْثَ الْعُقَلَاءِ وَحِسَابَتَهُمْ ، أَوْ أَنْ يَجْحَدَ إِثَابَهُ لِلْمُطِيعِ وَعِقَابَهُ لِمَنْ عَصَاهُ ، أَوْ يَجْحَدَ إِنْزَالَهُ لِلْكِتَابِ أَوْ إِرْسَالَهُ لِلرُّسُلِ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَا لَوْ جَحَدَ وَلَوْ رَسُولًا وَاحِدًا أَوْ كِتَابًا وَاحِدًا مِمَّا تَبَيَّنَتِ الْحُجَّةُ بِهِ ، أَوْ يَجْحَدَ حُكْمًا مِنَ اللَّهِ أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ ، أَوْ غَيْرَ أَخْبَرَ بِهِ ، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ يَكُونُ فِي عِدَادِ الْمُشْرِكِينَ .

وهذا التقسيم ليس مَنصُوصاً عليه ، وإنما هو اصطلاح لأصحابنا ، وإلا فَيُمْكِنُ عند التحقيق أن يُرَدَّ الشُّرْكُ كُلُّهُ إلى المساواة أو إلى الجحود .

والأصل في الإِشْرَاقِ لُغَةً : جَعَلَ شَرِيكَاً لِأَحَدٍ . والكُفْرُ يشملُ الإِشْرَاقَ كما يشملُ كُفْرَ النِّعْمَةِ ، وإنما هو في الإِشْرَاقِ أَغْلَظُ ، فهو مُخْرِجٌ مِنْ مِلَّةِ الإِسْلَامِ ، فَلَا تَوَاصُلَ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُسْلِمِينَ بِجَوَازِ تَنَاقُحٍ وَلَا تَوَارُثٍ وَلَا دَفْنٍ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا الْقِيَامَ بِأَيِّ حَقٍّ مِنْ حَقُوقِ الْمَوْتَى إِلَّا الدَّفْنَ .

٥٤ . وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُفْرَانِ يَلْزَمُنَا
أَيُّ عِلْمِهِ إِنْ عَلِمْنَا حُكْمَهُ الْقَصْلَا
٥٥ . مَا لَمْ نَكُنْ رَاكِبِيهِ أَوْ نُصَوِّبُ مَنْ
يَأْتِيهِ عَمْدًا وَجَهْلًا ، هَكَذَا نَقْلًا

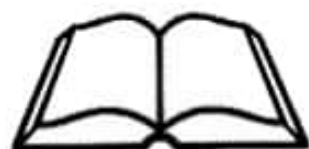
يعني أن ما عدا الشُّرْكَ مِنَ الْكُفْرِ - وهو كُفْرُ النِّعْمَةِ السَّالِفُ الذِّكْرُ - يَلْزَمُنَا عِلْمُهُ بِقِيَامِ الْحُجَّةِ بِهِ ، وَاخْتِلَافَ فِيمَنْ تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ فِيمَا يَسَعُ جَهْلُهُ نَحْوَ هَذَا ، فَقِيلَ لَا تَقُومُ إِلَّا بِعَدْلَيْنِ ، وَقِيلَ بَلْ تَقُومُ بِعَدْلٍ وَاحِدٍ .

وَمُرَادُهُ بِهَذَا جَمِيعُ الْمَحَارِمِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الَّتِي هِيَ دُونَ الْإِشْرَاقِ ، وَهِيَ كَالزُّنَا وَأَكْلِ الرِّبَا وَقَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَشُرْبِ الْخَمْرِ وَعَقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَقَطْعِ الرَّحِمِ ، وَالسَّرْقَةِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَالغِيْبَةِ وَالنِّمِيسَةِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ وَالتَّحَسُّسِ عَلَى الْعَوْرَاتِ ، وَالسُّخْرِيَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ الْمُؤْمِنَاتِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِمَّا يَسَعُ الْمُسْلِمَ جَهْلُهُ مَا لَمْ تَقُمْ الْحُجَّةُ بِهِ ؛ إِلَّا إِنْ ارْتَكَبَهُ ، أَوْ تَوَلَّى رَاكِبَهُ ، أَوْ تَبَرَّأَ مِنْ عَالِمٍ تَبَرَّأَ مِنْ رَاكِبِهِ ، أَوْ وَقَفَ عَنْ وِلَايَتِهِ بِسَبَبِ بَرَاءَتِهِ تِلْكَ ، فَبِكُلِّ ذَلِكَ يَضِيقُ عَلَيْهِ جَهْلُهُ وَيَجِبُ عَلَيْهِ عِلْمُهُ ، فَتَقُومُ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ عِنْدَئِذٍ بِأَيِّ مُعَبَّرٍ يُعَبَّرُ لَهُ عَنْ حُكْمِهِ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا ، كَمَا شَرَحَهُ الْإِمَامُ أَبُو سَعِيدٍ فِي اسْتِقَامَتِهِ ، وَبَسَطَهُ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مَشَارِقِهِ ، وَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ كُلُّهُ الْأَثَرُ الْمَرْوِيُّ عَنْ الْإِمَامِ أَبِي الثَّعْنَانِ جَاهِرِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ قَالَ : « يَسَعُ النَّاسَ جَمِيعًا جَهْلُ مَا ذَاتُوا بِتَحْرِيمِهِ ؛ مَا لَمْ

يَرْكَبُوهُ أَوْ يُصَوِّبُوا رَاكِبَهُ أَوْ يَتَّبِعُوا مِنْ عَالِمٍ نَبَأً مِنْ رَاكِبِهِ أَوْ يَقِفُوا عَنْهُ « ، وَحُكْمِي
 انْعِقَادُ الْإِجْمَاعِ عَلَيْهِ .



قواعد الكفر



٥٦. جَهْلٌ ، حَمِيَّةٌ ، كِبَرٌ ، بَعْدَهُ حَسَدٌ قَوَاعِدُ الْكُفْرِ ، فَاحْذَرُ دَاءَهَا الْعُضَالَا



❁ قَوَاعِدُ الْكُفْرِ :

٥٦. جَهْلٌ ، حَمِيَّةٌ ، كِبَرٌ ، بَعْدَهُ حَسَدٌ قَوَاعِدُ الْكُفْرِ ، فَاحْذَرُ دَاءَهَا الْعُضَالَا

القَوَاعِدُ جَمْعُ قَاعِدَةٍ ، وهي الأصلُ . يعني أن أصول الكفر بِقِسْمَيْهِ -- وهما الشرك وكفر النعمة -- أربعة : وهي الجَهْلُ والحَمِيَّةُ والكِبَرُ والحَسَدُ .
وقد حَذَرُ المصنَّفُ - رحمه الله - من داء هذه العِلَلِ العُضَلِ أي العُضَالِ ، والدَّاءُ العُضَالُ هو المرض الذي أَعْيَا الأطباءَ علاجُه ، وقد عَدَّها كذلك لأنها مُهْلِكَةٌ لِمَنْ لَمْ يتَخَلَّصْ منها بتوفيق الله تعالى إِيَّاه .

♦ وأوَّلُها : الجَهْلُ ؛ وهو عَدَمُ المَعْرِفَةِ بِمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعْرَفَ ، فهو نقيضُ العلمِ ، وينقسم إلى قسمين : بسيطٍ ومُرَكَّبٍ ، فالْبَسِيطُ : عدم المعرفة بالشَّيْءِ أصلاً ، والمُرَكَّبُ : عدم المعرفة بِهِ مع تصوُّرِ معرفته على خلاف ما هو عليه ، ولذلك كان أشدَّ ؛ فهو مُرَكَّبٌ من جهلين : جهلٍ بالشَّيْءِ وجهلٍ بأنه جاهِلُهُ ، وهذا الذي عَنَاه الشاعرُ بقوله :

وَمِنْ عَجَبِ الْأَيَّامِ أَنَّكَ جَاهِلٌ وَأَنَّكَ لَا تُذَرِّي بِأَنَّكَ لَا تُذَرِّي
والأَوَّلُ أَخَفُّ لِبَسَاطَتِهِ .

وإنما كان الجهلُ من قواعد الكفر لأنه بِقِسْمَيْهِ يعود إلى الجهل غالباً ، فالذين اتخذوا مع الله إلهًا آخَرَ أو جَحَدُوا وجودَه رأساً أو جحدوا صفاته الذاتية أو أفعاله هُم

أشدُّ الناس جهلاً ؛ وإن كان ذلك عائداً إلى العناد ، فإن آيات الله تعالى الدالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته هي من أثبت البيّنات وأظهر البراهين ، فالإنسان يتلوها على صفحات وجوده بنفسه ، إذ ما من خلقة من خلایاه إلا وهي شاهد عدل على وجود الله وعلى وحدانيته واتصافه بالكمالات ، فضلاً عن أصوات سائر الكائنات التي تُنادي كل ذرة من ذراتها بلسان حالها معلنة افتقارها إليه وأنها لم توجد إلا بإيجاد الله لها .

فمن تعامت بصيرته عن هذه الدلائل وتَصَامَمَ سَمْعُهُ عن هذه الشهادات كان أغرق الناس في الجهل وأضلّهم عن الحقيقة ، وكذلك من جحد رسالاته سبحانه إلى من اصطسفاهم من خلقه لحمل أمانته إلى عباده ، لا سيما حاتم المرسلين وقائد العرّ المحجلين ، فمن كفر به هو أعمى الناس بصيرة ؛ لظهور برهانه وقهر معجزته وانكشاف صدقه ، فلم يبق أمام من جحد رسالاته إلا العناد والمكابرة .

♦ ثانيها : الحمية ؛ وهي الغصية الباطلة ، فإنها تُعمي بصيرة صاحبها حتى يحفل الباطل حقاً والحق باطلاً ، وهي من شأن أهل الجاهلية ؛ قال تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ﴾ [الفتح / ٢٦] .

وإنما كانت من قواعد الكفر لأنها تحول بين من استحكمت في نفسه وبين اتباع الحق ، فقد يرى الحق بأمر عينيه ولا يصدّه عنه إلا هذه الحمية ، كما كان من فرعون وآله الذين أراهم الله من آياته ما جعلهم موقنين بصدق موسى عليه السلام ، ولكنهم أخلدوا إلى عنادهم ، كما قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُغُولًا ﴾ [النمل / ١٤] ، وكذلك شأن أولئك الذين قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزمر / ٢٣] ، فإن حميتهم لأبائهم صدّتهم عن الخروج عمّا ألفوه منهم .

وإن من شأن الحمية أن تدعو كل طائفة بأن تلتف حول نفسها وتدخل في حرب مع غيرها ؛ ولو اتقن أفرادها أنها ظالمة وأن الحق في جانب غيرها ، مع أن محرّدة

الرُّكُونِ إِلَى الظُّلُمِ مَهْلِكَةٌ ، وَلَوْ كَانَ مِثْلًا بِالْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ عَلَى الْفِعْلِ ؛
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُرْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ
 ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود/ ١١٣] .

♦ نالها : الكِبَرُ ؛ وهو أَنْ يَتَعَالَى الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ ، وَعُرِفَ بِأَنَّهُ : تَسْفِيهِ الْحَقِّ
 وَغَمَطُ الْخَلْقِ ، أَيْ ازْدِرَائِهِمْ وَاحْتِقَارِهِمْ . وَالْمُتَكَبِّرُونَ إِمَامُهُمْ إِبْلِيسُ - لَعْنَةُ اللَّهِ - فَإِنَّمَا
 عَصَى اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِاسْتِكْبَارِهِ ، إِذْ رَأَى لِنَفْسِهِ مِزِيَّةً عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ :
 ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف/ ١٢] . وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْكِبَرَ إِمَامُ
 الْمَعَاصِي ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا عَصَى اللَّهَ تَعَالَى بِهِ .

وَالْمُتَكَبِّرُ مُنْتَطَوِّلٌ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَإِنَّ الْكِبَرَ بَاءٌ مِنْ حِصَانِهِ ﷻ ، فَفِي
 الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : « الْكِبَرُ بَاءٌ رِذَائِي وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي أَحَدَهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ
 وَلَا أُبَالِي » . وَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنَ الصِّفَتَيْنِ خَاصَّةٌ بِهِ ﷻ ، لَيْسَ لِغَيْرِهِ مِنْهُمَا نَصِيبٌ ،
 كَخُصُوصِيَّةِ أَحَدِنَا بِرِذَالِهِ وَإِزَارِهِ ، فَلِذَلِكَ كَانَ حَرِيثًا مَنْ تَطَاوَلَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِمَنَازَعَتِهِ
 إِحْدَاهُمَا أَنْ يَقْذِفَهُ فِي النَّارِ .

وَأَمَّا كَانَ الْكِبَرُ مِنْ قَوَاعِدِ الْكُفْرِ لِأَنَّهُ يَحُولُ دُونَ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، كَمَا فِي قِصَّةِ
 إِبْلِيسَ - لَعْنَةُ اللَّهِ - ، وَكَذَلِكَ أُولَئِكَ الْمُنْكَبِرُونَ الَّذِينَ صَدُّوا عَنِ الْحَقِّ صُدُودًا ، كَقَوْمِ
 نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، لِذَلِكَ كَانَ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ
 مَصْرُوفًا عَنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف/ ١٤٦] .

♦ رَابِعُهَا : الْحَسَدُ : وَهُوَ تَمَنِّي زَوَالِ نِعْمَةِ الْغَيْرِ ، سَوَاءً كَانَ هَذَا التَّمَنِّي
 مَصْحُوبًا بِتَمَنِّي انْتِقَالِهَا إِلَى الْحَاسِدِ أَوْ مُحَرِّدِ زَوَالِهَا ، وَهُوَ دَاءٌ عُضَالٌ يُشْعِرُ الْعَدَاوَةَ
 وَالْبَغْضَاءَ ، فَإِنَّ الْحَاسِدَ يَشْعُرُ بِنَارٍ تَضْطَرِّمُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ ، يُوجِّحُهَا مَا يَرَاهُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ
 تَعَالَى عَلَى غَيْرِهِ ، فَلِذَلِكَ يَتَمَنَّى إِطْفَاءَهَا بِزَوَالِ تِلْكَ النِّعْمَةِ ، وَقَدْ أَحَادَ مَنْ قَالَ :
 إِنِّي لِأَرْحَمُ حَاسِدِي لِحَرِّ مَا ضَمِنْتُ صُدُورَهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ

نَظَرُوا صَنِيعَ اللَّهِ بِبَنِي قَعْبُورٍ فِي حَبْثِهِ وَقِيلُوا لَهُمْ فِي نَارِ
 وَقَدْ يَدْفَعُ الْحَسَدُ بِصَاحِبِهِ إِلَى أَنْ يُكَابِرَ الْحَقِيقَةَ الَّتِي تَمْلَأُ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ فَيَحْجِدُهَا ،
 كَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ أُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ ؛ الَّذِي كَانَ يَتَطَلَّعُ إِلَى نُبُوَّةِ يُشْرِقُ ضِيَاؤُهَا فَيَنْدُدُ
 ظِلَامَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَلَمَّا أَكْرَمَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ حَسَدَهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ
 وَكَفَّرَ بِهِ . وَهَكَذَا كَانَ صَنِيعُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِذْ لَمْ يَصْرِفْهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ﷺ إِلَّا
 هَذَا الدَّاءُ .

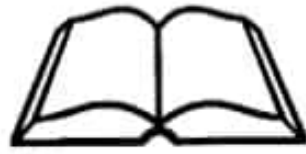
وهكذا صَنِيعُ الْيَهُودِ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُوقِنِينَ بِنُبُوَّتِهِ ﷺ بِمَا وَجَدُوهُ مِنْ نُعُونِهِ فِي
 التَّوْرَةِ ، وَكَانُوا يَسْتَفْتَحُونَ بِهِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ حَسَدًا
 أَنْ تُخْرِجَ النُّبُوَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْعَرَبِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ
 النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا
 عَظِيمًا ﴾ [النساء/ ٥٤] ، وَيَدْفَعُ الْحَسَدَ كَانُوا يَتَعَتَّوْنَ الْكُفْرَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :
 ﴿ وَذُكِّرْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ
 مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة/ ١٠٩] .

وَقَدْ يَسْعَى الْحَاسِدُ إِلَى الْإِضْطِرَارِ بِالْمَحْسُودِ فِي جَسَدِهِ أَوْ عَقْلِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ
 أَوْ أَهْلِهِ ، لِذَلِكَ كُلُّهُ كَانَ مِنْ قَوَاعِدِ الْكُفْرِ .
 وَلِمَا لِلْحَسَدِ مِنْ أَثَرٍ خَطِيرٍ فِي حَيَاةِ النَّاسِ عَلَّمَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نَسْتَعِذَّ بِهِ مِنْ شَرِّ
 حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ؛ فِيمَا أُنْزِلَهُ فِي سُورَةِ الْفَلَقِ .

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْكُفْرَ الْقَائِمَ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْمَذْكُورَةِ هُوَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ
 كُفْرَ شَرِكٍ أَوْ كُفْرَ نِعْمَةٍ ، فَإِنَّ كُلًّا مِنَ الْجَهْلِ وَالْحَمِيَّةِ وَالْكِبْرِ وَالْحَسَدِ يَنْشَأُ عَنْهُ كُلُّ وَاحِدٍ
 مِنَ الْكُفْرَيْنِ كَمَا عَلِمْتَ .



أَرْكَانُ الْكُفْرِ



۵۷. وَرَغْبَةُ رَهْبَةٍ أَرْكَائُهُ، وَيَلِيهِ * — هَا شَهْوَةٌ غَضَبٌ فِي كُلِّ مَا حُظِلَا



❁ أركان الكفر :

٥٧. وَرَغْبَةٌ رَهْبَةٌ أَرْكَائُهُ ، وَيَلْبِ * هَهَا شَهْوَةٌ غَضَبٌ فِي كُلِّ مَا حُظِلَا

يعني أن أركان الكفر التي يُشَادُّ بِهَا بِنَاؤُهُ هي هذه الأربعة : الرُّغْبَةُ والرَّهْبَةُ والشَّهْوَةُ والغَضَبُ .

❖ فالرُّغْبَةُ : هي المَيْلُ الرَّائِدُ إِلَى الدُّنْيَا حَتَّى يَمْتَنِعَ صَاحِبُهُ مِنْ أَدَاءِ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَيَحْرِصُ عَلَى اخْتِذِ حَقِّ غَيْرِهِ ، وَهَذَا هُوَ حُبُّ الدُّنْيَا الَّذِي يُغْمِي بَصِيرَةَ صَاحِبِهِ ، فَلَا يُبَالِي بِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ خَسَارٍ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِنَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْجِسُونَ ﴾ ❖ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [هود/١٥-١٦] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى/٢٠] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ جَعَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْجُورًا ﴾ [الإسراء/١٨] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ ❖ وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ❖ فَإِنَّ الْحَجِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿ [النازعات/٣٧-٣٩] .

وإِنَّمَا كَانَتِ الرُّغْبَةُ مِنْ أَرْكَانِ الْكُفْرِ لِأَنَّهَا إِذَا اسْتَحْكَمَتْ فِي النَّفْسِ اسْتَوْلَتْ عَلَى الْعَقْلِ ، وَهَيَّئَتْ عَلَى الْأَحَاسِيسِ وَالْمَشَاعِرِ ، فَتَصُدُّ صَاحِبَهَا عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَاجِبِ ، فَكَمْ مِنْ عَجَبٍ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ حَقٌّ - مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ غَيْرِهِمْ - أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ عَنْ بَرَاهِينِهِ ، وَأَصَمَّ أُذُنَيْهِ عَنْ حُجَجِهِ ، خَشْيَةً أَنْ يَفُوتَهُ مَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ يَأْتِيهِ مِنْ قَبْلِ الَّذِينَ غَرَّرَهُمْ بِضَلَالِهِ ، أَوْ جَاهٍ وَمَرْتَبَةٍ عِنْدَ عَظِيمٍ مِنَ عَظَمَاءِ الْكُفْرِ ، وَقَدْ تَصُدُّ هَذِهِ الرُّغْبَةُ صَاحِبَهَا عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ ، فَيُخْفِي شَهَادَةَ تَحْمِلُهَا أَوْ يَشْهَدُ زُورًا بِخِلَافِ مَا عَلِمَ .

❖ وَأَمَّا الرُّهْبَةُ : فَهِيَ الْخَوْفُ الْمُفْرِطُ الَّذِي يَصْرِفُ صَاحِبَهُ عَنِ الْوَاجِبِ ، كَأَنْ يَخْشَى أَحَدًا مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ، فَيَمْتَنِعُ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ لِأَجْلِهِ ، وَمِنْهَا خَشْيَةُ الْفَقْرِ الْمَانِعَةُ

من أداء حق الله كالزكاة ، وحقوق أهله كالإنفاق على العيال ، وقد أوقعت هذه الخشية قوماً في معاكسة الفطرة بحيث انتزعت الرحمة من قلوبهم فقتلوا أفلاد أكبادهم خشية الإملاق ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء/ ٣١] .

ويتدرج في هذه الرهبة الامتناع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع وجوبهما ، وكذلك الفرار من الرحف وعدم الثبات للعدو وعدم الدفاع عن النفس والدين وسائر الحرمات .

♦ وأما الشهوة : فهي ميل النفس إلى اتباع الملذات ، وهي تكون من أركان الكفر عندما تخرج بصاحبها عن حدود ما أباحه الله تعالى له من ملاذ الحياة إلى ما حرم عليه ، فإن هذه هي الشهوات المحرمة المهلكة الصارفة عن الحق ، ولذلك قرن الله بين اتباعها وبين إضاعة الصلاة في قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم/ ٥٩] .

♦ وأما الغضب : فهو انفعال نفسي يدفع بصاحبه إلى الانتقام من الغير ، وإنما هو من أركان الكفر عندما يدفع إلى الانتقام بالباطل كما هو شأن المجرمين ، أما إن كان غضباً لله تعالى حينما تنتهك حرمة ويضاع دينه فهو من أجل المحامد ، وقد وصف الله المؤمنين بقوله : ﴿ أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة/ ١٧٧] ، وبقوله : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ [الفتح/ ٢٩] .

وإنما تكون هذه الخصال أركاناً للكفر عندما تدفع بصاحبها إلى باطل أو تصرفه عن حق ، ويختلف نوع الكفر باختلاف ما تؤدي إليه من نتيجة ، فقد تكون عاقبتها ترك الإسلام رأساً ، وهذا هو الكفر المخرج من الملة ، وقد تكون ارتكاب شيء من محارمه ، وذلك هو كفر النعمة .

و«حُظِلَ» في البيت بمعنى : منع .



ذِكْرُ الْمَلِكِ السَّيِّدِ

وَأَحْكَامِهَا



مَدِينَةُ كَامِلِيَّةٍ بِمَدِينَةِ رَسَدِي

• اليهودية

• الصابئة

• عبادة الأصنام

• الإسلام

• النصرانية

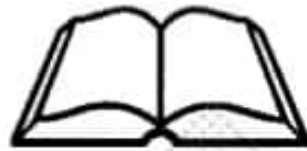
• المجوسية







ذِكْرُ الْمَلَلِ الْستِّ وَأَحْكَامِهَا



٥٨. وَهَذِهِ مِلَّةُ الْأَدْيَانِ قَدْ نُصِبَتْ
٥٩. فَالْمُسْلِمُونَ؛ وَهُمْ مُؤَفٍّ وَمُخْتَرَحٌ
٦٠. أَوْ مُسْتَحِلٌّ، وَأَحْكَامُ الْأَلَى انْتَهَكُوا
٦١. وَقَدْ يَجُوزُ لِكُلِّ مَا يَجُوزُ لَنَا
٦٢. ثُمَّ الْيَهُودُ النَّصَارَى وَالْمَجُوسُ مَعًا
٦٣. يُسَالَمُونَ إِذَا انْقَادُوا عَلَى صِغَرٍ
٦٤. وَالْمُشْرِكُونَ ذَوُو الْأَوْثَانِ لَيْسَ لَهُمْ
٦٥. وَالْحُكْمُ إِنْ حَارَبُوا فِي الْكُلِّ مُتَّحِدٌ
٦٦. حَاشَا قُرَيْشًا فَإِنَّ السَّبِيَّ مُمْتَنِعٌ
٦٧. وَالذَّبْحُ إِنْ سَالَمُوا أَهْلُ الْكِتَابِ مَعَ النَّبِيِّ *
لَا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ الْمِلَّةَ
وَالْمُخْرِمُونَ بِنَهْكَ مِنْهُمْ انْفَصَلَا
أَنْ يَرْجِعُوا كُلُّ مَا صَابُوا وَإِنْ جَزَلَا
إِلَّا الْوَلَايَةَ خُصَّتْ بِالَّذِي عَدَلَا
وَالصَّابُونَ لَهُمْ حُكْمٌ وَقَدْ عَقَلَا
بِجَزِيَّةٍ، أَوْ أَبَوْا فَالْكُلُّ قَدْ قُتِلَا
سَلَامَةٌ غَيْرَ إِنْ دَانُوا بِمَا نَزَلَا
نَهْبٌ وَسَبْيٌ وَقَتْلٌ فِيهِمْ فَعِلَا
فِيهِمْ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ الْفُضْلَا
نِكَاحٌ مِنْهُمْ أَجِزٌ إِلَّا الْإِمَاءَ فَلَا



﴿ ذَكَرَ الْمِلَّةَ السَّتْ وَأَحْكَامَهَا ﴷ

٥٨. وَهَذِهِ مِلَّةُ الْأَدْيَانِ قَدْ نُصِبَتْ لَا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ الْمِلَّةَ

الْمِلَّةُ جَمْعُ مِلَّةٍ بِمَعْنَى الدِّينِ ، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ مَاخُودَةٌ مِنْ أَمَلٍ بِمَعْنَى أَمَلَى ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَمِلْ وَلِئِنَّهُ بِالْعَدْلِ ﴷ [البقرة/ ٢٨٢] ، وَأَصْلُهَا فِي الْمِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَهِيَ الَّتِي أَمَلَهَا الْمَلِكُ عَلَى الرَّسُولِ ، وَأَمَلَهَا الرَّسُولُ عَلَى الْأُمَّةِ ، وَلَكِنهَا أُطْلِقَتْ عَلَى سَائِرِ النَّحْلِ ، سِوَا مَا كَانَ لَهُ أَصْلٌ فِيمَا أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ لَا .

وَمِلَّةُ النَّاسِ بِحَسَبِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي أَصْحَابِهَا تَنْقَسِمُ إِلَى سِتٍّ ؛ وَهِيَ : الْإِسْلَامُ وَالْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ وَالصَّابِئِيَّةُ وَالْمَجُوسِيَّةُ وَعِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ، وَيَنْدَرِجُ فِي هَذِهِ الْأَخِيرَةِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ ، فَيَدْخُلُ فِي حُكْمِهَا الْمَلَاحِدَةُ كَالشُّبُوعِيِّينَ وَالْوَجُودِيِّينَ ، وَسَائِرُ الَّذِينَ لَا يَدِينُونَ بِدِينٍ .

وَوَجُوبُ مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْمِلَّةِ مِنْ أَجْلِ الْفَرَزِ بَيْنِ أَتْبَاعِهَا فِي الْأَحْكَامِ ، وَهُوَ الَّذِي دَرَجَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِنَا ، وَذَهَبَ الْإِمَامَانِ أَبُو يَعْقُوبَ الْوَارِجَلَانِيُّ وَأَبُو إِسْحَاقَ أَطْفِيشَ إِلَى أَنَّ مَعْرِفَتَهَا لَيْسَتْ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الدِّينِ ، وَهِيَ دَاخِلَةٌ فِيمَا يَسَعُ جَهْلُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ الدِّينِيَّةِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ مِنَ الْحُجَّةِ بِمَكَانٍ ، إِذْ لَمْ يُؤْثَرْ قَطُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا كَانَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ أَنَّهُ يُلْقِنُ النَّاسَ مَعْرِفَةَ هَذِهِ الْمِلَّةِ ، وَيَشْرَحُ لَهُمْ أَحْكَامَهَا ، وَلَا أَثَرَ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ صَحَابَتِهِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ - .

وَمَا مِنْ رَبِّبٍ أَنْ يُزَامَ ذَلِكَ جَمِيعَ النَّاسِ ذُكُورَهُمْ وَإِنَاثُهُمْ صِغَارُهُمْ وَكِبَارُهُمْ بَدُوهُمْ وَحَضَرُهُمْ فِيهِ خَرَجَ كَبِيرٌ عَلَى عَوَامِّ النَّاسِ وَجَهْلَتُهُمْ ، فَمَا لِلْعَامِيِّ الَّذِي لَا يَعْنِيهِ إِلَّا أَمْرُ نَفْسِهِ وَبَحْثِ أَحْكَامِ هَذِهِ الْمِلَّةِ ؟ فَإِنَّ التَّعَبُّدَ بِأَحْكَامِهَا لَا يَعْنِي عَوَامَّ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ خِصَائِصِ خَاصَّتِهِمْ ، فَكَيْفَ يُلْزَمُ أَنْ يَعْرِفَ هَذِهِ الْمِلَّةَ وَأَنْ يَفَرِّزَ بَيْنَ أَحْكَامِهَا جَمِيعًا ؟

فإن قيل : بأن هذه المِلَل منصوص عليها في القرآن ؛ وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الحج/ ١٧] ، فمن الضرورة أن يعرفها الإنسان المسلم .

قلنا : ليس كل منصوص عليه في القرآن مما لا يسع جهله ، وإلا وجب على كل مسلم منذ بلوغه الحلم أو دخوله الإسلام أن يلم بكل أحكام القرآن ، ويخصي كل ما جاء فيه ، وهو من العسير بمكان ، على أن كثيراً من المسلمين لا يتقنون قراءة القرآن رأساً ، وهب أنهم يثقلونه ؛ فإن القليل ممن يثقلونه هم الذين يدركون معانيه ، كيف وفيهم العربي والأعجمي ؟ وأنى للأعجمي أن يكلف فهم مضامين الكلام العربي مع عدم إتقانه لغة العرب ؟! والعرب أنفسهم ليس بإمكانهم إدراك مقاصد القرآن إلا بعد دراسة فنون العربية ودراسة علوم القرآن .

ومع هذا فإن تلك المِلَل عندما ذكرت في الآية المشار إليها لم يقترن ذكرها بتبيان أحكامها ، وإنما جاءت متناثرة في آيات متعددة وسور مختلفة ، مع أن هذه الأحكام نفسها وقع في بعضها خلافاً بين أهل العلم بحسب ما فهمه كل فريق من ظواهر الأدلة .

وبالجُملة فإن معرفة هذه المِلَل وأحكامها مما يجب على الإنسان بعد أن تقوم بذلك الحجة ويتضح له المقصد ويتيسر له الفهم ، وإلا فهي كسائر الأحكام الشرعية والعقائد الدينية التي يكفي الإيمان بها إجمالاً ؛ ما لم تقم عليه الحجة بتفصيلها ، وما لم يقع في مخالفة المشروع بالإقدام على ما لم يأذن به الحق ، كما جاء الأثر في أنواع المحارم : « يسع الناس جهل ما دأوا بتحريمه ؛ ما لم يركبوه أو يصوبوا رايه أو يتبرأوا من عالم ثراً من رايه أو يقفوا عنه » .

على أن العمل بشيء فيما يتعلق بهذه المِلَل لا يعني العوام ، وإنما هو من شأن خاصة الخاصة - كما ذكرنا - ، لأن الإقدام على أمر يتعلق بأصحابها إنما هو شأن أئمة المسلمين .

ثُمَّ أَخَذَ يُبَيِّنُ الْأَحْكَامَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِهَذِهِ الْمِلَّةِ ، فَقَالَ :

٥٩. فَأَلْمُسَلِّمُونَ؛ وَهُمْ مُؤَفٍّ وَمُجْتَرَحٌ وَالْمُجْرِمُونَ بَنَهَكَ مِنْهُمْ انْفَصَلا
٦٠. أَوْ مُسْتَحِلٌّ ، وَأَحْكَامُ الْأَلَى اتَّهَكُوا
٦١. وَقَدْ يَجُوزُ لِكُلِّ مَا يَجُوزُ لَنَا
إِلَّا الْوَلَايَةَ خُصَّتْ بِالَّذِي عَدَلَا

الْمِلَّةُ الْأُولَى مِنَ الْمِلَّةِ السَّتِّ هِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ .

♦ وَالْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ اللَّهِ الْحَقِّ الَّذِي ارْتَضَاهُ لَخَلْقِهِ وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ ، وَلَكِنَّ الْمَحْسُوبِينَ عَلَى هَذَا الدِّينِ فِيهِمُ الْوَفِيُّ الصَّالِحُ الَّذِي اتَّزَمَ جَمِيعَ أَحْكَامِهِ ، فَأَذَى الْفَرَائِضَ وَاجْتَنَبَ الْمَحَارِمَ ، وَخَرَصَ جَهْدَهُ عَلَى إِتْيَانِ الْفَضَائِلِ وَاجْتِنَابِ الْمَكْرُوهِ ، وَإِنْ وَقَعَ فِي مَحْظُورٍ أَوْ قَصَرَ فِي مَفْرُوضٍ بَادَرَ إِلَى التَّوْبَةِ وَسَدَّ الْخَلَلَ . وَفِيهِمُ الْمُقَصِّرُ ؛ إِمَّا بِتَرْكِ مَا فُرِضَ وَإِمَّا بِفِعْلِ مَا حُرِّمَ . وَالْكُلُّ مَحْسُوبٌ عَلَى هَذَا الدِّينِ ، فَلَا يَقَالُ بِخُرُوجِهِ مِنْهُ إِلَّا إِنْ أَكْثَرَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ .

وَمَنْ وَقَعَ فِي ارْتِكَابِ مَا حُرِّمَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَتَى مَا أَتَى اسْتِحْلَالًا أَوْ انْتِهَاكًا ، فَالْمُسْتَحِلُّ تُخْرِجُهُ التَّوْبَةُ مِمَّا أَتَى ، وَلَا يُلْزَمُ بِشَيْءٍ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِحَقُوقِ النَّاسِ الَّتِي أَضَاعَهَا ، سِوَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَنْفُسِ أَوْ الْأَمْوَالِ أَوْ الْأَعْرَاضِ ، إِلَّا مَا بَقِيَ بَعِينَهُ فِي يَدِهِ ، فَإِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى صَاحِبِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ خِلَاصُهُ مِنْهُ ، أَمَّا مَا تَلَفَ فَلَا يُطَالَبُ بِهِ .

وَالْمُسْتَحِلُّ هُوَ الْمُعْتَقَدُ حِلًّا مَا أَتَى بِتَأْوِيلِهِ دَلِيلًا مِنَ الْأَدْلَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، كَالْخَوَارِجِ - وَهُمْ الْأَزَارِقَةُ وَالتَّجْدِيَّةُ وَالصُّفَرِيَّةُ - فَإِنَّهُمْ يَحْكُمُونَ بِحُكْمِ الشَّرِكِ عَلَى كُلِّ مَرْتَكَبٍ كَبِيرَةٍ ، فَيَسْتَبِيحُونَ بِسَبَبِ ذَلِكَ سَفَكَ دَمِهِ وَغَنِيمَةَ مَالِهِ وَسَبَى نِسَائِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، وَيَتَأَوَّلُونَ فِي هَذَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام/ ١٢١] ، إِذْ حَمَلُوهُ عَلَى الطَّاعَةِ بِأَكْلِ الْمَيْتَةِ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ مَنْ أَكَلَ الْمَيْتَةَ عِنْدَهُمْ مُشْرِكٌ ، وَهَكَذَا بَقِيَةُ الْكِبَائِرِ ، وَقَدْ أَفْرَطَتِ الْأَزَارِقَةُ فِي الْعُلُوِّ حَتَّى حَكَمَتْ عَلَى كُلِّ مَنْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ

- ولو بمُقَارَفَةٍ صَغِيرَةٍ - بالإِشْرَاقِ ، مُسْتَدْلِينَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحراب/ ٣٦] ، إِذْ حَمَلُوا الضَّلَالَ الْمُبِينَ عَلَى الشَّرِكِ .

وهذا كُلُّهُ خِلَافٌ لِمَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ بِدْعَتُهُمْ هَذِهِ ، فَإِنَّ الْأُمَّةَ مُجْمِعَةً عَلَى أَنَّ مِمَّا يُعْصَى بِهِ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ دُونَ الْإِشْرَاقِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفُسُوقِ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ : إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فِي اعْتِقَادِ حِلِّ الْمَيْتَةِ ، فَإِنَّ اعْتِقَادَ حِلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ رَدُّ لِحُكْمِهِ ﷻ ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَهُ الصَّرِيحَ فَقَدْ أَشْرَكَ ، أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ فَلَا يَعْنِي الضَّلَالُ فِيهِ الْإِشْرَاقُ ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ ضَلَالٍ شَرِكًا .

وإِنَّ مِنْ أَتَيْنِ الْأَدْلَةَ عَلَى فسادِ مُعْتَقَدِهِمْ وَضَلَالِ تَأْوِيلِهِمْ مَا نَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْخُدُودِ الَّتِي تُحِبُّ عَلَى مَنْ قَارَفَ بَعْضَ الْكِبَائِرِ ، كَالْقَطْعِ الْوَاجِبِ عَلَى السَّارِقِ وَالسَّارِقَةِ ، وَالْجُلْدِ مِائَةً عَلَى الزَّانِي وَالزَّانِيَةِ ، وَالْجُلْدِ ثَمَانِينَ عَلَى الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ، وَكَذَلِكَ مَا ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ مِنْ جُلْدِ شَارِبِ الْخَمْرِ ، فَإِنَّ هَذِهِ كُلُّهَا كِبَائِرٌ ، فَلَوْ كَانَتْ شَرِكًا لَكَانَ حَدُّ مَنْ أَتَاهَا حَدُّ الْإِرْتِدَادِ وَهُوَ الْقَتْلُ ، وَكَوْنُ عُقُوبَاتِهَا دُونَهُ دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ شَرِكًا .

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ أَوْلَنَكَ تَأْوِيلًا ذَلِكَ التَّأْوِيلَ الْبَاطِلَ فَحَكَمُوا عَلَى الْكُلِّ بِالشَّرِكِ ، وَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ مَا تَرْتَّبَ مِنْ اسْتِحْلَالِ غَنِيمَةِ أَمْوَالِهِمْ ، وَاسْتِحْلَالِ وَطْءِ نِسَائِهِمْ بَعْدَ سَبْيِهِمْ ، فَمَنْ ثَابَ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَى رُشْدِهِ وَتَابَ إِلَى رَبِّهِ كَانَتْ تَوْبَتُهُ كَافِيَةً فِي رَفْعِ أَوْزَارِ مَا ارْتَكَبُوهُ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ ضَمَانٌ مَا أَتْلَفُوهُ ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ رَدُّ مَا بَقِيَ فِي أَيْدِيهِمْ بَعِيْنُهُ .

وَأَمَّا الْمُتَنَهِّكُ فَيُحِبُّ عَلَيْهِ مَعَ التَّوْبَةِ أَنْ يَرُدَّ مَا أَتْلَفَ مِنْ مَالٍ ، وَأَنْ يَضْمَنَ مَا أَصَابَ مِنْ دِمَاءِ النَّاسِ وَأَعْرَاضِهِمْ ، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِ الْمُصَنِّفِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - :

..... وَأَحْكَامُ الْأَلَى انْتَهَكُوا أَنْ يَرْجِعُوا كُلَّ مَا صَابُوا وَإِنْ جَزَلَا

لأن توبته موقوفة على رد المظالم ، كما جاء في الحديث^(١) ، فتوبة المنتهك من هذه الناحية أشد من توبة المستحل ، وإنما يشدد على المستحل بوجوب الاستيثاق من توبته ، وذلك بأن تكون توبته تفصيلاً ، بحيث يعدد ما خالف فيه الحق ، ويُعلن رجوعه إلى معتقد المسلمين وقولهم ، وأن يُعلن ولايته لمن تبرأ منهم من أئمة أهل الحق ، وبرأئه ممن دان بولايتهم من أئمة أهل الضلال ، هذا فيما بينة وبين المسلمين ، أما فيما بينة وبين ربه فحسبه أن يتوب كما يتوب غيره ، مُقلعاً عن كل ضلالة اعتقدها إلى ضلها من الحق .

هذا ؛ وجميع المسلمين برؤهم وفاجرهم تَجِبُ لَهُم حقوق الإسلام العامة ، كَرَدُ السلام وتشميت العاطس ودفعهم في مقابر المسلمين ، وجميع حقوق الموتى من المسلمين ، وكذلك الموارنة بينهم وبين غيرهم من أبناء ملة الإسلام ، وإنما تُقام عليهم الحدود الشرعية إن ارتكبوا موجباتها ، ويُقاتلون إن بغَوْا من غير أن يُجهزَ على جرْعهم أو يُتبع مُذبرهم ، إلا أن يكون لهم ردة يرجعون إليه ، ولا تُغنم أموالهم ولا تُسبى ذراريهم سواء كانوا مستحلين أو متهكين .

وإنما استثنى بعضهم في الصلاة على موتاهم مُذمّن الخمر ، وتارك الصلاة عمداً طول عمره ، وقاتل نفسه عمداً ، والعبد الأبق . وقبل بل لا يُصلّى على كل مُصيرٍ على كبيرة حتى مات عليها . والصحيح الصلاة على هؤلاء جميعاً ؛ إن لم يكونوا خرّجوا من ملة الإسلام بإنكار حرمة ما أتوا ، أو وجوب ما تركوا ممّا هو معلوم من الدين بالضرورة .

والدليل على الصلاة عليهم ما أخرجه الربيع - رحمه الله تعالى - من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « الصلاة جائزة خلف كل بار وفاجر ، وصلّوا على كل بر وفاجر » . وقوله ﷺ - فيما رواه الربيع أيضاً - : « الصلاة على موتى أهل القبلة المُقرّين

^(١) انظر الحديث الذي أخرجه الإمام الربيع في باب : الوعيد في الأموال (٦٩١) .

بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاجِبَةً ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ » . فَإِنْ هَذَا عَامٌّ وَلَمْ نَحِذْ لَهُ مُحَصَّصًا يُخْرِجُ
أُولَئِكَ مِنْ عُمُومِ الْحُكْمِ ، وَإِنَّمَا تُسَمِّيُ الْوَلَايَةَ ، فَلَا تُمْتَحُ إِلَّا لِلْوَفَى ، لِأَنَّهَا اصْطِفَاءٌ
لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَأَطَاعَهُ ، وَهُوَ مَصُونُ الدِّمِّ وَالْمَالِ وَالْعِرْضِ .

٦٢. ثُمَّ الْيَهُودُ النَّصَارَى وَالْمَجُوسُ مَعًا وَالصَّابِنُونَ لَهُمْ حُكْمٌ وَقَدْ عَقَلَا
٦٣. يُسَالِمُونَ إِذَا انْقَادُوا عَلَى صِغَرٍ بِجَزِيَّةٍ ، أَوْ أَبَوْا فَالْكُلُّ قَدْ قُتِلَا

ذَكَرَ الْمَصْنُفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هُنَا حُكْمًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ أَصْحَابِ أَرْبَعِ مِلَلٍ مِنَ الْمِلَلِ
السَّتِّ ؛ وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسُ وَالصَّابِنُونَ .

♦ فَالْيَهُودُ هُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ الَّتِي يَزْعُمُونَ التَّمَسُّكَ بِهَا ، مَعَ أَنَّهُمْ حَرَّفُوا الْكَلِمَ
عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَأَضَافُوا إِلَى التَّوْرَةِ مَا لَيْسَ فِيهَا ، وَحَذَفُوا مَا لَمْ يَرُقْ لَهُمْ مِنْهَا ، فَضَلُّوا
بِذَلِكَ ضَلَالًا مُبِينًا .

♦ وَالنَّصَارَى هُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ ، وَقَدْ وَقَعُوا فِيهَا وَقَعَ فِيهِ الْيَهُودُ مِنَ التَّحْرِيفِ
وَالْتَبْدِيلِ وَالضَّلَالِ .

♦ وَأَمَّا الصَّابِنُونَ فَهُمْ قَوْمٌ لَمْ يَتَضَيَّحْ لِلنَّاسِ مُعْتَقِدُهُمْ لِإِخْفَائِهِ عَنْ غَيْرِهِمْ ، وَلَمْ
يَأْتِ الْقُرْآنُ بِيَبَانٍ مَا يَعْتَقِدُونَ فَيَكُونُ عَلَيْهِ الْمَعْوَلُ فِي إِثْبَاتِ ذَلِكَ ، لِذَلِكَ وَقَعَ الْخِلَافُ
بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ كَثِيرًا فِي مُعْتَقَدَاتِهِمْ ، فَقِيلَ : كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِرِسَالَةِ سَمَآوِيَّةٍ - وَهِيَ
رِسَالَةُ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَوَقَعُوا فِي التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ كَغَيْرِهِمْ . وَقِيلَ إِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ
الْمَلَائِكَةَ . وَقِيلَ بَلْ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَلَكِنَّهُمْ يَرْمُزُونَ بِهَا إِلَى الْمَلَائِكَةِ . وَقِيلَ بَأَنَّ دِينَهُمْ
خَلِيطٌ مِمَّا جَاءَ فِي الْإِنْجِيلِ وَالتَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ ، إِذْ أَخَذُوا مِنْ كُلِّ مَا طَابَ لَهُمْ وَقَالُوا :
أَصَبْنَا دِينًا . وَقَدْ بَسَطْتُ الْقَوْلَ فِيهِمْ فِي تَفْسِيرِنَا ، فَلْيَرَا جَعُهُ مَنْ شَاءَ .

♦ وَأَمَّا الْمَجُوسُ فَهُمْ أَصْحَابُ زَرَادَشْتِ الَّذِي يُنسَبُونَ إِلَيْهِ ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ
النَّارَ ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ فَرَفَعَ عَنْهُمْ لِتَغْيِيرِهِمْ ، وَقَدْ رَأَيْتُ
الْعَلَامَةَ أَبَا زُهْرَةَ فِي كِتَابِهِ «خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» يَحْزِمُ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ، بَلْ وَيَحْزِمُ بَأَنَّ

زرادشت الذي يَتَسَبَّبُونَ إليه كان نبياً رسولاً ، ويستدلُّ لذلك بما في كتابهم الذي بأيديهم من بَشَائِرِ بَعَثَةِ النبي ﷺ ؛ مُؤَكِّدًا أَنَّ ذَلِكَ لَا يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إِلَى عِلْمِهِ إِلَّا بِطَرِيقِ الْوَحْيِ . وَأَرَى فِي الْقَطْعِ بِذَلِكَ مُحَازَفَةً ؛ لِعَدَمِ وُجُودِ مَا يُشِيرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى بُبُوَةِ زَرَادَشْتِ ، وَعَدَمِ وُجُودِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - ، وَاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ بَشَائِرُ بَعَثَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَلَتُهُمْ بِاخْتِلَاطِهِمْ بِمَنْ أُوتِيَ عِلْمُ الْكِتَابِ .

هَذَا ؛ وَالْحُكْمُ الَّذِي ذَكَرَهُ هُنَا لِهَذِهِ الْعِلَلِ الْأَرْبَعِ - وَهُوَ أَنَّهُمْ يُسَالَمُونَ إِذَا أَدُّوا الْحِزِّيَّةَ عَنْ صَغَارٍ - إِنَّمَا هُوَ ثَابِتٌ فِي أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ بِالنَّصِّ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة/ ٢٩] . إِذْ جَعَلَ الْعَايَةَ مِنْ مُقَاتَلَتِهِمْ رُضُوحَهُمْ لِأَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ وَهُمْ صَاغِرُونَ ، وَهَذَا بَعْدَ أَنْ يُغَرِّضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ وَيَرْفُضُوهُ ، فَإِنْ قَبِلُوهُ كَانُوا إِخْوَانَنَا ، لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا . وَأَمَّا الصَّابِتُونَ فَإِنْ إِجْرَاءَ هَذَا الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ لِقَرْنِهِمْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ فِي الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِغِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة/ ٦٢] . عَلَى أَنَّ اقْتِرَاءَهُمْ بِهِمْ فِي مَقَامِ التَّبَشِيرِ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَعَمِلَ صَالِحًا يُوجِبِي بَأْتَهُمْ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ كَمَا قَبِلَ .

وَأَمَّا الْمَحْسُوسُ فَالْحَافِظُهُمْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ لِمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ . وَالْجِزْيَةُ الَّتِي يُعْطُونَهَا هِيَ ضَرْبَةٌ مَالِيَّةٌ يَأْخُذُهَا مِنْهُمْ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ ، لِيَتَمَتَّعُوا بِالْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ فِي كَنْفِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ ، فَلَا يُنَالُونَ بِأَذَى فِي أَنْفُسِهِمْ وَلَا فِي أَهْلِيهِمْ وَلَا فِي ذُرَارِيهِمْ وَلَا فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَيَتَنَعَّمُونَ بِحُقُوقِ الْمُواطَنَةِ الْعَامَّةِ ، وَيُعْطُونَ بِذَلِكَ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ حُلُّ أَكْلِ ذَبَائِحِهِمْ وَنِكَاحِ الْحَرَائِرِ مِنْ نِسَائِهِمْ بِلَا عِلَافٍ ، أَمَّا فِي حَالِ حَرْبِهِمْ فَلَا تَحِلُّ عَلَى الْمَشْهُورِ نِسَاؤُهُمْ ، لِأَنَّ

سَبِيَهُنَّ مَشْرُوعٌ ، وَلَا يَحُوزُ أَنْ تَكُونَ حَلِيلَةً مُسْلِمٍ عُرْضَةً لِلْسَّبْيِ ، وَالْخِلَافُ فِي أَكْلِ ذَبَائِحِهِمْ ، وَقَدْ شَرَحْتُ ذَلِكَ فِيمَا كَتَبْتُهُ فِي أَحْكَامِ السِّدْكَيةِ .

هذا ، وَالْجِزْيَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى نَظَرِ الْإِمَامِ ، فَيَرْفَعُهَا أَوْ يَخْفِضُهَا بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْحَالَةِ بَيْنَ الْيَسْرِ وَالْعُسْرِ وَالرَّخَصِ وَالْغَلَاءِ ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَدَّدَهَا بِمِقْدَارٍ ، وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ، وَأَكْثَرُ قَوْلٍ مَنْ حَدَّدَهَا : أَنَّهَا عَلَى الْغَنِيِّ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ دَنَانِيرَ مِنَ الذَّهَبِ أَوْ مَا يُعَادِلُهَا ، وَعَلَى الْمُتَوَسِّطِ دِينَارَانِ ، وَعَلَى الْفَقِيرِ دِينَارٌ ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَلَا يُؤْخَذُ عَلَى امْرَأَةٍ وَلَا عَبْدٍ وَلَا مَحْتُونٍ وَلَا شَيْخٍ هَرِمٍ وَلَا رَاهِبٍ ، وَاخْتَلَفَ فِي الْمُفْلِسِ ، فَقِيلَ : لَيْسَتْ عَلَيْهِ جِزْيَةٌ ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ ، وَقِيلَ بَلْ هِيَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ - وَإِنْ لَمْ يُمْكِنَهُ دَفْعُهَا - قَادِرٌ عَلَى ذَرْئِهَا عَنْ نَفْسِهِ بِالْإِسْلَامِ .

هذا ؛ وَلَا تُنْكَحُ نِسَاءُ الْمُحْجُوسِ وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَإِنْ دَانُوا بِأَدَاءِ الْجِزْيَةِ ، وَإِنَّمَا يُلْحَقُونَ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَبُولِهَا مِنْهُمْ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْنِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى نِسَائِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ وَعَلَى أَمْوَالِهِمْ .

وَسُمِّيَتْ جِزْيَةً لِأَنَّهَا تُخْزِي عَنْ دِمِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِصَوْنِهَا بِذَلِكَ . وَإِنْ أَبَوْا الْإِسْلَامَ وَالْجِزْيَةَ مَعًا قَاتَلَتْهُمْ بِقَاتِلُونَ ، وَيَحِلُّ فِي قِتَالِهِمْ مَا يَحِلُّ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ غَنَمِ أَمْوَالِهِمْ وَسَبْيِ ذُرَارِيهِمْ وَنِسَائِهِمْ .

٦٤. وَالْمُشْرِكُونَ ذُؤُ الْأَوْثَانِ لَيْسَ لَهُمْ سَلَامَةٌ غَيْرَ إِنْ دَانُوا بِمَا نَزَلَا

♦ هذا هُوَ حُكْمُ الْمِلَّةِ السَّادِسَةِ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ السَّتِّ ، وَهِيَ مِلَّةُ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ ، وَأُطْلِقَ عَلَى هَؤُلَاءِ وَصَفُ الْمُشْرِكِينَ مَعَ مُشَارَكَةِ غَيْرِهِمْ لَهُمْ فِي الْإِشْرَاقِ - كَالْمُحْجُوسِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ النَّارَ ، وَالصَّابِيَيْنَ الَّذِينَ قِيلَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ أَوْ الْمَلَائِكَةَ ، وَالْيَهُودَ الَّذِينَ قَالُوا غُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ ، وَالنَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، وَقَالُوا بِأَنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَقَالُوا بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ - لِأَنَّهُ هَؤُلَاءِ أَعَمَّقُوا فِي وَصْفِ الشَّرِكِ ، فَكَانَ لَهُمْ وَصْفًا غَالِبًا ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْمَلَاحِدَةُ كَالشُّيْعِيِّينَ وَالْوَجُودِيِّينَ وَالذَّهْرِيِّينَ ،

وَكُلُّ أَصْحَابِ الدِّيَانَاتِ الَّتِي لَا صِلَةَ لَهَا بِوَحْيِ السَّمَاءِ ، فَإِنْ هُوَ لَا جَمِيعًا لَا سَلَامَةَ لَهُمْ مِنْ حُكْمِ السَّيْفِ إِلَّا أَنْ يُقْلَعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِكِ وَالضَّلَالِ ، وَيَدِينُوا دِينَ الْحَقِّ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [النوبة/ ٥] .

وَلَا تُؤْخَذُ مِنْ هَؤُلَاءِ حِزْبَةٌ ، وَلَا تُحِلُّ نِسَاؤُهُمْ وَلَا ذَبَائِحُهُمْ بِحَالٍ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال/ ٣٩] ، وَلَا يَحُوزُ أَيْضًا إِنْكَاحُهُمْ مُسْلِمَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ [البقرة/ ٢٢١] ، وَلِقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [المنحة/ ١٠] ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا أَهْلُ الْكِتَابِ ، فَلَا يَحُوزُ إِنْكَاحُهُمُ الْمُسْلِمَاتِ إِجْمَاعًا ، وَلَوْ حَازَ نِكَاحُ الْحَرَائِرِ مِنْ نِسَائِهِمْ .

فَإِنْ قِيلَ : مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هَذِهِ التَّفْرِقَةُ ؟ بِحَيْثُ حَازَ نِكَاحُ نِسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَمْ يَحُزْ إِنْكَاحُهُمُ الْمُسْلِمَاتِ ؟ فَإِنْ اعْتَبِرُوا دَاخِلِينَ فِي الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ التَّهْمَةَ عَنْ نِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ كَالْتَّهْمَةِ عَنْ إِنْكَاحِ الْمُشْرِكِينَ سَوَاءٌ ، وَإِنْ اعْتَبِرُوا غَيْرَ دَاخِلِينَ فِيهِمْ فَلَا دَلِيلَ عَلَى مَنْعِ إِنْكَاحِهِمْ ، أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فَإِنَّمَا هُوَ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، لِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيْمَا يَتَعَلَّقُ بِصُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ الَّذِي أَرْمَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُشْرِكِي مَكَّةَ ؟

قُلْنَا : هُمْ دَاخِلُونَ فِي حُكْمِ الْمُشْرِكِينَ ، لِأَنَّ وَصْفَ الشَّرِكِ يَنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ مَنْ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَهُمْ كَذَلِكَ ، وَقَدْ سَبَقَ تَحْرِيرُ هَذَا ، وَإِنَّمَا خَرَجَتْ نِسَاؤُهُمْ مِنْ عُمُومِ حُكْمِ : ﴿ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ مِنْ أَجْلِ تَخْصِيصِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة/ ٥] . وَالْخُصُوصُ يَقْضِي عَلَى الْعُمُومِ ، سَوَاءً تَقْدَمُهُ أَوْ تَأْخُرُ عَنْهُ ، كَيْفَ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ ؛ لِأَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نَزُولًا ؟ فَلِذَلِكَ انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَى حِلِّيَةِ نِسَاءِ

أهل الكتاب للمؤمنين ، على أن هذه الحلية مُقَيَّدَةٌ عِنْدَنَا وَعِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِكَوْنِ
الْكِتَابِيَّةِ ذِمِّيَّةً غَيْرَ مُحَارَبَةٍ ، أَمَّا إِنْ لَمْ تُكُنْ كَذَلِكَ فَلَا يَحِلُّ نِكَاحُهَا كَمَا تَقَدَّمَ .
وَمَشْرُوعِيَّةُ الزَّوْاجِ بِالْكِتَابِيَّاتِ - عِنْدَمَا يَكُنَّ عَلَى الذِّمَّةِ - فِيهَا حِكْمَةٌ بِالْعَقَّةِ ،
وَهِيَ أَنْ يَحْصُلَ التَّدَاخُلُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَيَجِدُوا فِي مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ
وَأَخْلَاقِهِمْ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ دِينِهِمْ ، وَتِلْكَ هِيَ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ
فَبَائِلُهُ عِنْدَمَا خَشِيَ عُمَرُ ؓ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لَانْدِفَاعِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْكِتَابِيَّاتِ وَتَضَرُّرِ
الْمُسْلِمَاتِ بِبَقَائِهِنَّ أَيَّامَ نَهْيِ عَنْهُ ، لَا سِيَّمَا أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ ، كَقِصَّتِهِ مَعَ حُذَيْفَةَ ؓ .
وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا الْمَطْلَبَ لَا يَتَحَقَّقُ عِنْدَمَا يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ ضُعَفَاءَ وَيَكُونُ
الْكِتَابِيُّونَ أَقْوَى ، فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الزَّوْاجُ مِنْهُمْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ
الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ يُصْبِحُ الْأَمْرُ فِي مُنْتَهَى الْخَطَرِ عَلَى الدِّينِ ، بِحَيْثُ لَا يَتَعَدُّ أَنْ تُسْتَوْلِيَ
الْكِتَابِيَّةُ عَلَى أَوْلَادِ الْمُسْلِمِ مِنْهَا ، فَتَنْشِئَهُمْ عَلَى مِلَّتِهَا كَمَا تُرِيدُ ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِعْلًا ،
إِذِ انْحَرَفَ بِهَذَا عَدَدٌ مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ فَاعْتَنَقُوا النَّصْرَانِيَّةَ ، وَقَدْ حَدَّثَ هَذَا لِكَثِيرٍ مِنْ
أَوْلَادِ الْعُمَانِيِّينَ مِمَّنْ نَعْرِفُ آبَاءَهُمْ ، بَلْ وَقَعَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُيَالُونَ بِمَصِيرِ أَفْلَاحِ
أَكْبَادِهِمْ فِي غَرَامِ يَهُودِيَّةٍ بَرِيطَانِيَّةٍ عِنْدَمَا كَانَ يَدْرُسُ فِي دَارِ الْعُرْبَةِ ، فَتَزَوَّجَهَا وَوَلَدَتْ
مَوْلُودًا نَشَأَتْهُ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ ، وَانْتَزَعَتْهُ مِنْ يَدِ أَبِيهِ فَالْحَقَّتْهُ بِالْكِيَانِ الصَّهْيُونِيِّ ، فَأَصْبَحَ
يَهُودِيٌّ الْمُعْتَقَدُ صَهْيُونِيٌّ التَّنَزُّعُ وَالْجَنَسِيَّةُ ، أَوَّلًا يَكْفِي هَذَا عِبْرَةً لِعِبَادِ الشَّهَوَاتِ الَّذِينَ
لَا يُيَالُونَ بِمُسْتَقْبَلِ أَفْلَاحِ أَكْبَادِهِمْ وَتَعَمَّرَةِ أَفْدَنِيهِمْ ؟ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ
لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [٣٧/٥] .

هَذَا ؛ وَلَئِنْ كَانَ عُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾
[البقرة/ ٢٢١] مُخَصَّصًا بِخَوَازِئِ نِكَاحِ الْكِتَابِيَّاتِ مَعَ مُرَاعَاةِ الْقِيُودِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ
تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ﴾ [البقرة/ ٢٢١] بَاقٍ عَلَى عُمُومِهِ ، فَلَا
يَحِلُّ لِمُسْلِمَةٍ الْاِفْتِرَاقُ بِأَيِّ مُشْرِكٍ كَانَ ، سَوَاءً وَثَنِيًّا أَوْ كِتَابِيًّا ، مَعَ اعْتِصَادِهِ بِمَا دَلَّ
عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَّهُنَّ ﴾

[المنحة/١٠] . إذ لا خلاف في كفر أهل الكتاب بعد تحريفهم وتبديلهم وكفرهم بنبينا ﷺ وما أنزل عليه .

ولا يُعكّر هذا الاستدلال كون الآية الكريمة نزلت في مشركي العرب ؛ لأن الحكم يطر بالكفر وجعل عامًا في الكفار ، والحكم على المشتق يؤذن بعليته ، ولا عبرة بخصوص السبب مع عموم اللفظ ، وما كان من تزويج النبي ﷺ بغض بناته بغير المسلمين فذلك قبل مشروعية هذا الحكم .

٦٥. والحكم إن حاربوا في الكل متحد نهب وسبي وقتل فيهم فعلا
٦٦. حاشا قرئشا فإن السبي مُمتنع فيهم على قول أهل المغرب الفضلا

يعني أن جميع هؤلاء الخارجين عن ملّة الإسلام - سواء كانوا يهودًا أو نصارى أو صابئين أو مجوسًا أو مشركين يعبدون الأوثان أو ملاحدة ممن لا دين لهم - يتحد حكمهم إن حاربوا المسلمين ، وهو قتل مقاتلتهم وغنم أموالهم وسبي ذراريهم ونسائهم ، وفي هذه الحالة لا يحل نكاح نساء أهل الكتاب ، لأنهن عرضة للسبي كما ذكرنا .

واختلف في حل ذبائحهم ، فجمهور أصحابنا لا يرون حلها حتى يَكُونُوا أَهْلَ دِمَّةٍ ، وذَهَبَ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَجْهُهُمُ أَصْحَابُ الْمَذَاهِبِ الْأُخْرَى إِلَى أَنَّهُمْ إِنْ ذَكَّوْهَا ذَكَاةً شَرْعِيَّةً حَسَبًا يَدِينُونَ فِيهِ حَلَالٌ ، وَهُوَ أَقْوَى دَلِيلًا كَمَا بَسَطْتُهُ فِيمَا كَتَبْتُهُ فِي الذَّبَائِح .

واختلف في السبي ؛ هل يشمل جميع العناصر والشعوب أو يُسْتثنى مِنْ حُكْمِهِ بَعْضُهُمْ ؟ فَقِيلَ بِاسْتِثْنَاءِ الْعَرَبِ مُطْلَقًا ، وَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مِنْ أَصْحَابِنَا ، لِمَا يُرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَا رِقَّ عَلَى عَرَبِيٍّ بَعْدَ الْيَوْمِ » . وَقِيلَ بِاسْتِثْنَاءِ قُرَيْشٍ وَحَدَّهَا تَكْرِيمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْمُصَنِّفِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

حَاشَا قُرَيْشًا فَإِنَّ السَّبْيَ مُنْتَجِعٌ فِيهِمْ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ الْفَضْلَا

وَقِيلَ بَعْدَ اسْتِثْنَاءِ أَحَدٍ ، لَأَنَّ عِلَّةَ ذَلِكَ هِيَ الْإِشْرَاكُ ، وَهُمْ جَمِيعًا مُشْتَرِكُونَ فِيهِ ، مَعَ أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ يَوْمَ فَتَحِ مَكَّةَ الْمَكْرُمَةَ لِقُرَيْشٍ : « اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ » ، وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَصًّا فِي اغْتِبَارِهِمْ سَبَابًا قَبْلَ أَنْ يُنْعِمَ عَلَيْهِمْ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِمَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِطْلَاقِ ؛ فَإِنَّهُ يَسُوعُ أَنْ يُسْتَنْجَعَ مِنْهُ هَذَا الْحُكْمُ لَمَنْ رَأَى ذَلِكَ ، إِذِ الْإِطْلَاقُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ قَبْضٍ ، وَقَدْ سَبَى ﷺ قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي هَوَازِنَ وَبَنِي الْمُصْطَلِقِ . وَمَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهُ قَالَ : « لَا رِقَّ عَلَى عَرَبِيٍّ بَعْدَ الْيَوْمِ » لَمْ أَجِدْ لَهُ سَنَدًا ، وَلَوْ ثَبَتَ ذَلِكَ لَمَا وَقَعَ خِلَافٌ فِي مَضْمُونِهِ .

عَلَى أَنَّ السَّبْيَ إِنَّمَا هُوَ إِجْرَاءٌ عَسْكَرِيٌّ ، وَلَا يُلْزَمُ أَنْ يَتَرْتَّبَ عَلَيْهِ الْاسْتِرْقَاقُ ، وَإِنَّمَا كَانَ مَا كَانَ مِنْ اتِّبَاعِ هَذَا الْإِجْرَاءِ لِأَجْلِ ضَرُورَةِ الْمُعَامَلَةِ بِالْمِثْلِ ، لِئَلَّا يُكَالَ الشَّرُّ لَأُمَّةِ الْإِسْلَامِ وَهِيَ مَكْتُوفَةُ الْأَيْدِي عَنِ الرَّدِّ بِمِثْلِهِ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْأَسْبَابِ لَاهْتِدَاءِ السَّبَابَا إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِنْقَادِهِمْ مِنَ الشَّرِّ وَضَلَالِهِ ، وَإِلَّا فَإِنَّ كَانَتْ مَصْلَحَةُ الْإِسْلَامِ وَالْأُمَّةِ فِي عَدَمِ الْاسْتِرْقَاقِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُؤْخَذُ بِهِ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَنْعَضْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكُ فَإِمَّا مَثًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [عَمَد/٤] . إِذْ لَمْ يَذْكُرْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُنَا إِلَّا طَرِيقَيْنِ فِي مُعَامَلَةِ الْأَسْرَى ، وَهُمَا : أَلَمَنَ عَلَيْهِمْ بِإِطْلَاقِ سَرَاحِهِمْ وَمُقَادَاةِ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ بِهِمْ ، إِذِ الْأَصْلُ فِي الْإِنْسَانِ الْحُرِّيَّةُ ، وَالرَّقُّ عَارِضٌ لَهُ .

وَلِذَلِكَ أَبْطَلَ الْإِسْلَامُ جَمِيعَ وَسَائِلِهِ إِلَّا هَذِهِ الْوَسِيلَةَ الْوَاحِدَةَ الَّتِي اقْتَضَتْهَا ضَرُورَةُ التَّعَامُلِ بِالْمِثْلِ ، لِئَلَّا يَقِفَ الْمُسْلِمُونَ مَوْقِفَ الدَّلِّ وَالضَّعْفِ أَمَامَ أَغْدَائِهِمْ ، وَمَعَ قِيَامِ الْمُعَاهَدَاتِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ عَلَى عَدَمِ اسْتِرْقَاقِ أَسْرَى الْحَرْبِ وَالتَّزَامِ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْغَيْرِ لَا تَبْقَى ضَرُورَةُ دَاعِيَةٍ إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ تَقْدِيمُ أَلَمَنَ عَلَى الْفِدَاءِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِلَّا دَلِيلًا عَلَى سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ وَعَظَمَتِهِ وَاعْتِدَالِهِ وَرِفْقِهِ ، وَذَلِكَ بِخِلَافِ مَا يُرَوِّجُهُ خُصُومُهُ وَيُحَاوِلُونَ إِيصَافَهُ بِهِ مِمَّا هُوَ مِنْهُ بَرَاءٌ .

٦٧. وَالذَّبْحُ إِنْ سَأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ مَعَ النَّ * نِكَاحُ مِنْهُمْ أَجْزُ إِلَّا الْإِمَاءَ فَلَا

هذا الْحُكْمُ خَاصٌّ بِأَهْلِ الْكِتَابِ - كَمَا تَقَدَّمَ - ، وَهُوَ إِبَاحَةُ أَكْلِ ذَبَائِحِهِمْ وَنِكَاحِ الْحَرَائِرِ مِنْ نِسَائِهِمْ ، وَقَيْدُ الْمُصَنَّفِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حَلْيَةُ ذَبَائِحِهِمْ بِمَا يُقَيَّدُ نِكَاحَ الْحَرَائِرِ مِنْ نِسَائِهِمْ ؛ وَهُوَ كَوْنُهُمْ مُسَالِمِينَ أَيْ غَيْرَ مُحَارِبِينَ ، وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ أَصْحَابِنَا - كَمَا تَقَدَّمَ - بخلافِ لِرَأْيِ جُمْهُورِ الْأُمَّةِ .

وقد اخْتَرْتُ غَيْرَ هَذَا الْقَوْلِ - كَمَا أَشْرْتُ مِنْ قَبْلُ - لِمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : « مِنْ أَنْ الْمُسْلِمِينَ أَخَذُوا يَوْمَ غَيْبَرِ حَرَابَ شَحْمِ الْقَاهِ الْيَهُودَ مِنْ دَاخِلِ حِصْنِهَا فَأَكَلُوهُ » ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جُمْهُورُ أَصْحَابِنَا أَبْلَغَ فِي الْإِخْتِطَاطِ وَأَقْعَدَ مِنْ حَيْثُ النَّظَرُ إِلَّا أَنْ الْخَبَرَ أَهْطَلَهُ ، وَلَا حَظَّ لِلنَّظَرِ مَعَ الْأَثَرِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْإِخْتِطَاطَ بَابٌ وَاسِعٌ وَتَبَغْيُ الْأَخْذِ بِهِ فِي الْعَمَلِ ، أَمَّا فِي الْإِفْتَاءِ وَالْحُكْمِ فَيُؤَخَذُ بِالذَّلِيلِ ، كَمَا قَالَ إِمَامُ الْمَذْهَبِ أَبُو سَعِيدٍ الْكُدَمِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : « لَيْسَ الْعَالَمُ مَنْ حَمَلَ النَّاسَ عَلَى وَرَعِهِ ، وَإِنَّمَا الْعَالَمُ مَنْ أَقْنَاهُمْ بِمَا يَسْعَهُمْ فِي دِينِهِمْ » .

وَأَمَّا حُلُّ تَزْوُجِ نِسَائِهِمْ فَهُوَ مُقَيَّدٌ بِقَيَدَيْنِ :

١ أولُهُمَا : أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي حَالَةِ سَلَمٍ لَا فِي حَالَةِ حَرْبٍ ، لِأَنَّ الْمُحَارِبَةَ غَرَضَةٌ لِلْسَّبْيِ - كَمَا تَقَدَّمَ - ، ثُمَّ إِنَّهَا لَا يُؤْمَنُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ عَيْسًا لِأَهْلِ مِلَّتِهَا ، تَذَلُّهُمْ عَلَى نَعْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَعَوْرَاتِهِمْ ، وَمَنْ الَّذِي يَأْمَنُ الْيَوْمَ - وَقَدْ تَحَالَفَتِ الْيَهُودِيَّةُ وَالصَّلَيبِيَّةُ عَلَى حَرْبِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ - مِنْ إِقْحَامِ الْعُنْصُرِ النَّسَائِيِّ فِي سِيَاسَتِهِمُ الْحَرْبِيَّةِ ، وَاتِّخَاذِ اللَّوَاتِي يَقْتَرِنُ مِنْهُنَّ بِرِجَالِ الْمُسْلِمِينَ عِيُونًا عَلَيْهِمْ يَكْشِفْنَ لِأَقْوَامِهِمْ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ نَعْرَاتِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ وَعَوْرَاتِهَا ، لَا سِيَّمَا أُولَئِكَ اللَّاتِي يَنْتَسِي لِهِنَّ الْأَقْرَانُ بِرِجَالِ السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ ، فَيَصْطَلِدُنَّ مِنْهُمْ أَسْرَارَ الْأُمَّةِ لِيَتَشَبَّهَ أَبْنَاءُ مِلَّتِهِنَّ غَيْرَ قَنَوَاتٍ مُخَصَّصَةٍ لِلذَّكَاءِ ؟ فَكَمْ مِنْ أَسِيرٍ شَهَوْتِهِ رُزِقَتِ الْأُمَّةُ بِسَبْيِهِ ؛ إِذْ بَاحَ بِمَا يُكْتَهُ مِنْ أَسْرَارِ إِلَى الَّتِي يَعُدُّهَا شَرِيكَةً حَيَاتِهِ سَاعَةَ هَيْجَانِ شَهَوْتِهِ وَلَوَغَةِ غَرَامِهِ ، فَاطْلَعَتْ عَلَى مَا

لا يطلع عليه من الأمة إلا خاصتها من أسرار السياسة الحربية ، وهي لم تأت إليه إلا لتخدم مصلحة أمتها ، فلم تأل جهداً في القيام بمهمتها والحفاظ على مسؤوليتها ، فأصبحت الأمة هي الخاسرة ، إذ راحت ضحية شهوات كبرائها .

❖ ثانيهما : أن تكون حرة ، إذ لا تحل إماء أهل الكتاب ، لأن حلية نكاح الأمة مشروطة في القرآن بعدم استطاعة الطول إلى نكاح المحصنات - أي الحرائر - وخوف العنت - وهو الوقوع في الزنا - مع كون الأمة المنكوحة مؤمنة ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَعِنَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ قَبَائِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ عَشِيَ الْعَنَتِ مِنْكُمْ وَأَنْ تُصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ ﴾ [النساء/ ٢٥] .

وهذا التشديد إنما هو لأجل المحافظة من المسلم على أفلاد كبدته ونمرات فؤاده لئلا يكوئوا غرضة للرق ، ولئلا يكوئوا تبعاً لغير المسلمين ، فإن الأولاد كما يتبعون آباءهم في الألساب يتبعون أمهاتهم في الحرية أو الرق ، فلذلك ما كان للمسلم أن يلجأ إلى ما يرق أولاده في سبيل قضاء شهوته ، إلا أن لا يجد متاصاً من ذلك ، بحيث لا يقدر على مقاومة غريزته ولا يجد سبيلاً إلى نكاح الحرة ، فيتخلص به من تأثير تلك الغريزة .

ومنع من أن تكون الأمة التي ينكحها غير مسلمة ؛ لئلا يسترق أولاد المسلمين من قبل أهل الكتاب ، هذا هو قول أصحابنا والجمهور ، وفي ذلك خلاف بسطته في بعض الفتاوى فليرجع إليه من شاء .

وقول المصنف - رحمه الله - : «إلا الإماء فلا» جري على مذهب أصحابنا ووافقهم عليه الجمهور ؛ وهو عدم حل نكاح الإماء منهم ، وقد عضدوا ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة/ ٥] ، فإن المحصنات وصف يشمل الحرائر والعائف .





١٩

خاتمة



٦٨. إِنَّ الْإِمَامَةَ فَرَضٌ حِينَمَا وَجَبَتْ شُرُوطُهَا ، لَا تَكُنْ عَنْ شَرْطِهَا غَفْلًا
 ٦٩. وَبَاطِلٌ سِيرَةٌ فِيهَا الْإِمَامَةُ فِي اثْنِ * خَتْنٍ لَوْ بَلَغَا فِي الْمَحْدِ مَا كَمُلَا
 ٧٠. وَبَعْدَ مَا فَتِحَتْ أُمُّ الْقُرَى نُسخًا مَا كَانَ مِنْ هِجْرَةٍ مَفْرُوضِهَا اتِّصَلَا
 ٧١. إِنَّا نَدِينُ بِتَضْوِيهِ الْأَلْيِ مَنْعُوا حُكُومَةَ الْحَكَمَيْنِ حِينَمَا جَهَلَا
 ٧٢. وَالرَّاسِيَّ أَوَّالِي بَعْدَ جُمْلَتِهِمْ وَمَنْ بِهِ نَسَبُ الْإِسْلَامِ قَدْ وَصَلَا
 ٧٣. عَنَيْتُ نَحْلَ إِبَاضٍ فَهُوَ حُجَّتُنَا عَنَيْتُ نَحْلَ إِبَاضٍ فَهُوَ حُجَّتُنَا
 ٧٤. وَمَنْ قَفَا إِيْرَهُمْ مِنْ كُلِّ مُجْتَهِدٍ شَاكِي السَّلَاحِ لِقَمْعِ الْخَصْمِ حِينَ غَلَا



٧٥. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى إِيْمَامِ مَا رُمْتُ إِذْ مِنْ فَضْلِهِ كَمُلَا
 ٧٦. ثُمَّ الصَّلَاةُ وَتَسْلِيمٌ يُقَارِئُهَا عَلَى الَّذِي خَتَمَ الْمَوْلَى بِهِ الرُّسُلَا
 ٧٧. وَالْآلِ وَالصَّحْبِ مَا لَاحَتْ فَضَائِلُهُمْ وَمَنْ لَهُمْ فِي سَبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ ثَلَا



٦٨. إِنْ الْإِمَامَةَ فَرَضَ حَيْثَمَا وَجَبَتْ شُرُوطُهَا ، لَا تَكُنْ عَنْ شَرْطِهَا غَفْلًا

الإمامة هي القيادة الكبرى للأمة ، وهي ضرورة من أجل جمع شمل الأمة وتأييد قلوبها والشهوض بمسئولياتها ، ومن بينها : الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود الشرعية ، وإغاثة الملهوفين ونصرة المظلومين ، والجهاد في سبيل الله ، وإقامة الجمعات ، فإن ذلك من مسؤوليات الأمة ، ولا يمكن أن يقوم بذلك أفراد مشتتون ، وإنما يتم ذلك في حين قيام النظام الشرعي ، ووجود قائد للأمة تفوض إليه أمرها وتسلس له قيادتها ، وتحوطه بنصحها وتوجيهاتها .

وهو منصب لا يختار له إلا من كان ذا أهلية تامة ، وذلك بأن يكون رجلاً ، مسلماً ، ورعاً ، سليم الحواس والعقل ، ليست به عاهة ، وأن يكون حراً بالغاً ، متمتعاً بمؤهلات القيادة : من الإقدام وحسن السياسة والحكمة وسعة الصدر ورباطة الجأش وغلو الهمة ، والخبرة بشؤون الدين والدنيا ، ومعنى هذا أنه لا بد من أن يكون عالماً مجتهداً ، أو أن يكون من حوله علماء يستمد منهم خبرته ويرجع إليهم في حل المشكلات .

وعلى كلا الأمرين لا مناص له عن الشورى ، وذلك بأن يستشير في كل شأن أهل الخبرة به ، ففي مجال الشرع يستشير الفقهاء ، وفي الشؤون الحربية يستشير ذوي الخبرة العسكرية ، وفي الشؤون المالية يرجع إلى ذوي الخبرة الاقتصادية ، وهكذا في كل مجال يرجع إلى المختصين به ، مع ضبط هذه المشورة بالأحكام الشرعية ، لأن الشريعة الربانية هي أساس هذا النظام .

وهذا المنصب إنما هو وراثته للتبوة ، فلذلك لا يتبوؤه إلا من كان على منهاج الأنبياء ، فَمَا لِأَهْلِ الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ فِيهِ مِنْ نَصِيبٍ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ

عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ | البقرة/١٢٤ | ، فَكَمَا أَنَّ الظَّالِمَ لَا يَكُونُ نَبِيًّا قَطُّ كَذَلِكَ لَا يَقْعُدُ عَلَى عَرْشِ خِلَافَةِ الشُّبُورَةِ .

وَلَا يُشْتَرَطُ لِهَذَا الْمَنْصَبِ نَسَبٌ بَعِيْنُهُ ، فَجَمِيعُ النَّاسِ مُتَسَاوِيَةٌ فِيهِ أَقْدَامُهُمْ عِنْدَمَا تَتَوَقَّرُ فِيهِمُ الشُّرُوطُ الْمَطْلُوبَةُ ، فَلَيْسَ الْعَرَبِيُّ أَوْلَى بِهِ مِنَ الْأَعْجَمِيِّ ، وَلَا الْقُرَشِيُّ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِهِ .

وَأَمَّا كَانَ اخْتِيَارُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ قُرَيْشٍ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - مُرَاعَاةً لِمَصْلَحَةِ سِيَاسَةِ الْأُمَّةِ ، فَإِنَّ الدَّوْلَةَ كَانَتْ قَائِمَةً يَوْمَئِذٍ عَلَى أَكْثَافِ الْعَرَبِ ، لِأَنَّ مُعْظَمَ الرِّادَةِ فِي الْإِسْلَامِ كَانُوا مِنْهُمْ ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ جَمِيعًا تُجِلُّ قُرَيْشًا لِمُحَاوَرَتِهَا بَيْتَ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي وَرَثَتِ الْعَرَبُ تَعْظِيمَهُ ، وَلِأَنَّهَا الْقَائِمَةُ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ مِمَّا أَوْزَنَتْهَا مَكَانَةً فِي نُفُوسِ الْعَرَبِ جَمِيعًا ، وَعَمَّقَ ذَلِكَ أَنَّ اخْتِيَارَ اللَّهِ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ بَيْنِهِمْ وَاسْتَخْلَصَهُ مِنْ ضَيْضِي نَسَبِهِمْ ، فَزَادَهُمْ ذَلِكَ قَدْرًا وَمَكَانَةً ، فَلِذَلِكَ كَانَ جَمْعُ شَتَائِهِمْ بِأَنْ يَتَّبِعُوا هَذِهِ الْمَكَانَةَ وَاحِدًا مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إِلَى مَخْنَدِهِمْ أَقْرَبَ إِلَى مَا أَلْفَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَعَهْدِهِ فِي طِبَاعِهِمْ ، وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْعَرَبَ لَا تَدِينُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ » .

وَهَذَا مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ اخْتِيَارَ الْخُلَفَاءِ مِنْهُمْ كَانَ إِجْرَاءً سِيَاسِيًّا مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ الدِّينِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ فَحَسَبَ ، وَفِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا وَجِدَ الْأَكْثَفُ مِنْ غَيْرِهِمْ فَهُوَ أَوْلَى بِهَذَا الشَّانِ ، مَعَ أَنَّ الَّذِينَ اخْتِيرُوا لِلْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ لَمْ يُخْتَارُوا لِقُرَشِيَّتِهِمْ فَحَسَبَ ، وَإِنَّمَا لِسَابِقَتِهِمْ فِي الْفَضْلِ ، وَلِأَنَّهُمْ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، فَكَانُوا أَحْرِيَاءَ بِذَلِكَ .

فَإِذَا وَجِدَ الْقَائِمُ بِهَذَا الْأَمْرِ وَجَبَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَاعَتُهُ وَنَصِيحَتُهُ ، فَإِنْ أَخْطَأَ صَوْبَ ، وَإِنْ نَسِيَ ذِكْرَ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْحَقِّ أَعْوَانٌ ، وَهُمْ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ تَتَفَاعَلُ أَعْضَاؤُهُ جَمِيعًا مَعَ كُلِّ مَا يَغْنِيهِ ، وَقَدْ عَطَفَ اللَّهُ تَعَالَى طَاعَةَ أَوْلِي الْأَمْرِ عَلَى طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء/٥٩] أَيْ :

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ وَيُطِيعُونَهُ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنَّ تِلْكَ هِيَ أَسْبَابُ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، كَمَا نَصَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [النوبة/ ٧١] .

نُمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَ مَعَ الْاِخْتِلَافِ أَنْ يَكُونَ الْاِخْتِكَامُ إِلَيْهِ وَإِلَى رَسُولِهِ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - ، حَيْثُ عَطَفَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء/ ٥٩] .

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ وَجُوبَ هَذِهِ الطَّاعَةِ مُقَيَّدٌ بِطَاعَتِهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ ، أَمَّا مَنْ خَرَجَ عَنْ حُدُودِ طَاعَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مَعْصِيَتِهِ فَلَا طَاعَةَ لَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « إِنِّي وَلِيُّكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، فَأَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيكُمْ ، وَإِذَا عَصَيْتُهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ » .

وَبِمَا أَنَّ مَنْ لَمْ يَرْقُ إِلَى مَرْتَبَةِ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ غُرُضَةٌ لِلْخَطَا وَالزَّلَلِ كَانَ الْحُكْمُ فِيهِ إِنْ وَاقَعَ مَعْصِيَةً - وَلَوْ صَغِيرَةً - أَنْ يُسْتَتَابَ ، فَإِنْ تَابَ أَقْرَبَ ، وَإِنْ أَصْرَّ وَجَبَ عَلَى أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ عَزْلُهُ وَتَقْدِيمُ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَرَوْنَ فِيهِ الرُّشْدَ وَالصَّلَاحَ .

أَمَّا إِنْ كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ تُوجِبُ عَلَيْهِ حَدًّا شَرْعِيًّا - كَالزُّنَا وَالسَّرِقَةِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ - فَإِنَّ إِمَامَتَهُ تَزُولُ بِذَلِكَ ، وَيَجِبُ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ يَخْتَارُوا لِأَمْرِهِمْ مَنْ تَوَافَّرَ فِيهِ شُرُوطُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالْفَضْلِ، وَيَقُومُوا عِنْدَئِذٍ بِإِنْفَادِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ فِي الْإِمَامِ الْأَوَّلِ .

وَمِنْ عَجَائِبِ الْأَقْوَالِ قَوْلُ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ إِنْ تَابَ يَنْقَى فِي إِمَامَتِهِ ، وَإِنَّمَا يُخْتَارُ مِنْ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ إِمَامٌ مَوْقُوتٌ بِقَدْرِ مَا يُقِيمُ عَلَيْهِ الْحَدَّ الشَّرْعِيَّ . وَلَعَمْرُ الْحَقِّ مَا هُوَ إِلَّا قِصْرُ نَظَرٍ مِنْ قَائِلِهِ ، فَمَآذَا عَسَى أَنْ تَكُونَ مَكَانَةُ الْمَحْدُودِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حَيْثُ التَّقْدِيرُ وَالتَّوْقِيرُ ؟ وَلَوْ رَجَعَتْ إِلَيْهِ الْوَلَايَةُ بِتَوْبَتِهِ وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهُ فَإِنَّهُ يَنْقَى غُرُضَةٌ

للمُخْرِجَةِ وَالْإِسْتِخْفَافِ وَاللَّمْرِ وَالنِّبَرِ . أَفَيَصْلُحُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ قَائِدًا لِلْأُمَّةِ ؛ يُلْتَمَسُ بِهِ أَمْرُهَا وَتُتْلَفُ عَلَيْهِ قُلُوبُهَا ؟ وَلَيْنَ كَانَ الْمَحْدُودُ عَلَى الرَّأْيِ كَفُوفًا لِمُحَصَّنَةِ عَقِيْقَةٍ وَلَوْ ثَابَ مِنْ جَرِيرَتِهِ وَإِنَّمَا يُزَوِّجُ مِثْلَهُ مِنَ النِّسَاءِ ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ أَهْلًا لِأَنْ يَتَّبِعُوهُ أَعْظَمَ مَنْصِبٍ دِينِيٍّ وَسِيَاسِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ فِي الْأُمَّةِ !؟

لِذَلِكَ كَانَ الْقَوْلُ بِسُقُوطِ إِمَامَتِهِ بِمُحَرِّدِ ثُبُوتٍ مُوجِبِ الْحَدِّ عَلَيْهِ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوْحَدُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعَوَّلَ عَلَيْهِ وَلَا يُلْتَفَتَ إِلَى مَا سِوَاهُ .

٦٩ . وَبَاطِلُ سِرَّةِ فِيهَا الْإِمَامَةُ فِي اثْنِ * سِتِّينَ لَوْ بَلَّغَا فِي الْمَجْدِ مَا كَمَلَا

الْإِمَامُ هُوَ وَاسِطَةُ عَقْدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَنِظَامُ الْإِمَامَةِ شَرَعَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ أَجْلِ جَمْعِ الشُّتَاتِ وَتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ وَتَقْرِيبِ الْقَاصِي ، وَهُوَ يَتَنَافَى مَعَ التَّفَرُّقِ وَالْإِخْتِلَافِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ أَنْ يَجْمَعَ إِمَامَتَيْنِ مَعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مَذْعَاةٌ لِإِخْتِلَافِ الرَّأْيِ وَتَشْتِثُ الْكَلِمَةَ ، وَقِيَامُ الْعَصِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَذْفَعُ بِجَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَعْصِبِ كُلِّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ لِإِمَامٍ .

فَإِنْ بُويعَا مَعًا بِنِعَةٍ وَاحِدَةٍ فَيُعْتَنُهُمَا بَاطِلَةٌ ، لِأَنَّهَا جَاءَتْ مُخَالِفَةً لِهَدْيِ الْإِسْلَامِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » .

وَإِنْ سَبَقَتْ بِنِعَةٌ أَحَدَهُمَا ثُمَّ بُويعَ الْآخَرُ فَالْآخِرُ بَاطِلٌ يَجِبُ قَتْلُهُ إِنْ لَمْ يَتَرَاجَعْ عَنْ بُعْيِهِ وَيَدْخُلَ فِي طَاعَةِ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ الشَّرْعِيِّ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَكُونَ إِمَامَةُ الْأَوَّلِ سَاقِطَةً لِالْعِتْبَارِ - لِأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى فُسَادٍ مِنْ أَصْلِهَا ، أَوْ لَارْتِكَابِ الْإِمَامِ مَا يُوجِبُ عَزْلَهُ ، أَوْ لِطُرُوقِ أَمْرِ قَهْرِيٍّ يُسْقِطُ إِمَامَتَهُ كَمُجُنُونٍ - فَإِنْ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ لَتَقْلِيدِ الْإِمَامَةِ غَيْرِهِ مِمَّنْ تَجْتَمِعُ فِيهِمْ أَسْبَابُ الْكِفَايَةِ لِلِاضْطِلَاعِ بِمَسْئُولِيَّاتِهَا مَطْلَبٌ شَرْعِيٌّ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ الْإِمَامَةِ لِاثْنَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ : ائْتِجَادُ الْجَمَاعِ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْصَارَ ﷺ أَرَادُوا ذَلِكَ أَوَّلًا عِنْدَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ : « مِنْ أَمِيرٍ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ » ، فَعَارَضَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمُ الصَّدِيقُ ﷺ الَّذِي قَالَ : « هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ . اللَّهُ

واحد ، والرَّسُولُ واحد ، والإمام واحد . فاستقرَّ إجماعُ الكلِّ على ذلك ، مع ما جاء من قوله ﷺ : « إذا بُويعَ لِرَجُلَيْنِ فاضربُوا عُنُقَ الثَّانِي مِنْهُمَا » .

هذا كله إن كان تُفوذُ دولة المسلمين مُستدًّا في الأرض ، بحيث لا يفصل بين جانب من مكان تُفوذهم وجانب آخر عدو مُترَبِّص ، لأن الاجتماع في هذه الحالة مُمكن ، فلا وَجْهَ للعدول عنه إلى التشتت والافتراق .

أما إن كان تُفوذُ المسلمين في جهتين مُتتاليتين ، بحيث يتعذر أن تتوحد مرجعيتهم الدينية والسياسية لوجود ما يصدُّ تُفوذ الإمام إن كان في جهة إلى الجهة الأخرى ؛ فلا مانع من أن يجتمع أهل كل جهة على إمام لهم وحدهم ، كما حصل ذلك في القرنين الثاني والثالث الهجريين في أهل دَعْوَةِ الْحَقِّ والاستقامة ، حيث بُويع لأئمة منهم بالشرق وأئمة بالمغرب ، لتعذر أن يقوم الإمام المشرقي برعاية أمر المسلمين الذين هم بالمغرب ، وكذا العكس ، ولم يكن نكير لهذا الأمر .

وعندما يزول الحاجز بين الدولتين حيث يتواصل فتحهما إلى أن تصل حدود دولة كل إمام إلى حدود دولة الإمام الآخر ؛ فهنا يجب أن يرد الأمر إلى جماعة المسلمين من الجهتين معاً ، وهي التي تختار من الإمامين من كان أكفأ لهذا المنصب بعلمه ودينه وسياسته وإقدامه ، وتفانيه في هذا الأمر ، وترفعه عن مطامع الدنيا ، ورغبته في أن يقوم بهذا الأمر غيره وأن يُعذر هو منه ، فإذا وقع عليه الاختيار جددت له البيعة ، لأن بيعة كل واحد منهما تسقط بما طرأ من تلاقي حدود دولتيهما .

٧٠ . وَبَعْدَ مَا فَتَحَتْ أُمُّ الْقُرَى نُسَخَا مَا كَانَ مِنْ هِجْرَةٍ مَفْرُوضَهَا اتَّصَلَا

يعني أن فتح أم القرى في عهد الرسول ﷺ كان سبباً لنسخ ما كان يجب من هجرة المسلمين إلى دار الهجرة التي هاجر إليها رسول الله ﷺ ؛ وهي طيبة المباركة - طيب الله ثراها - .

فقد كانت الهجرة إليها مطلباً دينياً لا يسع المسلم تركه في حالة الإمكان ، حتى أن من لم يهاجر لم يستحق ولاية المؤمنين له ، بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ [الأنفال/ ٧٢] ، وما ذلك إلا لما أراد الله تعالى من اجتماع أمة الإسلام في صدر تاريخها عندما تمخضت الأحداث فتم ميلادها ، ليكون في هذا الاجتماع التفاف من بعضها حول بعض ، للتعاون على البر والتقوى ، وليرتبي أفرادها في كنف دولة الإسلام الناشئة على التضحية والبذل والزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله .

ولا ريب أن في ذلك امتحاناً للمهاجرين واختباراً لصحة إيمانهم ، فإن هجرتهم إنما كانت من ديار ألقوها ، وأموال أقتنوها ، ومساكن ارتضوها ، متحدين من علائق الدنيا ، وذلك أمر لا يوطن عليه نفسه إلا من كان راسخ الإيمان ماضي العزيمة ، لا يرى الدنيا شيئاً بحجاب دينه .

فلذلك مدحهم الله تعالى بقوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَعَوْنَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر/ ٨] ، ووعدهم الحسنى بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوَّتُهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل/ ٤١] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء/ ١٠٠] .

وما كانت هذه الهجرة إلى المجتمع الإسلامي التظيف الناشئ إلا رمزاً للهجرة الكفر والفسوق ، وتولية الوجه نحو مرضاته ﷻ ، مع أن المجتمعات الأخرى كانت عفنة بنشئ الكفر والفسوق ، فلم تكن بيتها صالحة لاستقرار المؤمنين بها ، لذلك كله شرعت الهجرة وكانت لازماً .

وبعد ما فتحت أم القرى أي مكة المكرمة - حرسها الله - بسبع وجوب الهجرة ، كما جاء في الحديث : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » .

وذلك لأن فَتْحَ مَكَّةَ كانَ إِبْدَانًا بِفَتْحِ الْخَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِأَسْرِهَا وَاسْتِقْرَارِ
 الْإِسْلَامِ بِهَا ، فَلَمْ يَكُنْ دَاعٍ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى إلْزَامِ هَذِهِ الْحَمَاسِ الْمُؤْمِنَةِ أَنْ تُهَاجِرَ مِنْ
 دِيَارِهَا وَتَسْتَقِرَّ فِي مَسَاحَةِ مَحْدُودَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى
 الْمَدِينَةِ قَبْلَ نَسْخِ الْهِجْرَةِ ، فَإِنْ فِي تَكْلِيفِ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْهِجْرَةِ مَشَقَّةٌ بِالْعَةِ ،
 وَالْحَقِيقَةُ حَاءَتْ بِالْإِسْرِ لَا بِالْعُسْرِ ، عَلَى أَنْ ذَوَاعِيَ الْهِجْرَةِ الَّتِي كَانَتْ أَوَّلًا انْسَهَتْ
 بِهَذَا الْفَتْحِ ، وَإِنَّمَا بَقِيَ الْجِهَادُ لِتَوَاصُلِ الْفُتُوحِ فِي أَطْرَافِ خَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَفِيمَا حَوْلَهَا مِنْ
 مَمَالِكِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ .

وَلَا يَعْني نَسْخُ وَجُوبِ الْهِجْرَةِ بَعْدَ الْفَتْحِ أَنَّهَا لَا تُجِبُ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، فَإِنْ
 الْمُسْلِمُ عِنْدَمَا تَحْوُلُ بَيْتُهُ إِلَى بَيْتَةٍ كُفِرَ - بِحَيْثُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ وَيُصَدُّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ
 الصَّلَاةِ ، وَيَكُونُ غَيْرَ حُرٍّ فِي مُعَارَسَةِ الْوَاجِبَاتِ الدِّينِيَّةِ وَتَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ عَلَيْهَا - يُجِبُ
 عَلَيْهِ أَنْ يَهْجُرَ تِلْكَ الْبَيْتَ إِلَى بَيْتٍ أُخَرَى يُجِدُ إِسْلَامَهُ فِيهَا مُتَنَفِّسًا ، وَيَكُونُ آمِنًا عَلَى
 نَفْسِهِ وَعَلَى أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ وَالصَّدِّ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، لِأَنَّ
 الْحُرِّيَّةَ الدِّينِيَّةَ مَطْلَبُ ضَرُورِيٍّ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ .

وَلَكِنَّ هَذِهِ الْهِجْرَةَ لَا تُجِبُ إِلَى بَلَدٍ مُعَيَّنٍ كَمَا وَجَبَتْ مِنْ قَبْلِ إِلَى أَرْضِ الْمَدِينَةِ ،
 وَإِنَّمَا تُجِبُ إِلَى أَيِّ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يُرْفَعُ فِيهَا عَنِ الْمُسْلِمِ أَيُّ ضَغْطٍ لَصْدِهِ عَنِ
 الدِّينِ ، فَإِنْ رَضِيَ بِأَنْ يَعِيشَ مُفْتُونًا بَيْنَ الْمَلَاحِظَةِ وَالْكَفَرَةِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُمْ
 بِالْهِجْرَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ كَانَ هَالِكًا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي
 أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً
 فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
 وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء / ٩٧-٩٨] .

وَهَذَا الْحُكْمُ يُنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَقِفُونَ تَحْتَ نِيرِ الْإِسْتِعْبَادِ
 الْقَهْرِيِّ مِنْ قَبْلِ أَغْدَانِهِمْ ، كَمَا حَصَلَ لِمُسْلِمِي الْأَنْدَلُسِ عِنْدَمَا اجْتَاَحَتْهُمْ الْحُرُوبُ

الصَّليبيَّةُ ، وما حلَّ بِكثيرٍ مِنْ بلادِ المُسلمينَ في القرنِ المُتصرِّمِ عندما اجتاحتها الثُّوراتُ الشُّيعيَّةُ .

وذكرُ المصنِّفِ - رَحِمَهُ اللهُ - نَسْخَ الهِجْرَةِ بَعْدَ الفَتْحِ في مَعْرِضِ ذِكْرِ الإمامَةِ وأحكامها فيه إسماءً إلى ما ذَهَبَ إِلَيْهِ أَصْحَابُنَا أَهْلُ الحَقِّ والاستِقَامَةِ - رَحِمَهُمُ اللهُ - مِنْ عَدَمِ وَجُوبِ هِجْرَةِ أَحَدٍ مِنَ المُسلمينَ إِلَيْهِمْ عندما تَقُومُ دَوْلَتُهُمْ ، لأنَّ جَمِيعَ بلادِ الإسلامِ واحِدَةٌ في الحُكْمِ .

فحيثما يُصدَحُ بالأذانِ وتُقامُ الصَّلواتُ وتُمارَسُ الشَّعائِرُ الدِّيَّيَّةُ مِنْ غَيْرِ فِتْنَةٍ وَلَا إِكْرَاهٍ يَجُوزُ لِلْمُسلمِ أَنْ يُقيمَ ، خِلافًا لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الخَوارجُ مِنَ الأزارِقَةِ والصُّفَرِيَّةِ والتَّحْدِيَّةِ مِنَ الحُكْمِ على مَنْ عَدَاهُمْ بِأحكامِ المُشْرِكينَ ، وإلزامِ جَمِيعِ النَّاسِ أَنْ يَعتَقِدُوا مُعتَقَدَهُمْ - وهو تَشْرِيكُ أَهْلِ القِبْلَةِ إِنْ قَارَفُوا كَبِيرَةً ، وَقِيلَ وَلَوْ صَغِيرَةً - وإلزامِهِمُ الهِجْرَةَ إلى دَارِهِمُ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا حُكْمُهُمْ ، وهو نَهْجٌ لَمْ يَرْتَضِهِ أَصْحَابُنَا لِشُدُودِهِ عَمَّا جَرَى عَلَيْهِ السَّلَفُ والخَلَفُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ .

٧١. إِنَّا نَدِينُ بِتَصْوِيبِ الْأَلِيِّ مَنْعُفُوا حُكُومَةَ الْحَكَمَيْنِ حِينَمَا جَهَلَا

أي: إِنَّا نَقْطَعُ بِتَصْوِيبِ الفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ الَّتِي أَبَتْ إِلَّا أَنْ تَمْضِيَ قُدُماً فِي سَبِيلِ الحَقِّ ، بعدما اسْتَبَّانَتْ لَهُمُ الحَقِيقَةُ عندما التَّبَسَّتْ على كَثِيرٍ مِنْ إِخْوَانِهِمْ ، وتلكَ الفِئَةُ هُمُ الَّذِينَ رَفَضُوا تَحْكِيمَ الحَكَمَيْنِ فيما نَصَّ عليه الوَحْيُ ، وَأَبَوْا بَعْدَ ذَلِكَ التَّسْلِيمَ لِحُكْمِهِمَا .

وذلكَ عندما وَقَعَ الشَّحَارُ بَيْنَ هَذِهِ الأُمَّةِ بعدما بُويعَ الخَلِيفَةُ الرَّابِعُ الإمامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - البَيْعَةَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتِي تُوجِبُ على جَمِيعِ الأُمَّةِ طَاعَتَهُ ما أَطَاعَ فِيهِمْ رَبَّهُ ، إِذْ أُنِى مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ الَّذِي كَانَ غَامِلاً على بلادِ الشَّامِ أَنْ يَدْخُلَ فيما دَخَلَ فِيهِ المُسلمونَ ، وَنَزَعَ بِذَلِكَ الطَّاعَةَ عَنِ الخَلِيفَةِ الشَّرْعِيِّ ، وَأَجْلَبَ على المُسلمينَ

بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ ، رَافِعًا شِعَارَ الْمُطَالِبَةِ بِدَمِ عُثْمَانَ ، لِتَغْرِيرِ ضِعَافِ النُّفُوسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،
وَاسْتَطَاعَ بِدَهَائِهِ أَنْ يَجْلِبَ إِلَى صَفِّهِ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ الدَّاهِيَةَ الْمُحْتَكَّةَ .

فَكَانَتْ حَرْبُ صِفِّينَ الَّتِي دَارَتْ رَحَاهَا بَيْنَ طَرَفَيْ الْأُمَّةِ ؛ بَيْنَ عُصْبَةِ الْحَقِّ الَّتِي
كَانَ يَقُودُهَا إِمَامُهَا الشَّرْعِيُّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعُصْبَةُ الْبَغْيِ الَّتِي كَانَ عَلَى رَأْسِهَا مُعَاوِيَةُ
وَعُمَرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِ أَحَدٍ مِنَ الْفِتَّةِ الْأُولَى رَيْبٌ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ وَأَنَّ
عَدُوَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ لِلْحِفَاطِ عَلَى دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ مِنَ التَّصَدُّعِ
وَالْتَمَزُّقِ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ قَائِدٌ شَرْعِيٌّ يُبَوِّعُ عَلَى أُسَاسٍ مِنْ شَرْعِ اللَّهِ كَمَا يُبَوِّعُ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ
الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، مَعَ مَحْيَا النِّصْرِ صَرِيحًا بِقِتَالِ الْفِتَّةِ الْبَاغِيَةِ ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ
بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الْمُنْفَرَاتُ / ٩] .

وَمِمَّا زَادَهُمْ يَقِينًا أَنَّ قَتْلَ عُمَارٍ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - كَانَ عَلَى أَيْدِي تِلْكَ
الْفِتَّةِ الْمُتَشَقِّقَةِ عَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ قَتَلَهُ أَصْحَابُ مُعَاوِيَةَ ، مَعَ ثُبُوتِ قَوْلِ النَّبِيِّ
ﷺ فِيهِ : « وَنَحْ عُمَارُ! تَقْتُلُهُ الْفِتَّةُ الْبَاغِيَةُ » ، وَهُوَ حَدِيثٌ يُفِيدُ الْقَطْعَ ، لِأَنَّهُ رَوَاهُ عَنْ
النَّبِيِّ ﷺ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ صَحَابِيًّا ، بَلْ رَوَاهُ مُعَاوِيَةُ نَفْسُهُ وَعُمَرُو نَفْسُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ
رَيْبٌ فِي صِحَّتِهِ .

وَلَكِنْ لَمَّا كَادَ الْحَقُّ يُزْهِقُ الْبَاطِلَ بِدَخْرِ فِتْنَتِهِ وَاسْتِصْصَالِ شَاقَتِهِ تَمَخَّضَ ذَهَاءُ
عُمَرُو عَنْ مَكِيدَةٍ أَوْفَعَتْ كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يُدَافِعُونَ عَنِ الْحَقِّ فِي الْفِتْحِ ، فَانْقَلَبُوا مِنَ
الْيَقِينِ إِلَى الْارْتِيَابِ ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا أَمَرَ بِرَفْعِ الْمَصَاحِفِ عَلَى أَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَالْمُنَادَاةِ
بِتَحْكِيمِ الْقُرْآنِ مِنْ أَجْلِ صَوْنِ الدِّمَاءِ وَالْحِفَاطِ عَلَى الْأَرْوَاحِ ، وَقَدْ وَجَدَ فِي صُفُوفِ أَهْلِ
الْحَقِّ مَنْ غَرَّهُ الدُّنْيَا فَاصْطَنَعَهُ مُعَاوِيَةُ بِعَالِيهِ لِنَفْسِهِ ؛ وَهُوَ أَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ ، الَّذِي أَخَذَ
يُرَوِّجُ بَيْنَ النَّاسِ لَمَّا دَعَا إِلَيْهِ عُمَرُو وَمُعَاوِيَةُ وَمِنْ مَعَهُمَا مِنْ فِتَّةِ أَهْلِ الْبَغْيِ .

فَانْطَلَتْ هَذِهِ الْحِيلَةُ عَلَى الضَّعَفَاءِ ، وَأَوْجَدَتْ خَلْخَلَةً بِالْعَةِ فِي صُفُوفِ الْمُؤْمِنِينَ ،
مَعَ أَنَّ أَصْحَابَ الْبَصَائِرِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَبُو السَّبْطِينِ نَادَوْا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ بِرَفْضِهَا ، وَأَذَرَكُوا

أَنَّهَا خَدِيعَةٌ مُبْطِنَةٌ لَتَكُونَ الْكَرَّةُ لِلْبَاطِلِ بَعْدَ أَنْ كَادَ يَرْهَقُ ، غَيْرَ أَنْ ضُغُوطَ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ وَمَنْ مَالَاهُ أَدَّتْ إِلَى أَنْ يَتَنَازَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مَوْقِفِهِ الصَّامِدِ .

وقد وَقَفَ أصحابُ البصائر والهُدَى مُعَارِضِينَ لذلك ، لا ييغون بديلاً عن الجهاد الحاسم على رَغَمِ أَنْ قِيَادَاتِ الْجَيْشِ أَخَذَتْ تَتَهَاوَى فِي فَعْ هَذِهِ الخَدِيعَةِ ، وَتَمَخَّضَتْ عَنْ تَحْكِيمِ حَكَمَيْنِ فِي الْقَضِيَّةِ يُقَدِّمَانِ وَيُؤَخِّرَانِ ، مَعَ أَنَّ أَصْوَاتَ الْمُعَارِضَةِ كَانَتْ تُحْلِلُ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْمُضِيِّ قُدِّمًا حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ شَأْنَهُ ، مُنَادِيَةً بِرَفْضِ كُلِّ حُكْمٍ إِلَّا مَا حَكَمَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [المحزات/ ٩] ، وَلِسَانُ حَالِهَا يُعَبِّرُ عَنْ مَكُونِ مَشَاعِرِهَا الْمُفْعَمَةِ بِالْحُبِّ لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ وَيَعُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْحَسْرَةَ عَلَى مَا آلَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ وَهُوَ يَقُولُ :

أَبَا حَسَنِ ذَرَّهَا حُكُومَةً فَاسِقِي	حَرَاحَاتُ بَذْرِ فِي حَشَاهُ تُفُورُ
أَبَا حَسَنِ أَقْدِمِ فَأَنْتَ عَلَى هُدًى	وَأَنْتَ بِغَايَاتِ الْعُيُوبِ بَصِيرُ
أَبَا حَسَنِ لَا تُغْطِئَنَّ ذَنْبُهُ	وَأَنْتَ بِسُلْطَانِ الْقَدِيرِ قَدِيرُ
أَبَا حَسَنِ إِنْ تُعْطِئَهَا الْيَوْمَ لَمْ تَزَلْ	تَجُلُّ غُرَاهَا فَاجِرٌ وَمُبِيرُ
أَبَا حَسَنِ أَطْلَقْتَهَا لِطَلِيقِهَا	وَأَنْتَ بِقَدِّ الْأَشْعَرِيِّ أَسِيرُ
أَتَحْبِسُ خَيْلَ اللَّهِ عَنْ خَيْلِ خَصْمِهِ	وَسَبْعُونَ أَلْفًا فَوْقَهُنَّ هُصُورُ
أَبْرَهَا رِعَالًا تُنْسِفُ الشَّامَ نَسْفَةً	بِثَارَاتِ عَمَّارٍ لَهُنَّ رَفِيرُ
وَصَلُّكَ تُغُورُ الْفَاسِطِينَ بِفَيْلَقِ	لَهُ مَدَدٌ مِنْ رَبِّهِ وَتَصِيرُ
فَلَمْ يَتَّقِ إِلَّا غَلَوَةَ أَوْ تَحُشُّهُمْ	وَيَبْكِي ابْنُ صَخْرٍ قُبَّةً وَسَرِيرُ
فَمَالَكَ وَالتَّحْكِيمِ وَالْحُكْمِ ظَاهِرُ	وَأَنْتَ عَلَيَّ وَالشَّامُ تُمُورُ

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْحَكَمَيْنِ إِلَّا أَنْ اتَّفَقَا عَلَى خَلْعِ الْإِمَامِ الشَّرْعِيِّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - مَعَ اخْتِلَافِهِمَا فِي أَمْرِ خَصِيمِهِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، إِذْ لَمْ يَرْضَ

مُعْتَلٌ فِتْنَةٍ فِي التَّحْكِيمِ - وَهُوَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - أَنْ يَغْرِلَهُ، وَإِنَّمَا نَادَى بِهِ أَمِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ الْحَاضِرِينَ، فَانْكَشَفَتِ الْمُؤَامَرَةُ وَالْحَلَى الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ .

وَهُنَا وَجَدَ الَّذِينَ رَفَضُوا التَّحْكِيمَ أَنَّهُمْ أَصْبَحُوا بِلا قَائِدٍ، وَقَدْ انْقَلَتِ الزُّمَامُ وَأَصْبَحَ النَّاسُ قُطْعَانًا بِلا رَاحٍ، وَقَدْ أَطْلَبَتِ الْفِتْنَةُ بِرَأْسِهَا وَفَقَرَتْ فَاهَا مُكْشَرَةً عَنْ أَنْبِيَائِهَا الْعُصَلِّ لَتَلْتَهُمْ مَا تَبَقِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمْ يَرَوْا بُدًّا أَنْ يُيَايَعُوا أَحَدَهُمْ لِلدَّفَاعِ عَنْ حِمَاهُمْ وَالذَّبِّ عَنْ خُرْمَاتِ الدِّينِ، فَوَقَعَ اخْتِيَارُهُمْ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهَبٍ الرَّاسِبِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - وَخَرَجُوا عَنْ مَحِيطِ الْفِتْنَةِ الَّذِي لَفَحَتْهُ أَعَاصِيرُهَا الْمَوْجَاءُ وَاعْتَرَلُوا النَّاسَ، فَتَزَلُّوا بِالتَّهَرُّوَانِ .

وَلَكِنَّ الَّذِينَ نَسَجُوا خِيوطَ الْفِتْنَةِ وَنَصَبُوا شَرَائِكَهَا لِإِيقَاعِ الْأُمَّةِ فِيهِ لَمْ يَرْقُ لَهُمْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ بَقَاءَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ يُشَكِّلُ عَقَبَةً كَأَذَاءٍ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ مَآرِبِهِمْ، إِذْ هُمْ صَخْرَةُ الصُّمُودِ الصُّلْبَةِ الَّتِي لَمْ يُفْتَتِّهَا مَا فَتَّتِ الْآخَرِينَ، فَلَمْ تَرُدَّهَا الْمَحَنُ إِلَّا صَلَابَةً .

لِذَلِكَ وَجَّهُوا كُلَّ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِمْ فَأَغْرَوْا بِهِمُ النَّاسَ وَأَنَارُوا عَلَيْهِمْ حِفَائِظَهُمْ بِمَا أَلْصَقُوهُ بِهِمْ مِنَ التُّهْمِ الْكَاذِبَةِ وَأَشَاعُوهُ عَنْهُمْ مِنَ الدَّعَايَاتِ الْفَاجِرَةِ، حَتَّى كَانَتْ مَعْرَكَةُ التَّهَرُّوَانِ الَّتِي أَسْفَرَتْ عَنْ سُقُوطِ آخِرِ سُورٍ لِلْحَقِّ، وَانْدَكَكَ آخِرُ مَعْقِلِ لِحِمَايَتِهِ، فَصَفَا الْأَمْرُ لِمُعَاوِيَةَ وَطُوِيَتْ صَفْحَةُ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، لِيَحِلَّ مَحَلُّهَا مُلْكُ عَضُوضٍ يُخَيِّي فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ نِظَامَ الْإِسْتِبْدَادِ الْكِسْرَوِيِّ الْقَيْصَرِيِّ الَّذِي أَبَادَهُ الْإِسْلَامُ .

وَذَاكَ إِلَى يَوْمِ الثُّمُورِ يَتُورُ
فَنَحْنُ عَلَى سَيْرِ النَّبِيِّ نَسِيرُ
إِذَا اشْتَبَهَتْ لِلْمَعَارِقِينَ أُمُورُ
وَمَا شَذَّ عَنْهُ فِتْنَةٌ وَغُرُورُ
عَلَى مَنْ يَتَحَكِّمِ الرَّجَالُ يَصُورُ
نَحَاهِلَ فِيهَا عُسْكَرٌ وَأَمِيرُ

فَيَا فِتْنَةً فِي الدِّينِ نَارَ دُخَانِهَا
نَجَوْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْهَا عَلَى هُدًى
بَصَائِرُنَا مِنْ رَبَّنَا مُسْتَعِدَّةٌ
وَتَقْنَا بِأَنَّ الدِّينَ عُزُورَةٌ أَمْرُنَا
وَأَنَّ رِجَالًا حَكَمُوا اللَّهَ حُجَّةً
بَيِّنَةً مِنْ رَبِّهِمْ وَبَصِيرَةً

وَقَوْلُ الْمُصَنِّفِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « إِنَّا نَدِينُ ... إِيَّاكَ » يَعْنِي : إِنَّا نَقْطَعُ بِتَصْوِيبِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَتَأْيِيدِ مَوَاقِفِهَا ، لِأَنَّهَا بَنَتْهَا عَلَى أَحْكَامٍ شَرْعِيَّةٍ جَاءَ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ .

وَقَدْ كَشَفَتِ الْآيَاتُ عَنْ سَدَادِ نَظَرِهِمْ وَجَلَاءِ بَصِيرَتِهِمْ وَصَوَابِ مَوَاقِفِهِمْ ، إِذْ جَرَّتِ الْفِتْنَةُ الَّتِي كَانُوا يَحْذَرُونَهَا عَلَى الْأُمَّةِ شَرًّا مُسْتَطَرًّا ، وَتَكَبَّتْ بِسَبِيلِهَا بِخَسَارَةٍ لَا تُقَدَّرُ بِشَيْءٍ ، إِذْ فَقَدَتْ ذَلِكَ النِّظَامَ فِي الْحُكْمِ الَّذِي كَانَ مَثَالًا لِلتَّرَاهَةِ وَالْعَدْلِ ، وَكَانَ مَعْقِدًا لِاجْتِمَاعِهِمْ وَمَنَاطًا لِتَرَابُطِهِمْ ، فَإِذَا بَيْنَكُمْ الْوَحْدَةُ الَّتِي كَانَتْ تُنْظِمُ شَمْلَهُمْ تَتَحَوَّلُ إِلَى قَطِيعَةٍ تَكْرَأُ ، حَتَّى كَانَ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدًا .

وَرَزَحَتِ الْأُمَّةُ تَحْتَ نِيرِ الْجَبَّارِينَ وَفَهْرِ الظَّالِمِينَ ، مُسْتَعْرِثَةً الدُّلَّ وَالْهَوَانَ ، مُبَرَّرَةً كُلَّ مَا أَصَابَهَا مِنَ الْمُتَسَلِّطِينَ بِمُبَرَّرَاتٍ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، فَأَضَلَّتْ عَلَى ظُلْمِ الظَّالِمِينَ صِفَةَ الشَّرْعِيَّةِ ، وَجَعَلَتْ طَاعَتَهُمْ أَمْرًا مَحْتُمًا عَلَى الْعِبَادِ بِالْإِدْرَاجِ ضِمْنَ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبِهَذَا انْقَلَبَتِ الْمَقَاسِيسُ ، وَتَبَدَّلَتِ الْمَوَازِينُ ، وَاشْتَبَهَتِ الْأُمُورُ ، حَتَّى أَصْبَحَ الْحَقُّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلُ حَقًّا .

٧٢. وَالرَّاسِبِيُّ أَوَالِي بَعْدَ جُمْلَتِهِمْ وَمَنْ بِهِ نَسَبُ الْإِسْلَامِ قَدْ وَصِلَا
٧٣. عَنَيْتُ نَجْلَ إِبَاضٍ فَهُوَ حُجَّتُنَا أَمَا تَرَى فَخْرَهُ لِلْمُسْلِمِينَ خُلَا

أَيُّ : كَمَا نَدِينُ إِحْمَالًا بِتَصْوِيبِ الَّذِينَ حَكَمُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَبَوَا تَحْكِيمَ الرُّجَالِ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ حُكْمٍ ؛ نَخْصُ مِنْ بَيْنِهِمْ إِمَامَهُمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ وَهْبٍ الرَّاسِبِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِتَمْيِيزِهِ بِالْوَلَايَةِ بَعْدَ الْوَلَايَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَشْمَلُهُمْ جَمِيعًا .

وَكَذَلِكَ مَنْ وَصِلَ بِهِ نَسَبُ الْإِسْلَامِ ، وَذَلِكَ بِنَسَبَةِ أَهْلِ الْحَقِّ وَالِاسْتِقَامَةِ إِلَيْهِ ، لِمَا اشتهَرَ بِهِ مِنَ الدِّفَاعِ عَنْهُمْ ، وَالْمُحَاحَرَةِ بِكَلِمَةِ الْحَقِّ أَمَامَ أَهْلِ الظُّلْمِ ، وَالصَّدْعِ بِحُجَّتِهِمْ ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِبَاضٍ التَّمِيمِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ - .

عَلَى أَنْ هَذَا الْإِتْسَابَ إِلَيْهِ لَا يَغْدُو أَنْ يَكُونَ تَمَيِّزًا وَلَيْسَ تَشْرِيعًا ، إِذْ لَمْ يَتَرْتَّبْ عَلَيْهِ الْإِثْبَاتُ بِحَدِيدٍ ؛ لَا مِنْ حَيْثُ الْعَقِيدَةُ وَلَا مِنْ حَيْثُ الْفَقْهُ ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا قَامَ بِهِ هُوَ وَمَنْ نُسِبَ إِلَيْهِ : الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَرَجَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَفِي هَذَا يَقُولُ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - :

وَنَحْنُ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَشْرَعْ لَنَا	نَحْلُ إِبَاضٍ مَذْهَبًا يَحْمِلُنَا
مِنْ ثُمَّ لَا تَلْقَى لَهُ فِي الْمَذْهَبِ	مَسْأَلَةً تُرْسُمُهَا فِي الْكُتُبِ
فَنَحْنُ فِي الْأَصْلِ وَفِي الْفُرُوعِ	عَلَى طَرِيقِ السَّلَفِ الرَّفِيعِ
نَرْضَى بِمَا يَرْضَى بِهِ الْإِلَهُ	لِدِينِهِ وَتَأْيِي مَا يَأْبَاهُ
سِيرَتَنَا سِيرَةَ صَاحِبِ أَحْمَدَا	لَا نَرْضَى أَهْلَ الظُّلْمِ فِينَا مُقْتَدَى

وَلَيْسَ تَخْصِيبُنَا لِابْنِ وَهْبٍ وَابْنِ إِبَاضٍ بِمَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ مِنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمَا تُكْرَانَا لِحَقٍّ غَيْرِهِمَا ، فَإِنَّ كُلَّ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ ابْنِ وَهْبٍ حُكْمُهُمْ كَحُكْمِهِ فِي ذَلِكَ ، إِذْ مَا أَرَادُوا إِلَّا الْحَقَّ ، وَلَا قَامُوا إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى رَأْيِ ابْنِ إِبَاضٍ فِي عَصْرِهِ أَوْ بَعْدَ عَصْرِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ اشتهارِهِمَا ، فَأَبْنُ وَهْبٍ اشتهَرَ مِنْ بَيْنِ الْمُحَكَّمَةِ الْأُولَى لِأَنَّهُ قُلَّدَ الْإِمَامَةَ لِجَمْعِ الشَّتَاتِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ ، وَابْنُ إِبَاضٍ كَانَ هُوَ الْمُنَافِحَ ظَاهِرًا عَنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ ، إِذْ كَانَ يُجَاهِرُ بِمَا لَمْ يُجَاهِرُ بِهِ غَيْرُهُ فِي وَجْهِهِ أَهْلِ الظُّلْمِ .

فَلِذَلِكَ عُرِفَتْ هَذِهِ الْفِتْنَةُ بِنِسْبَتِهَا إِلَيْهِ ، وَإِلَّا فَفِي حَلَقَاتِ سِلْسِلَةِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ - مِنْ الْعُلَمَاءِ الْفَطَاحِلِ وَالْأَيْمَةِ الْعُدُولِ الَّذِينَ بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا - مَنْ هُمْ غُرَّةٌ لَامِعَةٌ فِي جَبِينِ التَّارِيخِ ، وَدُرَرٌ مُضِيئَةٌ فِي تِيحَانِ الْأَمْحَادِ ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِمُ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ :

٧٤. وَمَنْ قَفَا إِنْزَاهَهُمْ مِنْ كُلِّ مُجْتَهِدٍ شَاكِي السَّلَاحِ لِقَمْعِ الْخَصْمِ حِينَ غَلَا

فَكُلُّ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ وَاضْطَلَعَ بِمَا اضْطَلَعُوا بِهِ مِنْ أَمَانَةِ الدِّينِ ، فَاجْتَهَدَ فِي حَمْلِ رَايَةِ الْحَقِّ خَامِلًا سِلَاحَهُ مِنْ أَجْلِ قَمْعِ خُصُومِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ حِينَ غَلَوْا فِي الْبِدْعَةِ وَالْفَسَادِ ؛ فَلَهُ حُكْمُهُمْ فِي وُجُوبِ الْوَلَايَةِ لَهُ ، وَذَلِكَ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالتَّقْوَى وَالصَّلَاحِ وَالِاسْتِقَامَةِ .



ثُمَّ اخْتَمَمَ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - هَذَا التَّظْمَ بِمَا ابْتَدَأَهُ بِهِ مِنْ حَمْدِ اللَّهِ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ حَيْثُ قَالَ :

٧٥. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى إِتْمَامِ مَا رُمْتُ إِذْ مِنْ فَضْلِهِ كَمَلًا

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْحَمْدِ ، وَهُوَ هُنَا مُتَبَدِّلٌ خَبَرُهُ مُتَعَلِّقُ الْحَارِّ وَالْمَجْرُورِ الْمُقَدَّرِ ، وَتَقْدِيرُهُ : كَانَتْ . وَ«الرَّبُّ» صِفَةُ اللَّهِ ، وَهُوَ بِمَعْنَى : السَّيِّدِ الْمُصْلِحِ الْعَالِكِ لِلْأَمْرِ . وَالْعَالَمُونَ : جَمْعُ عَالَمٍ ، وَالْعَالَمُ يَصْدُقُ عَلَى أَيِّ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْكَائِنَاتِ كَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْعَلَامَةِ ، لِأَنَّ جَمِيعَ أَفْرَادِ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ هِيَ عَلَامَاتٌ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

وَقَدْ حَمَدَ الْمُصَنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - رَبَّهُ سُبْحَانَهُ هُنَا حَمْدًا مَقْرُونًا بِذِكْرِ النِّعْمَةِ الَّتِي هِيَ مَنْشَأُ لِلْقِيَامِ بِهَذَا الْحَمْدِ ، وَهِيَ التَّوْفِيقُ لِإِنْحَاكِ مَا رَامَهُ - أَيَّ قَصْدُهُ - مِنْ تَعْظِيمِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الْمُخْتَصِرَةِ مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَفِي هَذَا الْإِخْتِمَامِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى شُكْرٌ لَهُ ﷻ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَتَبَرُّكٌ بِذِكْرِهِ وَحَمْدِهِ ، وَتَفَاوُلٌ بِخَتْمِ الْأَجْلِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

٧٦. ثُمَّ الصَّلَاةُ وَتَسْلِيمٌ يُقَارِئُهَا عَلَى الَّذِي خَتَمَ الْمَوْلَى بِهِ الرُّسُلَا

٧٧. وَالْآلِ وَالصَّحْبِ مَا لَاحَتْ فَضَائِلُهُمْ وَمَنْ لَهُمْ فِي سَبِيلِ الْمَكْرَمَاتِ ثَلَا

سَبَقَ الْقَوْلُ فِي مَعْنَى الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ وَالْآلِ وَالصَّخْبِ ، فَلَا دَاعِيَ لِتَكَرَّارِهِ ،
وَعُطِفَ عَلَيْهِمْ هُنَا كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ فِي سَبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ ، وَهِيَ سَبِيلُ الْحَقِّ الَّتِي
أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، فَالْمَكْرُمَاتُ تَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهَا بِمُوَافَقَةِ نَهْجِ الْحَقِّ ، إِذْ مَنْ حَادَ عَنْ هَذَا
النَّهْجِ الصَّحِيحِ فَلَا كَرَامَةَ لَهُ .



وَهَذَا آخِرُ مَا يَسَّرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَهْدِيْبٍ مَا كُنْتُ أُمْلِيْتُهُ سَابِقًا مِنْ
التَّعْلِيْقِ عَلَى هَذِهِ الْمُنْظُومَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَلَمْ تَكُنِ الْفُرْصَةُ سَانِحَةً لِكِتَابَةِ
شَرْحٍ يَلِيْقُ بِقَدْرِ هَذِهِ الْمُنْظُومَةِ ، وَإِنَّمَا أُمْلِيْتُ هَذَا الْمُدَوَّنَ عَلَى كَاتِبِهِ
مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ إِلَى مَرْجِعٍ عِلْمِيٍّ إِلَّا فِي حَالَاتٍ نَادِرَةٍ ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ بِهِ
أَنْ يَجِدَ فِيهِ الطَّلَبَةُ النَّاشِئُونَ مَا يُعِينُهُمْ عَلَى فَهْمِ الْمُرَادِ مِنْ غَايَةِ الْمُرَادِ ،
لِيَسْهُلَ عَلَيْهِمْ دَرُسُهَا ، وَلِيَتَفَنُّوا دَرْكَ مَقَاصِدِهَا .

وَاللَّهُ هُوَ الْمُسْتَوْوِلُ بِأَنْ يُنْعِمَ عَلَيَّ بِالرِّضَا وَالْقَبُولِ ، وَأَنْ يَمْنَحَنِي التَّوْفِيقَ
لِمَا يُرْضِيهِ عَنِّي مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ، وَأَنْ يُزَكِّيَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالْإِخْلَاصِ
لَهُ وَحْدَهُ ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،
وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ إِمْلَانِهِ فِي صَبِيحَةِ الثَّلَاثِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْحَرَامِ مِنْ
عَامِ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ .





فهرس تفريج الأحاديث الشريفة

الواردة في الكتاب *

- ♦ **اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى** : أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة/ باب : صلاة الإمام ودعاؤه لصاحب الصدقة (١٤٩٧) ، ومسلم في كتاب: الزكاة/ باب: الدعاء لمن أتى بصدقة (١٠٧٨) من طريق عبدالله بن أبي أوفى .
- ♦ **إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** : أخرجه الإمام الربيع في كتاب: الحج، باب: في فرض الحج (٣٩٤) من طريق أنس بن مالك.
- ♦ **أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا قَالُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا** : أخرجه الإمام الربيع في كتاب: الجهاد/ باب: جامع الغزو في سبيل الله (٤٦٤) من طريق ابن عباس .
- ♦ **أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ** : أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: ((فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)) (٢٥)، ومسلم في كتاب: الإيمان/ باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢٢) .
- ♦ **جَنَّاتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتَيْنِيهَا وَمَا فِيهَا** : أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ومن دولهما جنتان (٤٨٧٨)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة وهم (١٨٠) .
- ♦ **نُورٌ أُنْزِلَ أَرَاهُ** : أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام نور أنى أراه (١٧٨) .
- ♦ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصَّرَاطِ سُورَانِ** : أخرجه أحمد ١٨٣/٤، والترمذي في كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في مثل الله لعباده (٢٨٦٨)، وابن جرير في التفسير ٧٥/١، والحاكم في كتاب الإيمان، باب: مثل الإسلام وحدود الله (٢٥٣)، وأبو الشيخ في الأمثال (٢٨٠) .
- ♦ **الْحَدِيثُ الَّذِي يَذُلُّ عَلَى أَنْ الْمَلَائِكَةُ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ** : أخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: في أحاديث متفرقة (٢٩٩٦) .

* الفهرس من وضع الناشر ، والأحاديث مرتبة حسب تسلسل ورودها في الكتاب .

♦ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ : أخرجه الإمام الربيع باب: في ابتداء
الوحي (٢) .

♦ لَمْ أَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ : أخرجه البخاري في كتاب: التفسير،
باب: سورة والنجم (٤٨٨٥)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قوله عز وجل : ولقد رآه نزلة
أخرى (١٧٧) .

♦ حَدِيثُ جَبْرِيلَ فِي الْإِيمَانِ : أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صلى الله
عليه وسلم عن الإيمان (٥٠)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام (٩) من طريق
أبي هريرة .

♦ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ وَلَنْ تُؤْمِنَ وَتَبْلُغَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَلَمْ مِنْ اللَّهِ ... :
أخرجه الإمام الربيع ، باب: في القدر والخدر والتنظير (٧٢) .

♦ ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ
يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَفُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ : أخرجه
البخاري في كتاب : الإيمان / باب : حلاوة الإيمان (١٦) ، ومسلم في كتاب : الإيمان / باب: بيان
حصال من اتصف من وجد حلاوة الإيمان (٤٣) .

♦ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ : أخرجه البخاري في
كتاب: الإيمان/ باب : حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥) .

♦ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ : أخرجه النسائي في
كتاب: الإيمان/ باب: علامة الإيمان (٥٠٢٨) ، وابن ماجه في المقدمة/ باب: في الإيمان (٦٧) .

♦ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ : أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب :
من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣) ، ومسلم في كتاب : الإيمان / باب: الدليل على أن
من حصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم (٤٥) .

♦ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ . وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ . وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ . قِيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ
يَوَاقِفُهُ : أخرجه البخاري في باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٢٩) .

♦ الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، أَعْلَاهَا كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ،
وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان / باب: أمور الإيمان (٩) .

♦ الإيمان بضَع وسبعون شعبة ... : أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان/ باب: بيان عدد شعب الإيمان (٣٥) .

♦ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذِي جَارَهُ : أخرجه البخاري في كتاب: الأدب/ باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر (٦٠١٨) ، ومسلم في كتاب: الإيمان / باب: ألحث على إكرام الجار (٤٧) .

♦ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ : أخرجه الإمام الربيع ؛ باب: في الضيافة والحوار وما ملكت اليمين واليتيم (٦٨٣) .

♦ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ : أخرجه الإمام الربيع باب: في العلم وطلبه وفضله (٢٥) .
♦ طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ : أخرجه ابن ماجه في كتاب: السنة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤) .

♦ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى : أخرجه الإمام الربيع، باب: في النية (٢) .
♦ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ : أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية (٥٤)، ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله صلى الله عليه وسلمك إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ (١٩٠٧) .

♦ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمُ بَعْضًا : أخرجه البخاري في كتاب: الآداب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً (٦٠٨٦)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين (٢٥٨٥) .
♦ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ : سبق تخريجه .

♦ ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر : أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم (٦٠١١)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٦) .

♦ آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر : أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب : علامات المنافق (٣٣) ، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب : بيان خصال المنافق (٥٩) .

♦ وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : هذه الزيادة تقدم تخريجها .

♦ إذا اتّمن خان : أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في علامة المنافق (٢٦٣٢)،
والنسائي في كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق (٥٠٢٠) .

♦ ثلاث من كن فيه فهو منافق، إذا حدث كذب، وإذا اتّمن خان، وإذا وعد أخلف، فمن كانت
فيه واحدة منهن لم تزل فيه خصلة من النفاق حتى يتركها : أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان،
باب: علامة المنافق (٥٠٣٨) .

♦ أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت به خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق
حتى يدعها، إذا اتّمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر : أخرجه
البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٣٤) ، ومسلم في كتاب : الإيمان، باب: بيان
خصال المنافق (٥٨) .

♦ وليذاذَن عن حوضي رجال من أمّي فأنادي أصحابي أصحابي، فيقال لي: لا تدري ماذا أحدثوا
بعدك، فأقول فسحقاً فسحقاً : أخرجه الإمام الربيع ، باب في الأمة أمة محمد صلى الله عليه
وسلم (٤٣) من طريق أبي هريرة .

♦ رجال أعرفهم ويعرفونني : أخرجه البخاري باب في الخوض (٦٢١٢) من طريق سهل بن سعد .
♦ مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا : أخرجه الإمام الربيع في كتاب: البيوع ، باب : في الربا والانفساخ والغش
(٥٨٢) .

♦ لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ : أخرجه البخاري في كتاب:
المناقب، باب: ما ينهى عن دعوى الجاهلية (٣٥١٩)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب
الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية.

♦ لَعَنَ الرَّسُولُ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ : أخرجه
البخاري في كتاب: اللباس، باب: المتشبهون بالنساء والمتشبهات بالرجال (٥٨٨٥) من طريق ابن
عباس.

♦ لَعَنَ اللَّهُ الرَّبَا وَآكِلَهُ وَمُؤْكَلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيهِ : أخرجه أبو داود في كتابك البيوع، باب: في
أكل الربا ومؤكله (٣٣٣٣)، والترمذي في كتاب: البيوع، بابك ما جاء في أكل الربا (١٢٠٦).

♦ لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ : أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في التحليل (٢٠٧٦)،
والترمذي في كتابك النكاح، باب: ما جاء في المحلل والمحلل له (١١١٩) .

♦ اعملوا فكل ميسر لما خلق له : رواه البخاري باب قوله : (فأما من أعطى واتقى) رقم (٤٦٦١)،
ومسلم باب : في كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابه رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته
(٢٦٤٧) .

♦ سَبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ : أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: خوف المؤمن من
أن يعبط عمله (٤٨) .

♦ لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفْرًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ : أخرجه البخاري في كتاب: الفتن/ باب:
الإنصاف للعلماء (١٢١) .

♦ مَنْ أَتَى رَجُلًا شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ أَوْ أَتَى النِّسَاءَ فِي أَغْجَازِهِنَّ فَقَدْ كَفَرَ : أخرجه الإمام الربيع
في الزيادات/ باب: الحجة على من قال إن أهل الكيثار ليسوا بكافرين (٧٤٨) .

♦ لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْكُفْرِ إِلَّا تَرْكُهُ الصَّلَاةَ : أخرجه الإمام الربيع في كتاب: الصلاة/ باب: جامع
الصلاة (٣٠٣) .

♦ لَيْسَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْكُفْرِ ... : أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان/ باب: بيان إطلاق اسم الكفر على
من ترك الصلاة (٨٢) .

♦ الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ : أخرجه النسائي في كتاب: الصلاة/
باب: الحكم في تارك الصلاة (٤٦٢)، والترمذي في كتاب: الإيمان / باب: ما جاء في ترك الصلاة
(٢٦٢١)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة/ باب: ما جاء في ترك الصلاة (١٠٧٩) .

♦ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ لَزَعَنِي أَحَدَهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي : أخرجه مسلم في
كتاب: البر والصلة والآداب/ باب: تحريم الكبر (٢٦٢٠) .

♦ الصَّلَاةُ جَانِزَةٌ خَلْفَ كُلِّ بَارٍ وَفَاجِرٍ، وَصَلُّوا عَلَى كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ : أخرجه الإمام الربيع في
الزيادات، باب: الحجة على من لا يرى الصلاة على موتى أهل القبلة (٧٧٦) .

♦ الصَّلَاةُ عَلَى مَوْتَى أَهْلِ الْقَبْلَةِ الْمُقَرَّنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاجِبَةٌ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ : أخرجه الإمام
الربيع في الزيادات، باب: الحجة على من لا يرى الصلاة على موتى أهل القبلة (٧٧٧) .

♦ أَنْ الْمُسْلِمِينَ أَخَذُوا يَوْمَ خَيْرِ جَرَابٍ شَحْمَ أَلْفَاهِ الْيَهُودِ مِنْ دَاخِلِ حَصْنِهَا فَأَكَلُوهُ : أخرجه
البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (٤٢١٤) .

♦ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ : أخرجه الإمام الربيع ؛ باب : في الولاية والبراءة (٤٩) .

♦ إذا بُويعَ لِرَجُلَيْنِ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الثَّانِي مِنْهُمَا : أخرجه مسلم في كتاب : الجهاد والسير / باب :
إذا بويع لخليفتين (١٨٥٣) .

♦ لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ : أخرجه البخاري في كتاب : الجهاد والسير / باب : فضل
الجهاد والسير (٢٦٣١) ، ومسلم في كتاب : الجهاد والسير / باب : المبايعة بعد فتح مكة على
الإسلام والجهاد والخير (١٨٦٤) .

♦ وَيُحْ عَمَّارًا تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ : أخرجه البخاري في كتاب : الصلاة / باب : التعاون في بناء
المساجد (٤٤٧) .

تم بحمد الله

الفهرس العام
لمواضيع الكتاب

مرکز تحقیقات کتاب و اسناد و اطلاع رسانی
جمهوری اسلامی ایران

الصفحة	الموضوع
١	مظلومة غاية المراد في نظم الاعتقاد
٣	تمهيد
٧	المقدمة
١٥	ذكر الجمل الثلاث وما تشتمل عليه
١٧	الجملة وتفسيرها
٢٢	نفي الأنداد والأنباه عن الله تعالى
٢٨	أسماء الله وصفاته الذاتية
٣٥	نفي الرؤية
٤٠	نفي التكليف
٤٢	الاستواء على العرش
٤٥	الإيمان بمحمد ﷺ
٤٨	الإيمان بالموت والبعث والحساب
٥١	الميزان
٥٤	الصراط والحساب
٥٧	الجنة والنار
٦٠	الشفاعة
٦٣	الورود
٦٦	الإيمان بالملائكة
٦٩	الإيمان بالأنبياء والكتب
٧٢	الإيمان بالقرآن والقول في خلفه
٧٧	الإيمان بالقضاء والقدر
٨٣	ذكر الإيمان وما يشتمل عليه
٨٥	ذكر الإيمان وما يشتمل عليه
٩٢	قواعد الدين
٩٨	أركان الدين

١٠١	مسالك الدين
١٠٨	فرز الدين
١١٦	هرز الدين
١١٨	الولاية والبراءة
١٣١	ذكر الكفر وما يشتمل عليه
١٣٣	ذكر الكفر وما يشتمل عليه
١٣٨	قواعد الكفر
١٤٣	أركان الكفر
١٤٧	ذكر الملل الست وأحكامها
١٤٩	ذكر الملل الست وأحكامها
١٥٢	الإسلام
١٥٥	اليهودية
١٥٥	النصرانية
١٥٥	الصابئة
١٥٥	المجوسية
١٥٧	الإشراك بالله
١٦٥	خاتمة
١٦٧	الإمامة
١٧٩	خاتمة النظم
١٨١	خاتمة الشرح
١٨٣	فهرس تخريج الأحاديث الشريفة الواردة في الكتاب
١٩١	الفهرس العام لمواضيع الكتاب

